من يرث !!

رواية

سمير حمدي قُنبر

obeikandl.com

obeikandl.com

الشَّفَقُ

من بين أشرطة ضياء القمر الفضية التي تتخلل أوراق وأغصان شجرة التوت الوارفة والصامدة بظلالها على ظهر المقام، رآه يتحرك، حدثته نفسه عن ما يرى بأنه خيال ولكن صحة الرجل النفسية والعصبية والجسدية كانت تخبره دائمًا بكل ما يرى حتى ولو كانت حلكة الظلام قد غطت الدنيا وما فيها

وعندما اقترب من باب المقام وجده مفتوحا، حدثته نفسه:

- الباب منفرج عن وضع إغلاقه، هل يعقل أن يفتح الشيخ إبراهيم المقام في هذه الساعة من الليل، ذهب وقت العشاء منذ ساعات ولم تقترب حتى ساعة الفجر، وإنما الليل في مغطس من سواد، والناس نيام جميعهم لا يصدر عن البيوت أصوات سوى أصوات أنفاس تدخل وتخرج وبعض الشخير حتى الديكة الآن في ثبات النوم العميق استعدادا لأداء مهم تهم المقدسة باستباق وإتباع آذان الفجر بصياحهم، لابد أنه لص ولكن من يكون بتلك الدناءة ليسرق صندوق مقام سيدي حسن رضي الله عنه وأرضاه لابد أنه أحد أبناء الزواني من الغجر!

اقترب بروية وحذر ناحية الباب، كتم أنفاسه وحركة أمعاءه كما يفعل عندما يرى ذئب يحوم حوله وأولاده من على بُعد ككشاف لقطيعه حتى يطمئن أن الرجل قد غاص بين عيدان الذرة بعيدًا عن المدار والتابوت حتى يحضر باقي قطيعه وينقض على أولاده الصغار؛ فيمزقون الأشلاء ويستمتعون بوجبة شهية.

كان يغوص في عمق الغيط بين عيدان الذرة ويشق الظلام بجسده الفارع وعينيه القويتين واللتين - وإن لم يكن هناك شعاع لقمر - كانت ترسل خيوطا مضيئة وكأنها انبعثت من داخله، وما أن يختفي عن أعين الذئب المتلهف والذي أومأ برأسه لأسفل وأعلى كمن ينظر بحثًا عنه حتى يدور ويعود ؛ ولكن من حقل ثالث جار له ولا يجد الذئب الكشاف ولا ألفا قطيعه ولا فتيانه الذين يقومون بالهجوم مناصا من كرات حديدية ملتهبة تخترق جلودهم متجهة نحو العظام ليسقط منهم من كان في الطليعة ويعجز من كان متخلفًا أو متربصًا كخط دفاع

خلفي ثم يقترب بثبات وهامته تكاد تلامس النجوم ممسكًا ببندقيته وموجهًا فوهتها أمامه وعلى بُعد خطوات من الذئب القائد كان يتكأ على ركبته اليمنى ويظل ناظرًا إلى عينيه وهي تلمع بقسوة مع كل صرخة يطلقها الذئب ليصبح عواءه كنذير شؤم يرعب من ينام في فراشه الوثير وبين جدران داره ولكن العواء كلما انطلق من حنجرة الذئب كانت دقات قلبه تزداد هدوء ورصانة، عواء الذئب كان كموسيقى تبعث في روحه الانتصار، منشط لرجولته، غذاء يشد العصب ويحجر العضلات.

في آخر معاركه منذ أيام قليلة أصاب ثلاثة ذئاب بخرطوشين انطلقا من فوهتي بندقيته الغدارة ذات الماسورتين، ورثها عن أبيه ولم يفرط فيها أبدًا، كانت كأولاده، نفس المعزة، ونفس الإحساس أخبره أبيه أن كلها منافع قائلًا: -

"في العركة تشد الحيل وتحمي المال والأرض، وفي العجز تكون عكاز يشد الظهر".

اقترب كعادته دون خوف وإنما بحذر فالذئب المصاب والمقبل على الموت فيه شراسة الأسد وضخامة الجمل واتكأ على ركبته اليمنى كما يفعل دائمًا ممسكًا ببندقيته بيده اليسرى بينما اليد اليمنى تعس عن مطواة الجندول التي ورثها هي الأخرى عن أبيه والتي أحضرها من السودان عمه شعبان عندما كان ضمن جند جيش الخديوي.

وكلما صمت الذئب الكبير أمامه رعبًا منه ربما أو استسلامًا لمصيره المحتم على الأغلب، يغرس سن مطواة الضخمة في جلده وفراءه الكثيف، فيئن بنفس مستطيل ومتقطع ثم يعوي كمن رأى خراب الدنيا كلها وإن لم يتبعه من سقط من الذئاب الأخرى كان يقذفهم بطوبة من حوله فينطلق العويل متدرج الأصوات ما بين صراخ قاسي ورخامة كاملة لذئب هو ملك في مملكته.

وهناك على الجهة الأخرى من جسر الترعة وحول التابوت ينظر القطب مشرئبًا ومرتكزًا على ركبتيه ويتوارى خلفه أخيه الأصغر شعبان يسترق نظرات خاطفة والرعب يخيم على كل قطرة لدم في جسده، كلما كان يرتكن ناحية اليسار ومن تحت إبط أخيه القطب لينظر لأبيه وهو جالس قبالة الذئاب كانت أشعة من نور تصدر عن حركة لهب النيران وتطير لتنعكس على أعين الذئب كلما اشرأب برأسه ليطلق عواءه وإن ارتكن ومالت رأسه ووضعها على الأرض نغزه الشيخ الصادق بمطواته فيرفعها ليطلق عواء منفر، مرعب، يصم الآذان وفي

كل زفرة يطلقها من فمه كانت تندفع الدماء من جرحه أعلى رجله اليمنى وقفصه الصدري.

دقائق وخبئت الأنفاس الكريهة وارتكنت الرأس على الأرض وانطلقت رائحة الدماء التي وإن كانت أثقل من رائحة السمك المتعفن على جسر الترعة والغائص في القش والطين.

وتلك الرائحة هي الرسالة والوصية التي يتركها أي ذئب خلفه حتى تعرف باقي أسرته وباقي قطيعه أنه هنا قتل ولابد من الأخذ بالثأر ممن قتله كما أن الذئاب لا تترك جثة لإحداها في العراء أبدًا وإن كانت شبعة فإنها تمزقها إلى أشلاء ويأخذ كل ذئب قطعة في فمه ويدور بها حتى يجد لها بقعة يدفنها فيها أو يطعمها لصغاره.

اعتدل الرجل وانتصب واقفًا كساق نخل ضارب بجريدة ما بين النجوم هناك، هكذا رآه القطب وأخيه

- يا قطب
- أيوه يابا
- هتلاقي شوال قديم اللي فيه خطين حمر في عدة البقرة، احدفه، هتعرف؟
- أيوه يابا حاضر

مزق الشيخ الصادق الجوال إلى شرائط طوليه بيديه وربط أرجل كل ذئب في بعضها وأيضًا أغلق الفم وربطه بإحكام ثم وضعهم الثلاثة على ما تبقى الجوال وجره خلفه وتوجه إلى التابوت.

وضعهم بعيدًا على حافة السكة ما بين أول عود ذرة والنجيل المكتظ على حافة المروة ثم مشى بخطوات ثابتة ونظر إلى وجهي ولديه ثم أرسل عينيه هناك بجوار الثلاث نخلات المربوطة جوارهم الجاموسة اطمئن أنها موجودة تبرك على الأرض باستمالة وتتشدق بطعامها والبقرة مازالت تدور بجزع الكافور المركب على ترس التابوت الخشبي.

أجج النار بوضع قطع كبيرة من أغصان الكافور وجريد النخل الجاف والمتساقط حول الجزع المشترك والمتلاحم للثلاث نخلات، ثم جلس بالقرب من الذئاب وسند ظهره على جزع التوتة الكبيرة والتي تغطي التابوت بأكمله وجزء من الأرض وكامل السكة حتى تصل إلى منتصف المياه في الترعة.

وأخرج علبة الدخان من جيب الصديري ولف سيجارة وأشعلها بقطعة من الأغصان المتقدة في النار

ثم نادى على ولديه وجلس كل منهم تحت ذراع.

- أوعوا تكونوا خايفين؟ الرجالة مبتخافش.

- أني مش خايف يابا، شعبان هو اللي خايف

- لا.. لا.. لا يابا أني مش خايف

- صحيح يا شعبان منتش خايف؟

- لا يابا، أني راجل، وأنت قولت الرجالة مبتخافش

- طيب تعالوا

سحب نفس كبير من سيجارته ثم رماها في المروة وأخرج حيزًا كبيرًا جدًا من الدخان الأبيض وهو يتفل بقايا التبغ الأحمر من بين شفتيه والذي بقيت منه قطع صغيرة على شاربه الكبير، ثم جر ولديه ممسكًا بمعصمهم بقوة نحو الذئاب.

- فُكّ حنك الديب الكبير يا قطب، وأنت يا شعبان فُكّ حنك الديب التاني.

تقدم القطب متماسكًا رغم ثبوت ملامحه وتصلب أعصابه ومد يده ممسكًا برأس الذئب بكل قوته ثم نزع الرباط من حول فمه ولم يستطع أن يترك الرأس من بين أصابعه ولم ينطق، نظر إليه الرجل بوجوم ونزع يده عن رأس الذئب بصعوبة.

- الديب ميت يا قطب متخافش، طيب ولو لقيت نفسك معاه وسط الغيطان ويدوب بتشوف أودام رجليك بالعافية! هتعمل إيه، اجمد وخلي قلبك ميت، الديب لو شم إنك خايف هيقطعك بالحتة ويعزم عليك ولاده عشان يعلمهم، وولاده دول ممكن يكونوا بيرضعوا لسه ونيابهم لسه طرية! شوف بقى هتقعد كام ساعة على ما تخلص؟

نظر إلى شعبان وقد تداخلت عضلات جسده تحت عظامه فأصبح كالجريدة واهتز عوده أمام نسمات باردة تقدم وتحجم كل عدة دقائق من ناحية الترعة ونسمات دافئة تقدم وتحجم من ناحية غيطان الذرة المتلاصقة وكأنها غابة لا ترى لها نهاية.

- مالك يا شعبان، متخافش، مد إيدك وفكّ الرباط من الديب، مد إيدك

احتد صوت الصادق وغلظ وبرز فيه صوت الترهيب الذي طالما سمعوه يصدر من المندرة عندما يجلس الرجل ليحل مشكلة لأحدهم.

تقدم شعبان وجلس القرفصاء واهتز كل جسده داخل جلبابه وأمسك رأس

الذئب بكلتا يديه فابتلتا من الدماء والريالة التي سالت من فمه، انزلقت من بين يديه المهزوزتين فنظر إلى أبيه فرآه فارع الطول كالنخل من خلفه حتى أن جريد النخل قد نبت من رأسه وأعلى طاقيته، لم يغير الرجل من نظرته، لم يرمش حتى، فارتعد

أمسك برأس الذئب بعد أن مسح يديه بالأرض فأصبحتا خشنتان بفعل الطين الذي تكون من التراب وفك الرباط ثم وقف أمام أبيه.

ابتسم الرجل وانفرج وجهه وامتط شاربه حتى ساوى وجنتيه الضخمتان.

- مفاضلش ادامنا إلا الطلق الصغير في الغيط، ها هتجمدوا كده وتعرفوا تقعدوا هنا على ما أنزل أبص على الأرض واجي

- هو لازم تبص يعني يابا، ما إحنا كل مرة نسقي فيها الأرض، نعمل حساب التصفية ونمشي.

- متخافش يا شعبان، أني هانزل أبص برضه، اتعود لما تعمل حاجة تعملها صح للأخر، وإحنا يا بني طول عمرنا اتربينا إن زرعتنا أحسن زرعة في ميت أبو الكوم وكفرها وزرقان وكفرها كمان، خد يا قطب البندقية خليها معاك، عمرتها أهه بعيارين، لو شوفت ديابة متضربش إلا لو حسيت إنها ناوية تهجم عليكوا، الديابة لو عرفت إن البندقية فاضية هتهجم

- حاضر يابا متخافش

أمسك الرجل بعصاه الغليظة وانزوى بين عيدان الذرة واختفي الحفيف الذي يصدر عن اصطدامه بأوراق الذرة شيئًا فشيئًا، تأهب القطب وظل واقفًا ممسكًا بالبندقية بينما جلس شعبان ساندًا ظهره على جزع التوتة الكبيرة وأمام النار ممسكًا بفرع طويل مقدمته في النار تلتهب وتتفتت وتتطاير أجزاء صغيرة منه بعضها يتبخر في سرب من اللهيب والدخان وأخرى تسقط بين الفروع الكبيرة لتذوب وتتحول إلى أجيج.

دقائق ثقيلة تمر عليهم وهم متوجسان وأعينهم ترقب كل شاردة حتى إذا ما اهتز جزع شجرة عن بعد ثبتت الأعين عليه تتفرس حركته قليلًا ثم تعود لتنظر حولها في كل مكان والقطب واقف كحارس الحدود في المنتصف، البقرة تدور بجزع الكافور وخرير الماء ثابت وأخيه يجلس على يمينه متحفزًا ممسكًا بالفرع المشتعل من مقدمته والجاموسة الضخمة تتشدق غير عابئة بشيء على يساره تحت النخل، حتى أصدر الحمار همهمة متصلة متداخلة ومكتومة كما لو كان

سيطلق نهيقه الزاعق ولكنه يمتنع ويستمر في إصدار الهمهمة.

هذا حمارهم تربي لديهم منذ كان جحشًا صغيرًا وولد في حظيرة مواشيهم داخل الدار.

نظر إليه القطب فوجده يحرك رأسه لأسفل وأعلى كمن يسحب شيء ناحيته وأذناه الكبيرتان تشرئبا لأعلى وموجهتان نحو الترعة ويفرك الأرض بحافره الأيمن فجال في خاطره:

- أنه يريد أن يقول شيئًا ما، هناك ما يثيره! ! يفعل مثلما كان يفعل وهو جحش صغير عندما كان يربطه أبي ويلكزه بقبضته الكبيرة في جنبه، يخاف كل الخوف من أبي وإن قسونا عليه فقد كان ينتظر أن يراه أبي ثم يظل يفعل ذلك حتى يقترب منه ويضع يده على رقبته فيصمت تمامًا ويهز ذيله في سعادة ويرفع رأسه لأعلى محركًا شدقيه، كان يشتكي لأبي من ظلم شعبان له، جحش صغير لم يقوى على تحمل العمل أو حمل أي إنسان وكان شعبان يضربه ويركبه فيسرع الخطى مطلقًا نهيقه المستطيل والمتقطع، وبعد عدة شكاوى منه لأبي، فهم الرجل المراد ونهر شعبان وغلظ له التهديد فتوقف عن ذلك واليوم أصبح الحمار الحمول في عمل الدار كلها، وأمه بقيت في الدار عجوز لا تقوى إلا على حمل عدة أرطال من الذرة والقمح عندما تذهب أمي إلى طاحونة عائلتنا طاحونة نصر الدين، هذا الحمار لا يفعل ذلك من فراغ!

نادي شعبان بهدوء وخلخلة

- قطب

- أيوه يا شعبان

- بص كده هناك عند الجميزة

نظر القطب نحو جميزة منصور والتي كانت تلتصق بالمعدية الصغيرة والتي صنعت هي الأخرى من فرعين من فروعها الكبيرة والتي عبرت الترعة كلها حتى وصلت أعلى زريبة رمضان واتفقا على اقتطاعهم من الأم وتحويلهم إلى معدية تعبر الترعة وتصل الجسرين

- دا ديب ده يا شعبان ولا كلب؟

- والله يا خويا منا عارف، بس اتهيألي ديب! اضرب يا قطب

- متخافش يالاه، الديب ميهجمش لوحده أبدًا زي أبوك ما قال وبعدين دا بعيد أوي عالضرب

- طب وبعدين؟

- تعالى هنا أقف جنبي في ضي النار خليه يشوف إن إحنا اتنين ومعانا سلاح كمان.

وقفت العسقلة الأم ثابتة كالحجر كما لو كانت تحاول رسم صورة لقاتلي زوجها وابنها، ثبت القطب موجها فوهة بندقيته ناحيتها وعيناه ثابتتان،

نعرت الجاموسة بعمق فنظر إليها وجد ذئب يقف على بعد خطوات منها، لا يصدر أي صوت ولا يفتح فمه وإنما متحفز يميل رأسه لأسفل قليلا

وجه القطب فوهة بندقيته ناحيته وتحفز للضرب.

- اعمل إيه يا ربي لو ضربت ممكن تيجي في الجاموسة وتبقى مصيبة

- واد يا شعبان تعال والزق ظهرك في ظهري وخلى الفرع في إيدك مولع زي ما هو كده.

- يا نهار اسود

- إيه يالاه؟

- ديب، ديب كمان يا قطب واقف هناك أهو مطرح ما أبوك موتهم.

- متخافش يالاه واجمد

- اللي هيقرب منهم ناحيتنا هاضربه، متخافش

- أبوك، أبوك يا قطب، إذا كانوا دول هنا يبقى إيه اللي حصل لأبوك؟

- أبوك ميقدرش عليه ديب، متخافش عليه واجمد لخوفك يشجعهم علينا.

obeikandi.com

obeikandl.com

الغَسَقُ

دقائق تمر ولا يعلو على صوت الأنفاس صوت، حتى حفيف الجريد في أعالي السماء على رؤوس النخلات الثلاث قد توقف، لم يعد القطب ولا شعبان يفرقان ما بين صوت دقات القلب أو دقات قلب الذئاب التي تدق بحدة وهدوء مع أنفاسها الباردة.

- وبعدين يا قطب أني خايف

- متخافش يالاه وأجمد لو متنا نموت رجالة زي أبوك ما قال وطول ما البندقية في أيدينا والنار مولعة عمرهم ما يقدروا يهجموا

- طيب ما تضرب يمكن يخافوا ويهربوا

- ويمكن عايزينا نضرب عشان البندقية تفضي ويقطعونا وبعدين دول ثلاثة اضرب علي مين فيهم؟

- اضرب على خلفة الشيطان اللي هناك في البر التاني، شايف واقفة متسمرة أزاي وعينيها بتطق شرار ولا النار.

- على ما اضربها يهجم عيالها علينا ولا يعوروا الجاموسة.

قفز الذئب المحتد في ثبوته من خلف الجاموسة التي ارتعبت ودارت عدة دورات حول رباطها في جزع النخلات الثلاث وأصبح على بعد خطوات منهم فضربه القطب بطلقة واحدة من الماسورة اليمين، قذف على بعد أمتار وهو يعوي ويتقلب في القش حتى احتضن جزء بارز عن الأرض من جذور البوص الإفرنجي وفي تلك اللحظة قفزت الأم من البر الثاني للترعة في قفزة واحدة فعبرت وتقدمت ناحيتهم وهي تعوي بشخير مرعب والريالة تتساقط من بين فكيها، أصبحت قريبة جدًا والرعب يلف شعبان وجسده ينتفض فيهز ظهر القطب.

وجه القطب بندقيته ناحية الذئب الثالث على حافة المروة الفاصلة بين غيطهم وغيط محروس القاضي وقبل أن يكمل توجيه الغدارة انقض الذئب في

قفزة ناحيتهم حتى أصبحت فوهتها في وجهه ضغط القطب دون وعي على الزناد فخرج الخرطوش ومزق رأسه بينما قفزت الأم على شعبان والذي أمسك بفكيها بين يديه وانقلب على الأرض كما لو كان في عراك مع أحد المراهقين من سنه.

رمي القطب البندقية من يده وأمسك بالفرع المشتعل يحاول أن يضربها ولكن كيف وهي تحتضن أخيه ويدوران سويًا

يدور حولهم ويقفز.

انطلق من بين عيدان الذرة الصادق والذي كان على بعد عدة أمتار عند عودته من أخر الغيط عندما سمع صوت الطلقة الأولى فأيقن أن الذئاب لن تترك جثث أبناءها أبدًا وانطلق كالسهم يفرق عيدان الذرة كوميض حارق

قفز قفزتين من فوق كومة السباخ التي تجاور أول عود ذرة في الغيط وأمسك بعظام ظهر العسقلة يجذبها بقوة ليخلص ابنه وقذفها في حركها واحدة مبعدًا إياها.

ولكنها لم تتحرك بعد أن طاحت بعيدًا وثبتت على حافة المروة جوار أبناءها الذين قتلهم من قليل.

احتضن أبناءه ودفئهم بجسده وهو ينظر ويتفرس في وجهيهما اللذان طارت الدماء وتبخرت منهما وجحظت الأعين لتشمل نصف الوجه

وبعد عدة دقائق قبل رأسيهما وربت على ظهريهما

وقام ينظر ليجد الأم قد فسخ فكيها عن بعضهما تمامًا، فقد أمسك بهما شعبان وفكّ مفاصلهم في ثوان من شدة الرعب.

- رايح فين يابا؟
- أني شوفت حد عدي كده أدام عنيا وباب المقام أهه مفتوح.
- يكون حرامي يعني! !
- أوومال يعني هيكون إيه يا قطب؟
- طيب وبعدين يابا مش يمكن ملاك وجاي يونس سيدي حسن.
- وهي الملايكة عايزه أبواب يا بني
- طيب وبعدين
- ولا قبلين يا بني
- أني هادخل أشوف مين ده وأنت أقف واعمل قطوع هنا لو هرب تمسكه،

تقدرعليه يا قطب ولا تيجي معايا.
- لا متخافش يابا لوكان دكريواجه عصايتي.

اقترب من الباب بحذرثم استجمع أنفاسه ودفعه في هبة واحدة كطلقة وقد خرجت من فوهة بندقيته الغدارة
سقط أمين وتكوم على الأرض ثم وقف على ركبتيه ناظرًا نحو الباب
- مدد، مدد يا سيدي مدد
- مدد؟ مدد مين يا نجس؟ اطلع يالاه تعالى هنا بدل ما أضربك بالنار.
- مين؟
- قوم يالاه فز

لم يستطع أن يقف، توجه ناحيته الصادق وأمسك بطوق جلبابه وجذبه من قفاه وجره حتى خرج إلى تحت التوتة الكبيرة والمعلق فيها فانوس زجاجي كبير وبداخله لمبة صفيح كبيرة تشتعل بالجاز الأبيض وتصدرلهب عريض لونه أحمر وأعلاه لهب أخرمن الهباب الأسود.

- أنت مين يالاه؟
- أني أمين يابا صادق
- أمين مين يالاه؟ وتعرفني منين!
- أني أمين ابن ناجية الغجرية
- وإيه اللي جابك هنا في الساعة دي؟
- كنت جاي أقرأ الفاتحة لسيدي حسن واطلب منه المدد يابا صادق.
- تطلب المدد؟ ولا تطلب اللي في الصندوق يا نجس يا بن الزواني. ! !
- والله العظيم. .
- متحلفش بالعظيم, تعرف العظيم منين أنت يا خلفة الزني، يا كلب اخرس.
- عيالي يابا صادق والله العظيم بيعيطوا في الدارمن الجوع
- دارإيه يا يالاه! أنت عندك دار؟ أنت وأمك ليكوا دار!
- عشان خاطر النبي يابا صادق وحياة سيدي حسن تسيبني ومعدتش أجي هنا تاني.

- من ساعة ما شفنا خلاقكوا العكرة وسرقة الجديان والبط والوز كترت، وقولنا غلابة وسيبناكم تنصبوا خيمة على جسر البحر، شويه في شويه عملتوا جديلة بوص ودهنتوها طين من البحرو ركبتولها باب وبنيتوا فرن وعملتوها دار، والله، والله يا نجس ما اسيبك أبدًا والليلة دي تبات في الدوار عشان تعرف إن الله حق.

- أبوس رجلك يابا صادق الغفر هيموتوني، أني غلبان محيلتيش حاجة، أسبوع! أسبوع بحاله ومحدش راضي يديني يوميه عنده، أعمل إيه؟ وأمي عميت ومحيلتهاش حاجة، لو وديتني الدوار عيالي وأمي هيموتوا من الجوع.

- وعشان ميموتوش تسرق المقام، مقام سيدي حسن الوفائي الطاهر، الشهيد يا نجس.

- سيدي حسن عمره ما تأخر عليا أبدًا يابا صادق وكل مرة أجي أطلب مدده يجبرني بس ساعات بيتأخر إنما دايمًا مدده يجبرني ويسترني.

- ولما اتأخر مدده، تقوم تيجي تسرقه يا خلفة القرود.

- سيدي حسن كريم ولما ضاقت الجيوب عليا وادورت العينين عن وشي جيت أشوف لعيالي لقمة.

- طيب، أني هاربطك في التوتة دي ولو سيدي حسن رضي عنك هتفك نفسك قبل النهار ما يطلع وتتفضح، وإن مكانش تبقى عبرة لكل كلب زيك.

- لا والنبي يابا صادق، يابا صادق أبوس رجليك، الحقني يا سي قطب أبوس إيدك.

- ألحقك من إيه يا نجس!

وألقمه القطب في وجهه بقبضته الكبيرة والتي ورثها عن أبيه، لم يستطع أن يصدر صوت خوفًا من أن يصحوا أحدهم ويراه.

- معاك حبل على البغل يا قطب؟

- معايا يابا حبل جديد، مجهزه عشان رفع التابوت بكره.

- هاته

ربطه القطب وأبيه في توتة سيدي حسن والتي نبتت عند مدخل المقام ولا أحد يعرف من أين جاءت؟ وإنما استيقظ الجميع في يوم ووجدوها قد غرست في هذا المكان بالقرب من الباب وحول جذورها الأرض جافة ولا أثر لحفر أو غرس،

واليوم قد تفرعت وارتفعت ليراها كل من قرية ميت أبو الكوم من سطح بيته.

حاول (أمين) أن يفك رباطه لم يستطع، حاول مرات حتى تمزق الجلد تحت الرباط المحكم من معصميه وكعبيه.

سالت الدماء القليلة التي تدور في عروق جسده الهزيل من الجوع والفقر فخارت قواه وبقي كما هو مصلوب على الشجرة مرفوعة ذراعيه لأعلى ومربوطة في فرع كبيرة ومربوطة رجليه إلى جذع التوتة بإحكام.

obeikandl.com

obeikandl.com

العَتَمَةُ

انكشف ستار الليل وتوسع ضوء النهار شيء فشيء حتى شمل القرية كلها
خرج البعض يسحب خلفه بهائمه وراكبًا حماره ليجد أنه قد تجمع البعض بالقرب من باب المقام .

وكلما أقبل أحدهم توقف لينظر ويشاهد ويتعجب، أصبحت الجموع وكأنه سوق مواشي المركز، الجلابيب تتداخل مع الأبقار والجاموس والأغنام والماعز والكل يتعجب والكل يردد. .

- شيلاه يا سيدي حسن شيلاه
- سيدي حسن ربطه.
- يا ترى ليه ياوله! !

- بيقولك (أم مستقيمة) كانت بتبص على (فتح الله) ابنها في المقعد عشان عيان وعنده سخونة، شافت من الشباك أتنين من خدام سيدي حسن، طوال زي النخل مسكوه وربطوه زي ما يكون فسيخة في أيديهم وركبوا ركوبتهم حصان أبيض ومشيوا، خافت قفلت الشباك وخدت ابنها في حضنها ونعست.

- مين اللي قالك يالاه؟

- هي كانت هنا دلوقتي ووشها أصفر زي الليمونة أول ما شافت الواد أمين ابن ناجية صرخت وقالت شيلاه يا سيدي حسن شيلاه وسورقت، وخدوها على دارها وهي تايهة خالص.

شق صفوف وأكوام البقر والجاموس شيخ الخفر (مصطفى الملاح) بصفرة وجهه ونحافته المعهودة وهو يدب فوهة بندقيته الميري المغطاة والمغلقة بسدادة من الفلين في ظهر وجنب من يقابله ومن خلفه كان اثنين من الخفر.

- إيه اللي ربطك كده ياوله! انطق قول.

همهمة ضعف وسقوط تصدر عن أمين

- ما تقول يا وله

- أص.. أصل.. سيدي.. ح.. حس.. حسن
- مدد يا سيدي حسن مدد
- أني متمم عالدرك هنا ياوله ومشوفتكش، جيت إزاي؟
- أصصص.. أصل أني.... سسيدي ححسسن
- مديد يا طيب يا مقدام يا قاهر اليهود مدد، سيدي حسن جابك من عشتك على البحر وربطك هنا! ! عملت إيه يا نجس؟ يالا يا جدع أنت وهيو كل واحد يروح على غيطه ولا داره، يلا كل نفر يشوف مصلحته

بعد أن أخبر شيخ الخفر العمدة بما حدث طلب منه أن يفك رباطه ويحضره إلى الدوار ولكن شيخ الخفر ارتعب من الفكرة، فكيف له أن يتجرأ ويفك وثاق مبارك بيد سيدي حسن الوفائي.

- بقولك روح فكه وهاته يا مصطفى
- أني مقدرش يا حضرة العمدة
- متقدرش ليه يا اصفر؟
- دا سيدي حسن هو اللي كتفه، ولما أتسخط فيها ولا أنشل بقى! !
- بقولك روح فكه وهاته يالاه
- مقدرش جنابك ضرب الكرباج ارحم من غضب سيدي حسن.
- طيب روح اندهلي الشيخ إبراهيم
- الشيخ إبراهيم مين؟
- سيدنا يا ابن روبية
- حاضر جنابك

حضر الشيخ إبراهيم أمام الجامع ومحفظ القرآن وذهب برفقته شيخ الخفر وفكوا رباط أمين من التوتة ولم يستطع أن يجيب على أية أسئلة وجهها له العمدة (نائل الفاضي)، تخيل أنه يمكر عليه ويمثل الإعياء والضعف، نظر إلى خفيره البغل هكذا كانوا يطلقون على (الحضري) فقد كان فحل جاموس في شكل أدمي، رفع البغل يده الكبيرة وضرب أمين على وجهه، سقط على الأرض متكومًا وابتلع لسانه وأخذ ينتفض كمن يسلم الروح، لكزه البغل برجله في جنبه فلم يؤتي بأي رد فعل.

- الولد هيموت يا عمدة
- دا نجس ابن زواني ما يموت يا شيخ إبراهيم على الله نرتاح من سحنته

- أني لا يمكن أن أشهد على هذا، ترأف يا عمدة
- استعدله يا حضري
- حاضر جنابك
- لا إله إلا الله، شويه ميه بسرعة يا بني الولد بيموت.
- ماله وشه أزرق كده ليه يا شيخ إبراهيم
- يمكن من الضعف يا عمدة
- استعدله معايا يا بني يا حضري
- حاضر يابا إبراهيم حاضر

ارتجف بين يديهم وارتعش عدة رعشات خفيفة ومتقطعة ثم راح.

لفت الأخبار في ميت أبو الكوم في دقائق وأن سيدي حسن انتقم من أمين بن ناجية ولا يعلم أحد ما السبب، ربما يكون ابن زنا مثلما يقول الجميع وأن سيدي حسن غضب عليه ولكن كيف؟ وهو قد دخل المقام مرات ومرات وتبرك به وكان في يده ابن من أبناءه! ! لماذا لم يغضب عليه عندما دخل المقام أول مرة؟ من المؤكد أنه فعل شيئًا سبب غضبة سيدي حسن عليه، كل رجال القرية ونساؤها يقولون أنه يعيش مع زوجته دون زواج فهذه عادة الغجر، وأن الأخ منهم ربما يطأ زوجة أخيه ليلًا ولا أحد منهم يتحدث عن ذلك، وهناك بعض النسوة العجائز يقولون أنه كان يعاشر أمه معاشرة الأزواج قبل أن يأتي في يوم ومعه بنت صفراء ويقول عليها أنها زوجته، لا شيء مؤكد ولا شيء ثابت وإنما الثابت والراسخ تمامًا دون شك هو أن سيدي حسن غضب عليه وربطه في التوتة ليكون عبرة ثم قتله قبل أن يخبرهم بالسر عند العمدة.

- لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله
- روح يالاه انده لشيخ الغفر
- حاضر جنابك
- وأنت إزاي يا شيخ إبراهيم مشوفتش الولا ده مربوط أدام المقام وأنت بتصلي الفجر! !
- واني هاشوفه إزاي يا عمدة! باب الجامع من الناحية البحرية وباب المقام من الناحية القبلية وعلى سكة الغيطان زي ما أنت عارف والمقام مبيتفتحش إلا كل يوم خميس من العصر للعشا.

- ايوه ايوه، بس تفتكر مين ربطه؟ !
- العلم عند الله يا عمدة، يمكن يكون سرق حاجة من عند حد وعمل فيه كده.
- طيب وأنت رأيك إيه يا شيخ إبراهيم؟
- في إيه يا عمدة
- في الكلب ده نتصل بالمركز ولا إيه؟
- طبعًا يا عمدة، الواد مات ومش عارفين إذا كان مات من الضرب ولا الربط ولا إيه؟
- ايوه بس هيقلب علينا الدنيا النجس ده!
- الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة يا عمدة وهو الآن في ذمة من خلقه.
- لألأ يا شيخ إبراهيم، إحنا ندفن الولا ده في تربة الصدقة وخلاص ونقول لقيناه ميت أدام المقام ومفيش شبهة جنائية ولا حاجة.
- اللي تشوفوا يا عمدة أني قولت رأيي وخلاص، اللهم قد بلغت اللهم فاشهد.
- ماشي ماشي يا شيخ إبراهيم، روح أنت دلوقتي وندفنه بعد صلاة الظهر
- سلام عليكم يا عمدة
- بالسلامة، يا مصطفى، روح شوف مرات الواد ده فين وهاتها
- هي يعني هتروح فين يا عمدة في عشتها على جله البحر مع التعابين والسحالي
- طيب روح اندهلها وعرفها ياوله إن جوزها مات أني مش ناقص ولوله على الصبح.

حضرت (مردات) زوجة أمين الغجري، امرأة جميلة صهباء طويلة ولحمها الطري يتهزهز كلما خطت، عيونها عسلية متسعة الحدقات وشعرها الأحمر يتدلى خلفها وعلى كتفيها من كثرته وعنفوانه.

أخبرها العمدة أنه سيدفن زوجها في مقبرة الصدقة التي تنازلت عنها عائلة نصر الدين منذ سنوات لدفن الولد الغريق الذي رست جثته على جسر البحر قبالة قريتهم، لم تكن تلك المقبرة قد اكتمل تلطيخ جدرانها بالطين فدفن الولد وأكمل التلطيخ والدهان كأفضل مقابرهم وبعدها تنازلوا عنها كصدقة جارية.

بكت في صمت ونظرت للعمدة في رعب ثم احتضنت جثة زوجها وهي تبكي وتشده نحو صدرها كطفل موجوع ارتمى في أحضان أمه هربًا من الآلام، انكشفت

رجلها البضة الناعمة واللامعة، اهتزت أكثر وأكثر وضربت صدرها وهي تكتم الأنين بعد أن حذرها شيخ الخفر من إطلاق الأصوات والعويل في دوار العمدة، شقت جلبابها المتهالك فانشق حتى سرتها وشم صدرها المكتنز الهواء من تحت قميصها الدبلان المهتريء هو الآخر.

يقف على رأسها العمدة، وشيخ الخفر والبغل وخفير التليفون، نظر العمدة إليهم فوجد أفواههم يسيل منها الريالة، فطردهم جميعًا خارج الدوار على أن يحكموا السيطرة على أبناءها الصغار حتى لا يروا أبيهم هكذا.

وظل هو واقفا يملأ عينيه من هذا الجمال المحزون. ونفسه تحدثه:

- وأني اللي كانت بشوفك من بعيد أقول غجرية نجسة والجلخ على جتتك رقات، أتاري النجس ده مخلفش عيال كتير عشان العزوة إنما عشان يتمتع.

- ألا قوليلي يا مردات، هو أمين كان جوزك رسمي يا بت؟

لم ترد واستمرت في البكاء والأنين

كانت قطعة من قماش ممزق مازالت تعلق على كتفها من جلبابها مد يده وأزاحها مدعيًا أنه يربت على كتفها.

أصبحت شبه عارية أمامه، تعرى جسدها، وتعرت غريزته.

- أمين، كان متجوزك رسمي، فيه ورق يا بت ولا لا.

- بتسأل ليه يا حضرة العمدة؟

- عشان جوزك هيتدفن هنا والكلام ده هيتسجل رسمي، انتي مراته ولا لا يا بت.

- متجوزين رسمي يا عمدة بس مفيش مخطوطة.

- ليه؟

- وإحنا يعني كنا هنجيب منين.

- يا مصطفى..

دفع مصطفى الباب في لحظة ووقف أمام العمدة وعيناه زائغتان على جسد مردات

- تروح للحاجة تقولها تجيب جلابية من بتوعها القدام علشان نسترالبت دي وقولها تجهز أكل للبت الغلبانة دي وعيالها، أخفى من أدامي.

- قومي يا مردات أول ما مصطفى يجيبلك الجلابية ألبسيها وامسكي نفسك

كده وتاخدى عيالك في إيدك وعلى ستك الحاجة تاكلي وتأكلي عيالك لحد ما ندفن أمين ومتخافيش يا بت أني قلبي فيه الرحمة.

- تعيش يا حضرة العمدة

لم يخرج في مشهد أمين إلا أربعة رجال من أهالي القرية ونساؤها، خافوا من غضب سيدي حسن، خافوا على أنفسهم وأولادهم.

خرجت (مردات) وحولها أولادها الأربعة، خلف النعش وقفوا وشاهدوا دفن (أمين) بكل التفاصيل لم يكن هناك زحام حول فتحة المقبرة كما هي العادة، لم يكن هناك أناس يسندون ظهر ابن المتوفى أو زوجته، لم يكن هناك مئات الناس تدعي له بالرحمة وتستغفر له، لم يكن هناك إلا الشيخ إبراهيم ومؤذن الجامع وأحد الشباب من حفظة القرآن، قرأ سورة ياسين وانصرف وهو يقول لها: - اصبري وتحملي فهذا أمر الله، وما يريده الله دائمًا يكون مفعول.

لم يبكي (ماجر) وإنما كان جامد الوجه شاحب البشرة ينظر إلى إخوته الثلاثة وهم يبكون وإلى أمه والدموع تقتص من جسدها كلما انفرطت من عينيها.

- أنت بتقول إيه يا نايل! ! البت الغجرية دي تخدم في داري أني؟

- ومتخدمش ليه يا زهرة، دي بت غلبانة وجوزها مات وعندها عيال عايزة تربيهم

- ايوه ما توديها تخدم عند حد تاني ولا اديها قرشين، إنما تخدم بنجاستها في داري أني، أنت عايزها تنجس الدار، مش خايف على بنتك وابنك؟

- يا ولية افهمي، أول حاجة إحنا كده هانعمل صدقة كبيرة عشان ربنا يكرمنا في العيال تاني حاجة لو محدش سأل فيها تفتكري إيه اللي ممكن يحصل؟

- إيه اللي هيحصل يعني؟

- هتتلطم وتشحت من ده وده ومحدش هيديها يبقى هتطلق عيالها يخطفوا من هنا ومن هنا والعيال هتكبر ويبقوا منصر وقطاعين طرق يا ولية.

- اضربهم بالنار، ولا رحلهم سجن المركز.

- بتهمة إيه؟ إن جوزها مات مربوط على باب المقام.

- أنت بتألس على سيدي حسن، يا خرابي يا نايل.

- يا ستي لا بألس ولا اتمألس، سيدي حسن على راسي من فوق بس العقل

بيقول كده.

- طيب افترضنا إني وافقت، العيال هيروحوا فين! ولا ناوي تجيبهم لي هنا كمان!

- لا العيال هيبقوا تمليه في الأرض، اهه يعملوا بلقمتهم ويتعملوا الفلاحة بدل ما يطلعوا خطافين زي أهاليهم إن كان ليهم أهالي.

عادت (مردات) من المقابر في رفقة حضري البغل كما أمره العمدة إلى الدوار، جلست أمام الحاجة زهرة، أطعمتها وأولادها الأربعة وربتت على ظهرها عندما تفرست وجهها لأول مرة، فقد كانت تشمئز قبل سابق وإن وقع عليها بصرها من على بعد فدان وجدتها جميلة، وجدتها أنثى، وجدتها من بني البشر، فقط شعرها أحمر وبشرتها شديدة البياض وإنما أنثى طبيعية مثلها، بكت وأبكتها عن فقدانها لزوجها، رغم أنه كان صعلوك وعربيد إلا أنه كان بعلها، جملها، حاميها، اليوم فقدت الظهر وغدًا ستفقد أبناءها، سيضيعون من بين أيديها ولن تراهم.

كانت تنتوي الحاجة زهرة أن تستعبدها في زريبة المواشي بعيدًا عن مطبخهم وغرف نومهم، ولكنها بكت، وإن بكت المرأة أو ضحكت مُلك قلبها وقد ملكته (مردات) ببكائها القاطع في القلب والأعين فجمال عيونها ورقة بشرتها يضفي عليها ما يجذب القلب حتى وإن كان قلب امرأة مثلها.

obeikandl.com

السُّدْفَة

في وسط الغيط يتكئ الشيخ الصادق بضخامة جسده ممسكًا بفأسه الضخمة يحول اتجاه المياه في المروة لري الفول السوداني، ويجلس (شعبان) قبالة الجاموسة وهي تدور بالتابوت يقرأ في ورقة في يده، نزل القطب عن الحمار وانزل السبت وربطه في مربطه خلف شجرة الكافور ووضع السبت وفيه غدائهم أمام أخيه، ثم اعتدل ناظرًا للحقل ومناديًا:

- يلا يا ابا الغدا

- طيب يا قطب حاضر، اسد القطع وأجي أهه

لم يكن الصادق قد عرف بوفاة أمين ولم يحضر الجنازة، فالغيط في حوض الغربي على سكة الترعة الزرقانية فيما بين زمام قرية ميت أبو الكوم وزمام قرية زرقان وهو يبعد ما يقرب من نصف ساعة بالحمار عن القرية

- يابا، أمين مات

- أمين مين يا قطب؟

- أمين بن ناجية يابا

- مات إزاي!

- أهه بيقولوا العمدة بعت الشيخ إبراهيم وشيخ الغفر فكوه من التوتة وخدوه على الدواروما هناك.

- غار في داهية

- مش يمكن؟

- يمكن إيه قطب؟

- لا يابا ولا حاجة

- اللي في دماغك مش صح، دا خلفة قرود كان بيعدي البحر عوم في نص الليل يسرق موز من عند الهجارسة ويرجع ولا خاف من جن ولا عفاريت ولا حراس البحر يا بني، ياما انضرب لما شبع في الدوار، شيل اللي في دماغك دا يا قطب.

مرت أيام وليالي ولم يتحدث القطب مع أبيه مرة أخرى في إحساسه بالذنب فربما يكون ربطهم لأمين هو ما تسبب في قتله.

أيام وليالي مرت على (مردات) وهي تخدم في دوار العمدة، دوار كبير بناءه على شكل مربع ينقص ضلع والضلع الناقص فيه بوابة كبيرة من خشب الجميز عمرها عشرات السنين ومن خلف البوابة ذات الدرفتين أكوام من الذرة والدريس وأغلفة كيزان الذرة الجافة والعيدان المكومة لتغذية المواشي والضلع على اليسار به حظائر متراصة لكل ثروة العمدة من صنوف المواشي والطيور وكل ما وقع عليه عينه واستطاع تربيته والضلع في مواجهة البوابة به ثلاث قاعات متلاصقة، القاعة الواحدة لها باب منفصل عبارة عن متسع يخرج منه ثلاث غرفة وحمام والضلع الأيسر للبوابة هو بيته الذي يقيم فيه وهو من طابقين الطابق الأرضي به ستة غرف كبيرة تفتح على المندرة الرئيسية ومنها إلى المندرة البحرية والتي تستخدم للقيام بأعمال العمدة وبها التليفون أما الطابق العلوي به ثلاث غرف بينهم فراغ مسقوف وأمام البيت في الجهة المقابلة وفي الفناء خلف البوابة الكبيرة غرفة كبيرة مسقوفة بشكل محكم ولها باب ضخم تلتصق بها غرفة صغيرة هي غرفة تخزين السلاح أما الكبيرة فهي الحجز الذي يحجز فيه المتهمين بأي شيء لحين ترحيلهم إلى مركز الشرطة بمدينة تلا.

تعلمت (مردات) أن تحلب المواشي وأن تجبن الألبان وتحولها إلى جبن وزبد و مورتا ومش، تعلمت أن تخبز وأتقنت كل فنون خبز الفطائر والخبز البلدي والرقائق والفطائر بالقشدة، كانت على غير ما توقعت الحاجة زهرة، نظيفة دائمًا ومشرقة رغم فقرها، لم يكن العوز والاحتياج المادي هو ما يكسر إشراقها إنما العوز الإنساني، لم تكن في عوز طالما زوجها أمام أعينها في كل يوم، لم تكن تتلوى من الهم خوفًا من الغد فما أن أتى (أمين) ببضع سمكات بلطي أو قرموطين أو حتى حفنتين من الدقيق الخشن للذرة كانت تشعل فرن صغير بقبة جوار منزلهم المتواضع وتصنع فطائر شهية ببضع قطرات من سمن اختزنته في إناء معدني متهالك أعلى المسطبة التي تنام عليها وأولادها.

لم تكن تملك إلا صرة من قماش صوفي خشن معلقة على أحد الجذوع الذي كان أحد الدعائم الأربعة التي وصل فيما بينها (أمين) مستخدمًا البوص ثم دهنها بطبقة سميكة من طمي النيل المترسب طوال سنوات وما أن تيبس حتى أصبح كالحجارة، لم يكن في صرتها إلا ثلاثة جلابيب مهترئة وبعض حاجيات بسيطة

وعقد من الأصداف أهداه لها (أمين) كعادة الغجر، هذا العقد كان مصاغها وثروتها، في دوار العمدة وقد مرت شهور وأصبحت إحدى أعمدة أشغال الدوار، أعجبت بها الحاجة (زهرة) وأشفقت عليها في كل يوم، كانت قوية على الأيام والأعمال كلما كلفتها بعمل تنجزه بكل إتقان ولا ترفض أو تتأفف أبدًا، أجزلت لها العطاء من الطعام وأعطتها بضع مليمات، ماتت الغجرية ناجية أم أمين وتركتها وحدها، دفنت جوار ابنها في مقبرة الصدقة، لها أربعة أبناء أكبرهم (ماجر) جسمه أكبروأفحل من سنواته الأربعة عشر، عيناه خضراوان وحاجبيه بارزان وأصغرهم كانت (أفرين) مازالت ترضع من أمها، (مالك) مشى منذ سنتين تقريبًا، (زاجر) يكبره بأربع سنوات.

(ماجر) طوال اليوم يعمل وسط الأراضي (تملي) براتب شهري ضئيل ومربوط سنوي بمحصول أربعة قراريط من أراضي العمدة، ليال كثيرة يبيت جوار التابوت وباقي التملية لري الأرض وأخر الشهر كان يعطي أمه راتبه من المليمات النحاسية.

ماتت أم أمين فلم يعد هناك من يرعى الطفلين الصغار، أشفقت الحاجة زهرة عليها وتركتها تبيت في غرفة صغيرة صنعت جدرانها من الطوب اللبن وسقفت بجذوع الكافور وعيدان البوص وطبقة من الطمي المخلوط بالتبن الناعم، غرفة صنعت منذ سنوات بالقرب من حظائر المواشي لاستقبال العجول الصغيرة عند فطامها وفصلها عن أمهاتها عدة أيام.

رصعت مسطبة مستطيلة من الطين وصنعت باب متنقل من عيدان البوص وحطب الذرة يسد فتحة الغرفة فتستظل وتختبئ خلفه من أعين (التملية) وباقي النساء العاملات وبعض لفحات البرد عند الفجر.

كانت تبيت كل ليلها وفي حضنها أبناءها الصغار، لم تكن تبكي، لم تكن مهزومة، بل كانت راضية أن وجدت لهم لقيمات تسد جوعهم المستمر وسقف تستظل فيه من إطلاع أعين الجن والعفاريت في كل ليلة وتفرسهم لجسدها المتلألئ تحت ضياء الأقمار المتتالية في كل شهر، كانت تحس في بعض الليالي بأنفاس تتهادى على جسدها في عمق الليل وعندما يتملكها الرعب كانت تدفع (أمين) ليصحوا مفزوعا ويحتضنها ويمرر يده على شعرها من رأسها وحتى مؤخرتها، تستفيق ناجية من غفلتها وتخرج عدة أصداف تشخشخ بها لتصدر صوت منفروتردد بالأمازيغية :

ثخيلك ليي نتابورت. . آفافا ينوفا. . آفافا ينوفا[1]
شيشن تيزبغاثينيم آيلي. . غريباآ
اوغدذ الوحش الغابة. . آفافا ينوفا. . آفافا ينوفا
اوغدذ غولا ذنَكيني آيلي غريباآ

فيهدأ قلبها وتغفل عيونها.

تمرر الأيام كمن يجذب صخرة صعودًا أعلى تبة من رمال سائحة انتظارًا لأن يكبر أولادها وتراهم قد اعتمدوا على أنفسهم، حلمت أن لها بيت من طين وله شبابيك وباب لونه أخضر، حتى أنها حلمت أن البيت من طابقين وبه فضاء ومتسع ويضمه سور كبير وعلى مدخلة شجيرات كافور حول شجرة توت وارفة توتها لونه أسمر، حلمت أن (ماجر) أصبح يملك عدة قراريط ولديه جاموسة تحلبها بيديها وتسقي أطفال حولها صغار عددهم أربعة ويشبهون أولادها.

ظهر صوت العمدة عاليًا خارج البوابة الرئيسية للدوار وهو ينادي على أحد الخفراء ليربط الحصان وهو ينزل عنه، ودخل إلى الدوار متأففًا من مشكلات الفلاحين وصراعاتهم.

- قوم ياله، فزبتعمل إيه هنا! ؟
- أهلا يابا
- إيه اللي قعد الواد هنا يا حفظي
- زاجر طلع واد شاطر أوي يابا، حفظ الحروف الأبجدية بمجرد ما سمعها مني، وكنت بعلمه القراية
- قراية، أنت انهبلت
- ليه بس يابا
- غور ياد من هنا
- يا حفظي يا بني بلاش قلبك الطيب ده، الواد غجري لا نعرفله أصل ولا فصل، تقوم تدخله هنا في الدواروتقعده في المندرة وكمان بتعلمه القراية، يا بني مينكرش الفضل إلا قليل الأصل والواد ملوش أصل من الأساس يا بني.
- يابا دا عيل يتيم وغلبان وعينه مكسورة

1- من التراث الأمازيغي

- والله ما مكسور إلا قلبك أنت، يا بني أنا قلت تروح المعهد الأحمدي تتعلم عشان تكون عالم، متفكرش في حاجة غير كده ونَشف قلبك شوية يا بني، ما غدار إلا بني أدام.

- يابا اللي عنده علم ويكتمه عن الناس ظالم لنفسه وللناس.

- يا حفظي اسمع الكلام

تحت وطأة وحرارة أشعة الشمس القاسية في منتصف وقت الظهيرة سقط (شعبان) من الإعياء في منتصف الحقل، حمله (القطب) بذراعيه الطويلتان وشبابه المبكر، لم يكن قد بلغ السابعة عشر من العمر وخط شاربه وتكونت عظام وجهه فأصبح للناظر إليه رجلًا مكتمل البنيان، عيناه الكبيرتان قويتان وحادتان الإبصار والنظر إذا ما غضب وذراعاه باطشان إذا ما غضب يمسك عصاه الطويلة بإحكام كلما غدا أو راح.

أجلس أخيه تحت ظل التوتة الوارفة بأوراقها الكبيرة ثلاثية المقاطع ثم رش على وجهه بحنو بضع قطرات من مياه، جاء (الصادق) مهرولًا عندما وجده يحمل أخيه ويقطع خط الرؤية للناظر من أخر الحقل، لم يلتئم الجرح في معصميه، التئمت الخربشات على رجليه وبطنه، وإنما جروح غائرة نتجت عن أنياب العسقلة العجوز، كما كان سواد فراءها الخشن كان سواد عضتها القاسية، أمسك (شعبان) فكيها بيديه العاريتان وتصلبت أعصابه من قدميه وحتى قبضتيه، لم يتركهما إلا حينما انتزعت من بين انقضاضه بفعل قبضتي (الصادق) أبيه ولكن الأنياب كانت قد غرست من حرقتها على فقدان جرائها الشرسة، عولج (شعبان) ولم يرقد من يومها وإنما بعض سخونة كل عدة أيام أو أنين في عظامه في عمق الليالي، قال المجبر في القرية الشيخ (حسن متولي): -

أن عضة الذئب قاتلة وإن قاوم الإنسان واستطاع النجاة لابد وأن يذوق بعض الآلام والهزال.

obeikandl.com

- الفَحْمَةُ

مرت الشهور ولم يشفى الجرح أو يندمل غطتها قشرة بنية اللون وكلما اهتز بقوة أو ضغط عليه أخرج صديد وسوائل ملونة ثم دماء زرقاء يخف لونها كلما خرجت، وبعد السقطة في أواسط الحقول كلها أمام كل الناس على مرأى منهم وبشهادتهم انتقل (الصادق) إلى مركز تلا صاحبا ابنه وراكبًا لبغلة وأمامه ابنه يسند ظهره، قال الطبيب: أن هناك عصب في اليد اليمنى قد تضرر بفعل الناب الذي طاله، وكان يجب التطهير والراحة والعلاج فالعصب إن لم يعالج أصبح عبئ وهم، أجري له عملية جراحية ومعه مساعديه واستلزم (شعبان) شهرين حتى استطاع استخدام يده اليمنى ولكن ليس ما يفقد يعاد كما خلق، أصبحت يده اليمني ضعيفة عند العمل أو الإمساك بفأسه، الظاهر أنها سليمة وإنما لا تقوى مثل مثناها.

انتوى الشيخ الصادق مثلما كان يأمل أن يرسل شعبان لإكمال تعليمه في المعهد الأحمدي بطنطا فقد حصل على الابتدائية منذ عامين من مدرسة الأقباط الملحقة بكنيسة ماري جرجس بقرية طوخ دلكا المجاورة لقريتهم ولكنه رفض إكمال تعليمه وفضل أن يعاون أخيه في زراعة أرضهم.

ورث الشيخ (الصادق نصر الدين) سبعة عشر فدان من والده وثلاثة من والدته وفوق ميراثه اتفق مع الأفندي (نهان السوروياني) المسيحي على زراعة اثني عشر فدان من أرضهم بالمشاركة.

الشيخ (الصادق نصر الدين) عميد وشيخ عائلة نصر الدين في قرية ميت أبو الكوم ورثة شياخة العائلة عن عمه وورث القيمة التي تعلو على العمدة وشيخ البلد وملتزم الخديوي والسلطان من كل رجال عائلته السابقين، في كل يوم لا تخلو المندرة المنصورة كما أسماها أهل القرية قديمًا في ليلة ما مجموعة من الرجال يجلسون على الأرائك الخشبية قبالة بعضهم ويجلس الشيخ الصادق بينهم على أريكة النورج صاحبة العمر ليقضي بينهم، لم يتزوج إلا ابنة عمه (منارة) والتي أنجبت له (القطب) المسمى على اسم جده و(شعبان) الذي سُمي

تيمنا باسم عمه الذي شارك في هوجة عرابي وكان أحد فرسان جيش مصر ومنه تعلم الجيل الحالي من عائلة نصر الدين التأمين، الضرب بالسكين، الرماية بالغدارة ذات الماسورتين وبندقية الميدان، كان شاعر يتذوق الشعر ويكتبه في أوراق صفراء يحتفظ بها وبقي منها بعض الفتات يحتفظ بها (شعبان) في خزانته الخشبية في مقعده بالطابق الثاني في بيتهم الذي بناه أبيه وجده بأيديهم على جسر ترعة أبو خمسة وعلى رأس قطعة من أرضهم على حدود القرية الصغيرة وغرسوا بأيديهم على جسر الترعة في وجه باب البيت جميزتين إحداهما أضعف من الأخرى وفروعها ليست كثيرة، ترى للناظر أنها تحتمي تحت أغصان أختها المظلة لها وحامية، وفي داخل الفناء بعد السور والمندرة المنصورة المنزل عبارة عن صالة متسعة ويخرج منها أربعة غرف كبيرة وأعلاها أربعة غرف أخرى وفي الخلف حظائر المواشي، الأغنام، الماعز ومرتع الجمال على مساحة ضعف مساحة البيت وفي الخلف زرعت أشجار البرتقال والمانجو والليمون، كان الشيخ صادق يملك من المواشي ما يستطيع به زراعة مائة فدان وقطيع كبير من الأغنام والماعز والجمال ترعى وتتنقل ومن خلفها عمال (تملْية) يعملون لديه براتب شهري ومربوط سنوي من ما يربونه.

تمتلئ أعين الشيخ (الصادق) في كل يوم كلما نظر إلى غيطانه وزراعاته ولا يمر يوم إلا ويكون مغروسًا رغم كبر سنه في الأرض يد بيد مع ابنيه والتملية لديه، مقتنع كل القناعة أن صاحب المال والفلاح أن يزرع بيديه وتبتل يداه من مياه النيل وتتلطخ قدميه في كل يوم بطمي وطين مرت عليه آلاف السنين يزخر بالخير ويعطيه لمن يقبل عليه، أراد لابنيه أن يكونا علماء في الدين ويتفقهوا فيه، ميسور الحال قدم ما يملك من أموال من أجل أن يتعلموا وقطع المسافة للمركز واشترى لهم أدوات وأوراق واكتفى القطب بالتخرج من كتاب القرية على يد الشيخ إبراهيم بعد أن حفظ القرآن

وأكمل شعبان تعليمه وحصل على الابتدائية وبعد تفكير وتروي قرر أن يرسل شعبان للالتحاق بالمعهد الأحمدي بطنطا لإكمال دراسته والانضمام لمن يدرسون علوم الدين في الأزهر الشريف.

- مش عايز أكمل يابا، خليني معاكم أزرع واقلع

- الزرع والقلع موجود من يوم ما ربنا خلق الدنيا يا شعبان والبركة في القطب وأنت البركة فيك ترجعلي شيخ وتشرفني.

- يابا! !

- اسمع يا شعبان. . إحنا يا بني اتربينا على عزة النفس وأصلنا ممدود لألف سنة وأكتروطول عمرنا أسياد ورجالة وطول عمرعيلتنا فيها حامل لأمانة القرآن والدين، وكان نفسي تبقوا انتوا الاتنين مشايخ بس عشان نحافظ على أرضنا وعزوتنا وعزنا لازم حد يفضل محافظ على الأرض وفي نفس الوقت لا جدك ولا أعمامي أحسن مني لازم يكون من سلسالي اللي يشيل الأمانة ووصيتي ليك أنت وأخوك إنكم لازم يكون لكل منكم ولد، شيخ، يحمل الأمانة.

انتقل شعبان للدراسة في المعهد الأحمدي بطنطا بالقرب من جامع ومسجد ومقام السيد البدوي، وتحمل القطب كامل المسئولية وكلما مر يوم اسقط الشيخ الصادق جزء من أعباء الزراعة على كتفيه وهما كانا على قدر المسئولية، جلس جوار والده وحضر الجلسات العرفية للفض في منازعات الفلاحين، اقترح على أبيه أن يسجل محضر عرفي مكتوب لما توصلوا إليه في نهاية الجلسة على أن يبصم كلا الطرفين على المحضر ليحفظ في خزانة الشيخ الصادق فإن ما رجع أحد الطرفين كان رباط لا فكاك منه.

مرت شهور وجاء موسم زراعة القطن، الأراضي خالية سمراء بها شقوق والفئران تسعى وتنتقل فيما بين الشقوق، تجمع كل العاملين لدي الشيخ الصادق تحت قيادة القطب وتم رفع التابوت لصيانته وإنزاله لبدء دورة الري والتي ربما تستمر لأسبوعين متواصلين تدور المواشي حاملة على عنقها فرع كبير من أشجار الكافور معلق في فوهة عمود إدارة الترس الخشبي للتابوت فتتهادى المياه دافئة وتتصل في مجاريها لتروي الأرض فتخرج مئات الديدان وتتجمع مئات من الطيور البيضاء تتلقف الديدان كلما قفزت هربًا من المياه وكلما امتلئ شق عن أخره خرجت دفعة من الهواء الدافئ محملًا ببعض البخار ومن خلفه بعض الثعابين الشراقي السوداء والبنية والنسور ترسم دائرة في طيرانها وتحوم وكل عدة دقائق تندفع وتنقض على رأس ثعبان حاملة إياه، تابوت نصر الدين كان على رأس حوض الغربي المطل على الترعة الزرقانية يروي ما يقرب من ستة أفدنة يملكها الشيخ الصادق وأولاده على بعد عدة أمتار طنبور العبادلة ومن بعده تابوت التاجي في الجهة المقابلة، هذا التابوت الذي اشترك فيه أكثر من تسعة عشر فلاح يملكون أرض حوض التاجي البالغة اثنين وعشرين فدان، دائمًا ما تنشأ النزاعات والمشاحنات لتتطور في بعض الأيام إلى عراك بالعصي

والفؤوس الصغيرة لأسبقية الري.

يجلس القطب على مدار تابوت نصر الدين أمام (الراكية) في انتظار غليان الشاي في الكنكة والبقرة الحمراء تدور بهدوء وثبات لتندفع المياه ككائن حي متصل فيه الروح ليروي الأرض ويسقيها ويبرد جوفها والشيخ الصادق في منتصف الأرض بين التملية يتابع أداؤهم لأعمالهم تنظيما لكميات المياه حتى لا تتعجن التربة وتموت البذور، أشار إليه القطب كي يشاركه شرب الشاي، رد عليه إشارته بأنه قادم، من أسعد لحظات عمره جلوسه وبين يديه ابنه البكري يرتشفان الشاي ويتسامران ويتشاوران في أمور زراعتهم وأرضهم ومواشيهم، ما أمسك الرجل الكبير الكوب الأبيض ليرتشف أول رشفة إلا ووصلت الأصوات إلى أذنيه، ولكن تلك المرة كانت في الأيدي فؤوس والأعداد كثيرة وفي الأغلب ستسال الدماء فأولاد القوصي لم تبرد نارهم وقد بيتوا النية على الانتقام من عبد الحميد التاجي، ولن ينسوا أن أبيهم قد رقد في بيته مريضًا هاجمه الهزال بعد أن قذف به عبد الحميد في الترعة وضربه أمام الناس وأطلق جاموسته في الأراضي وعلق بقرته الضخمة ليروي أرضه، جلسوا في المندرة المنصورة وأرجعت الحقوق ودفع عبد الحميد بقرته نفسها التي ربطها لتدير التابوت تعويضًا عن حق إبراهيم القوصي، ولكن الرجل قد كسرت كرامته وزلت هامته ولديه من الأبناء ثلاثة.

"ولو مال قارون بجماله السبعين ما تستعاض الكرامة يا شيخ صادق" هكذا قالها إبراهيم القوصي قبل أن يغادر المندرة ليسقط وكأنه طارت من جسده كل قوة على باب داره العامرة بثلاثة غرف تصدر عنها أصوات الرضع كل ليلة.

حاول أن يرتشف الشاي ليريح باله ولو قليل نظر إلى القطب قائلًا له: -

" لا تنظر ولا تلقي بالًا"

دقائق قليلة وسمع اسمه يتردد وينادي عليه أحد الشباب قادمًا في أواسط الحقول يتكفى وتبتل ملابسه، ينتفض ويجري وينادي بأعلى صوته فيسقط متخبطًا في الخطوط البارزة عن الأرض فتتعجن أرجله ويديه بالطين،

قام القطب متوجهًا إلى موقع الحدث، وعرف ما كان وشهد المشادة والصراع وجده صراع من صراعات كل يوم على أسبقية الري، فعاد ورفض أن ينصاع لطلبه بعد الحضور إلى مجالسة أبيه مرة أخرى خوفًا وحفظًا وأمنًا لأبيه، فأولاد

القوصي قليلي الأدب و ألسنتهم فالتة غير عارفة بأصول الحديث مع الرجال وأيضًا أولاد التاجي تاريخهم يمتلئ كثيرًا بقلة الأصل والخطف وعدم التروي، زادت المطالبات تستغيث بالشيخ الصادق وتصدر من أفواه الفلاحين الضعفاء.

وصل الرجل رافعًا يده وذراعه الضخم، استعدل التكالت البني على رأسه وزمجر بصوته الخشن ناهرًا الجميع فنظروا جميعًا إليه، أجلسهم وجلس في وسطهم يستمع لكل منهم في محاولة لتخريج كامل الضغائن فتهدأ النفوس وحكم بان الدور في الري على أولاد القوصي، تعدي عليه عبد الصمد التاجي بالألفاظ ولم ينهره أبيه عبد الحميد، جحظت عيون القطب ورفع عصاه في الهواء، تلفت الشيخ الصادق ناظرًا لابنه بأن ينزل عصاه ويتروى، أثبت الحق فيما أخطأ بن عبد الحميد التاجي وانصرف ومعه القطب.

لم يكد الشيخ الصادق يصل إلى التابوت الذي قام بإنشائه أبيه مصطفى نصر الدين إلا وانطلقت الصرخات والشتائم وتخالطت الأسماء وأصوات العصي وهي تتلاقى لتصد بعضها، ما أن أدار ظهره متوجهًا للتابوت واستكمال الري إلا ووقف عبد الصمد التاجي أمام التابوت صائحًا والشرر يتطاير من عينيه وفي يده عصاه المدججة بالمسامير

- " اللي راجل فيكم يحل الجاموسة من التابوت"

تقدم عرفان الابن الأكبر لإبراهيم القوصي فاشتبك مع عبد الصمد وتبعه أخيه حسين القوصي وأصبحت العصي تتخالط مع الأذرع وتتلاقي في الهواء، تتقدم زوجة عرفان في خضم المعركة لتفك رباط جاموسة أولاد التاجي، حررتها وأرادت أن تتوجه بها لشجرة التوت الصغيرة، رآها عبد الصمد التاجي فانتزع نفسه من صميم المعركة وانقض عليها، ضربها بكفه الحاد فارتمت بعيدًا وتكومت وانكشفت رجليها حتى فوق ركبتيها، لم تستطع أن تعتدل أو تستر نفسها فقد فقدت الوعي عند سقوطها، انهار زوجها وهو يستر عورتها، ثم فز وهب متوجهًا لعبد الصمد والذي حاول الفرار وترك أرض المعركة وفيها أبيه وأخيه وابنه الصغير، سد عليه عرفان الطريق تناطحًا بالعصي وانفجرت غضبة عرفان والتي أصبحت الآن غضبتان ثانيتهم شرفه ونخوته وحماية أهل بيته وأبناؤه وزوجته، ضربه بالعصا بقوة فحاول عبد الصمد صد العصا بعصاه في الاتجاه المعاكس فتكسرت وأصبح كامرأة فاجئها قاطع طريق وهي تتحمم في مياه الترعة قبيل طلوع النهار.

ضربه عرفان عدة ضربات على جذعه ورجليه فسقط يتلوى ويشخر كعجل ذبح على غفلة، ورقد جوار أخيه وأبيه وكل منهم يتوجع والدماء تتقافز من الرأس والجذع والأرجل وقف عرفان على رأسهم مطوحًا بعصاه، استقدموا زوجته بعد أن أفاقوها وهي مازالت مترنحة وأصابع عبد الصمد ترتسم على خدها الصغير، وطلب منها زوجها أن تضع رجلها على رقبة الرجل الكبير، ارتعدت، أمرها بغضب وصوته يهز أوراق الأشجار، بكت، فاخرج من جيب الصديري مطواة وفتحها محذرًا إياها، اقتربت من الرجل وهو يتألم ممسكًا برأسه والدماء تسيل من بين أصابعه على عينه، لم تستطع، دفع الرجل بقدمه في صدره فتكوم على الأرض، امسك بذراعها واعتصره وهو يسحبها حتى رأسه الدامي وما أن استطاعت أن ترفع قدمها فدفعها الرجل بكل قوته فطارت في الهواء وقلبت على ظهرها في الحقل المجاور للسكة بجوار التابوت وتعجنت في طينه، رفع عرفان عصاه حتى اشتعلت من وهج الشمس وهوي بها على رأسه فتهشمت في نفس اللحظة التي أطلق فيها صرخة الألم.

انتفض عبد الصمد وهو يحاول إخراج مطواته من جيبه متوجها نحو عرفان فقفز عليه أخيه وسقطا سويًا على الأرض وأصيب حسين القوصي الأخ الأصغر لعرفان في يده بسبب انغراس المطواة فيها وقت السقوط، رفع عرفان عصاه وضرب عبد الصمد على رجليه ليخلص أخيه فجاءت الضربة تحت ركبته اليسرى مباشرة من الناحية الخارجية فجعر عبد الصمد كمن سقط عليه حائط، وفي نفس اللحظة كان القطب وأبيه ورجال كثيرون قد تجمعوا في موقع المعركة وأمسك كل منهم أحد المتعاركين وفرقت الجموع، بعد أقل من ساعة حضر العمدة نائل الفاضي وفي صحبته شيخ الخفر واثنان في الخفر ومن خلفهم حضري البغل، فارق عبد الحميد التاجي الحياة في دقائق وعين العمدة حضري البغل رقيب علي الجثة لحين استدعاء أفراد النيابة من المركز وأرسل شيخ الخفر للإبلاغ عن الحادث.

- الزُّلَّةُ

استدعي الشيخ الصادق مساء نفس اليوم إلى دوار العمدة لاستكمال التحقيق ومعه ابنه القطب، مأمور مركز الشرطة بتلا يعرفه ويعرف قيمته ووضعه الاجتماعي وكلماته ستكون الفيصل والحكم في محضر التحقيق، أقر بما رآه بعينه.

قتل عبد الحميد التاجي، وقطعت الرجل اليسرى لعبد الصمد التاجي عند الركبة، وحكم على عرفان بقضاء سبع سنوات في السجن، وعلى عبد الصمد بسنتين وفي أثناء التحقيقات كانت الأخبار قد دارت على كل الألسن وتجمعت ناس أمام الدوار ينتسبون بقرابة لكلا العائلتين وبقيوا جميعًا حتى انتهت التحقيقات وانصرف رجال النيابة ومأمور المركز وفرقته المرافقة، ومن بين الجموع كان ماجر أمين الغجري يقف بجوار جدار الحظيرة الوسطى يتفرج ويشاهد أحداث لم يكن يسمع عنها إلا في الحكايات وفي خضم سرحانه وقعت عيناه على الحارسين يودعهم العمدة بنفسه أمام باب المندرة الرئيسية، فتكاثرت الأصوات في نفسه:

- هما الحراس، هما أني فاكر كويس، أهه الحارس الكبير اللي كان بيشخط في أبويا والحارس الصغير اللي ربطه، إيه اللي جابهم هنا، والعمدة بيسلم عليهم ويودعهم، يمكن جايين ياخدوا الهبة من العمدة لاجل سيدي حسن، بس شايفهم إزاي؟ حراس سيدي حسن محدش بيشوفهم!!

اقترب منهم عندما هما بالمغادرة ونظر بثبوت إلى وجهيهما فنظر إليه القطب بقوة فأجفل في رعب وانزوى بنظرته إلى الأرض، ثم نظر مرة أخرى.

- إنهم يمشون على الأرض، إنهم يرتدون جلابيب من الصوف! إنهم يضعون تكالت على رؤوسهم، إنهم يسعلون!!

رأى آخرون يردون عليهم السلام، من يكونا؟

خرج مسرعًا إلى البوابة الرئيسية لينظر غير مصدق عيناه، رآه العمدة فناداه

- هما يا حضرة جناب العمدة هما

- هما مين يا وله

- هما حراس سيدي حسن اللي ربطوا أبويا في التوتة وموتوه.
- بتقول إيه يالاه؟ أنت بتخرف ولا عايزني اجيبلك الخرازانة.
- اضربي بالكرباج جنابك، بس أني متأكد، حضرتك لسه موصلهم بنفسك أهه.
- دا الشيخ صادق نصر الدين وابنه القطب يالاه!
- يعني أنت عارفهم جنابك! !
- ومين يا خلفة القرود ميعرفش الشيخ صادق
- هما اللي موتوه هما اللي موتوا أبويا

نظر العمدة لشيخ الخفر أمرًا إياه بالإقدام على ضربه.

امتلأت عيناه بالدموع واحتد صوته، فلطمه مصطفى الملاح شيخ الخفر على خده وأذنيه فتحمل اللطمة وهو يبكي، انزوي مهرولًا نحو غرفة أمه، وجلس جوارها.

عندما دخل ماجر على أمه مردات الداريوم أن مات أبيه، سألته عن أبيه فلم يجيب، هزته فلم ينصاع ويخبرها، وإنما خبأته في أحضانها ودفئت قلبه بحنانها فهدأ وذهب في نوبة من النوم والدموع مازالت متعلقة بأطراف الرموش وبعضها بلل خده، مسحت بيدها آثر الدموع، وقبلته، وجل ما تخيلته أن أمين ضربه أو منعه من تتبعه والبقاء معه، لم تعرف أن هناك شيئًا ما أكبر من أن يضربه أباه تسبب له في لفحة من الرعب والهذيان، لم تعرف إلا في الصباح التالي عندما وجدت شيخ الخفر بصفرة وجهه وكلماته المطوطة يقف قبالة الدار ويضرب بالخيرزانة الباب، وعندما خرجت أخبرها دون مقدمات أو تهذيب للكلمات أن زوجها أمين الغجري قد مات وهو الآن في دوار العمدة ويجب أن تذهب قبل أن يأمر العمدة بالدفن.

كانت تهندم وترص أرغفة الخبز المرحرح في سبت من البوص استعدادًا لنقله إلى مطبخ بيت الحاجة زهرة، التفت إليه فوجدته يجلس ساندًا ظهره ويداه مسقطتان على فخذيه، واجم، باكي، سارح، ودمعات صغيرة تتمنع عن السقوط، لم تكن الدموع التي اعتادت أن تراها في عينيه كل عدة أيام من فرط الإرهاق المضني طوال اليوم في أراضي وغيطان العمدة أو بفعل تجريح وتقليل من باقي التملية العاملين بنفس الأراضي وهم يأمرونه ويزجرونه ويلقون في أذنيه بكلمات عن أبيه وجدته وحتى عنها هي أيضًا، وإنما هذه المرة دموعه منكسرة تخلع القلب

وتقذف به إلى غياهب وظلمات الصحاري الجدباء والتي سارت فيها أثناء ارتحالهم منذ سنوات من أطراف واحة سيوة قادمين إلى البحث عن مكان فيه حياة، فيه لقمة من خبز تقضي الجوع، فيه ظل وحنو، أمطرت السماء في ليالي قاسية موحشة وهي تتدثر بجسد أمين تحت برد في شكل خيمة مصغرة يتمددون فيها، دقوا وتد كبير في الرمال وربطوا فيه العنزتين وربطوا فيه طرف البرد وتمددوا في داخله وبجوار رؤوسهم كانت صرة بها كسرات ولقيمات ومطحون من الذرة والحنطة وبعض المشمش المجفف وصرة بها تمر وقربتان مياه، زغردت ناجية الأم ما أن هطل المطر على وجهها رافعة يديها كمن يستقبل أشياء أسقطت من أجله، استبدلت مياه القربتين وحفرت حفرة صغيرة وافترشت في بطنها قطعة كبيرة من جلد عنزة ثم اغتسلت وارتوت وسقت العنزتين والكلب.

وفي تلك الليلة أحست مردات بأنفاسه تتخبط على كل بقعة من جسدها، فتحت عيناها لم ترى إلا ناجية جالسة عن قرب تتغنى وتدندن بأبيات تضرعًا لمن خلق، لم تجد أمين، فزعت، خرجت من تحت البرد وتحركت في هدوء وجلست إلى جوار ناجية، سألتها عن أمين، فعلمت أنه خرج يتحين الفرصة لاصطياد خرنق أو اثنين خرجا من جحورهم طلبًا للارتواء والتحمم.

عاد بعد ساعتين، طيفه يظهر من بعيد حاملًا خرنقين في يده ومطاط النبيطة يتدلى أسفل كفه الأيسر والكلب يدور حوله، يسبقه ويعود في مسيرته إلى الخلف ويدور نابحًا، رأت طيف يظهر ويختفي في مساحة الرؤية خلف أمين، يظهر ويختفي، يكبر ويصغر، يتجسد ويتلاشى، سمعت صفيرًا يتردد كلما اقترب أمين، نظرت ناجية ورأت ابنها شخشخت بأصدافها وترنمت بأوراد وقعها على الآذان مرعب، ثم نظرت إليها بحدة، تقف مردات وناجية جالسة أحست أنها رأت روح تلك المرأة وليس عينيها، نطقت في ثبوت:

- لا تخافي يا مردات، ستكونين (غريبا) ولكن لن يأكلك الوحش بل ستبقين مرتعبة حتى يمجر ماجر في الفلا.

لم تفهم ولم تعي، فقط أحست بنسمات باردة تتكسر على ذراعيها

- اذهبي واجمعي ما تجدين من أحطاب فقد قدمت نفسها لنا الخرانيق.

حفرت ناجية في الرمال وتعمقت قليلًا وجمعت عدة صخور، صنعت مستوقد من الأسفل ثم ضيقت أعلاه برص الصخور لتصبح عمود يخرج من فوهته الدخان والصهد، سحبت من يد أمين الخرنقين والدماء مازالت تسيل

من أجسادهم وأخرجت سكينها المدبب وشحذته بصخرة صغيرة ثم ذبحت وسلخت جلود الخرنفين، أشارات إلى أمين أن يذهب إلى ما تصبو، فدخل و مردات إلى خيمتهم الضيقة، وعاشرها بزهو غريب، انغرس كل جسدها في الرمال وشكل قالب يصور تضاريسها، تغنجت، استكمل، زاد غنجها، علقت ناجية الخرنق الأكبر على فوهة المستوقد الذي صنعته بعد أن طهرت بطنه ومددت بداخله عود غليظ من أغصان الكسب البري وعلقت الأخر أمام بطن المستوقد كي يستطري لحمه ولا يفقد دهنه، فتدهن ما تخليه من لحومه بخليط مطحون الحلبة والكمون، شخرت مردات الصبية ابنة الثامنة عشرة وأطلقت تأوهات في نغمات وصوتها يحتد، يعلو ويخبو، لذة الانتصار في الصيد لدى أمين أعطته دفعات من الفروسية، فقد كرة واحدة من كرات النبيطة عندما قذف أربعة على بعض الخرانيق، اصطدمت الكرة الأولى برأس الأول وفقد الثانية لم يجدها وعندما أطلق الكرة الثالثة والرابعة اصطدمت الثالثة بقلب الخرنق الثاني ووجد الكرة الرابعة بالقرب منه، تخيل أنه من اصطاد، تيقن تمامًا أنه بارع في التقاط الأرواح وكلبه الأصفر ينبح بخشونة وينطلق في آثر الكرة إذا ما خرجت من مطاط النبيطة.

كلما ارتفع عنها لأعلى ترى هالة وطيف حوله يرتفع معه ويندفع إلى داخلها، صرخت فزاد أمين الدفع والتكرار، نادت على ناجية خائفة، نظرت دون أن تلتفت، وردت عليها:

افتح لي، افتح لي أبي اينوفا[2]

اه اه يا بنتي.. اه اه يا غريبا.. رجي الأساور

أبي اينوفا أخاف من وحش الغابة

اه اه يا بنتي وأنا مثلك خايف

الشيخ في برده متداري في البعد يتدفى، وابنه بلقمه عيشه من الهم شايل، في كل صباح يتفكر

عجوزة بتنسج برنصها من غير ما توقف، بتشد الخيط فالخيط وكل أولادها حواليها بيسمعوا منها حكاوي

افتح لي، افتح لي أبي اينوفا

اه اه يا بنتي.. اه اه يا غريبا.. رجي الأساور

2- من التراث الأمازيغي

أبي اينوفا أخاف من وحش الغابة
اه اه يا بنتي وأنا مثلك خايف
خلف الأبواب ثلجان والنبت في وعاءه ساخن
ورجال بربيع الأرض حلمانه، لا قمير ولا نجم باين، فرشنا بعشب الوحش وسادة، والجد قاعد يقول من الحكاوي لكل أولاده
افتح لي أبي اينوفا. . افتح لي أبي اينوفا

- في ليلة زي دي يا ماجر، مجر أبوك وحملتك في أحشائي، فيك إيه يا ولدي، ليه باكي، الدنيا للرجال طول عمرها مقاسي، ما تبكيش
- ابكي ياما والله دم، المقتول راح، والقاتل لساه ساير
- المقتول قبل ما يشوف النور انكتب له سلسال أيامه والقاتل عمره قصير بس هو مش شايف
- شوفتهم ياما، وكنت فاكرهم للخير حارس، طلعوا رجال بالقوة يفترسونا، اه لو اشتد دراعي، كنت أطير روسهم
- العقل يا ماجر وأوعاك تتكلم بلهجة أصلك ولابد يوم هيجي ويرد المظالم، هو مطلع وشايف.

انطلق وهو يكفف دموعه، وارتمى أمام المأمور وهو خارج في صحبة أفراد النيابة والعمدة وكوكبة من العساكر والخفر، جحظت أعين العمدة وكادت تقفز في وجه ماجر، وحاول شيخ الخفر أن يرده وهو يدفع بفوهة بندقيته في صدره، نظر إليه المأمور فرجع شيخ الخفر.
- مالك يا ابني!
- أني شوفتهم جنابك!
- شوفت مين؟ انت بتشتغل عند العمدة؟
- شوفت اللي قتلوا أبويا
- أبوك مين؟
- أمين الغجري جنابك
نظر المأمور للعمدة في استفهام عن ما حدث
- أمين الغجري دا كان واد حرامي جنابك وفي يوم لقيناه ميت أدام مقام

سيدي حسن، وعملنا تحقيق ومفيش أي شبهة جنابك

- مش لسه بتقول حرامي يا عمدة

- ايوه جنابك

- يبقى إزاي مفيش شبهة، مش يمكن حد قتله ولا مسكوه وهو بيسرق وضربوه ومات.

- كان صاغ سليم جنابك، لا فيه أثر لكدمات ولا جروح ولا ظهر على جتتة زراق ولا أي حاجة

- خلص الموضوع يا عمدة، أنا مش عايز مشاكل في زمامك

- تأمر جنابك، بالسلامة، شرفت ونورت، مع ألفين سلامة

علق (ماجر) من رجليه على طاولة المواشي وضرب حتى فقد الوعي وأدميت قدماه وتعجنت رأسه ويديه في روثها الذي طالما حمله بيديه ورفعه على ظهر الحمير والبغال.

توسلت (مردات) وقبلت أرجل الحاجة زهرة حتى يعفو زوجها العمدة عن بكريها.

- هاكلمه يا بت متخافيش، العمدة طول عمره قلبه أبيض

فكت الأربطة من قدميه وترك يتصارع مع الآلام التي امتدت من باطن قدميه وحتى وصلت للدماغ، أحس وكأن مخه قد ربط بقدميه فأصبح يئن ويرتعش داخل جمجمته.

أمر العمدة أن تخرج (مردات) وأولاده من داره ودواره، كان قد انتوى أن يقذف بها لذئاب الليل تنهش لحومهم وتقطع أوصالهم فيتخلص من مجرد التفكير في مشكلة ربما تقضي عليه

- بقولك، مردات أكدتلي إن ماجر شاف القطب والشيخ صادق بيربطوا أبوه في التوتة، كان متداري عند زريبة عبد الرحمن على أول حوض أبو زيد، الواد مكانش بيفارق أبوه

- يعني بيجاهد معاه الكلب ابن الكلاب، كان بياخده يعلموا السرقة ابن. . . الغجر، عمومًا الواد ده معادش له عيش في داري وأرضي، واني كمان مقدرش أتكلم من الشيخ صادق في حاجة زي دي!

- متقدرش ليه يا عمدة البلد كلها؟ تكونش خايف منه!!

- وبعدهالك يا زهرة

- يا نايل أنت دلوقتي العمدة ومعاك المأمور والهوات كلهم وأرضك بقت أد أرضهم وزيادة، واللي بيخدموا في أرضك ودارك أكثر من اللي عنده تلت مرات

- يا ولية، يا ولية أنتي مش فاهمة حاجة، لو كان القطب وأبوه عملوا كده المفروض إن أني أبقى مبسوط كمان واشكرهم على كده.

- تشكرهم إنهم موتوا أمين؟

- أمين مات في الدواريا ولية، البغل خبطوا كف وقع مقامش، والشيخ إبراهيم كان موجود وشاهد يا ولية، يعني الموضوع لو كبر مضمنش إيه اللي يحصل.

- وهو يعني الكف بتاع البغل هو اللي موته؟

- ايوه يا ختي هو اللي موته، الشيخ إبراهيم ومصطفى حلوه من التوتة وهو صاحي والناس كلها شايفينه كده، خلص في الدوار مش في التوتة، وبعدين أنتي عايزاني أعادي الشيخ صادق وعياله!! عشان مين!! الكلب ده! طيب أني هارميها لكلاب السكك هي وعيالها، إيه رأيك بقى؟

- يا نايل، اتقى ربنا

- واني كنت خالفته يا ولية، ولا كنت خلفت الولية دي وعيالها ونسيتهم؟! أني هاروح دلوقتي أرميها بره الدوار هي وكلابها. وبناقص نفر ولا اتنين في الأرض، التملية مالين الدنيا أهه، ولا البت الغجرية دي سحرتلك يا ولية؟ خلاص مبقتيش تأمني حد على المعاش إلا هي؟

- البت شاطرة زي اللهلوبة يا نايل وايديها نظيفة وعمرها ما مدتها على خردلة مش زي البنت حسنية بت زيدان اللي بليتني بيها، طب دا كفاية وشها اللي زي البومة بنت زيدان دي، أني مستغناش عن البت دي، خد العيال اعمل فيهم اللي ريحك إنما سيبلي البت دي

- مش دي الغجرية اللي كنتي خايفة منها وأقولك ربنا، تقوليلي أرحلهم المركز؟!

- أني مكنتش أعرف إنها كده

- الخلاصة، الواد ده لو أتكلم ممكن يعملنا مشاكل

- خلاص، وديه الفرز

- فرز إيه يا وليه؟ الواد يدوب 13 سنة

- وهو يعني كان عندة شهادة، الواد طويل وشكله يدي 18 سنة

- والله عندك حق يا زهرة

تجلس (مردات) تحت أرجل الجاموسة الكبيرة لتحلب لبنها بكل شغف، وتشد في أطراف ضرعها العامر بحنو وانسيابية، وقف العمدة عند باب الحظيرة يتفرس فيما تؤدي من عمل، الجاموسة الكبيرة من الجاموس المنوفي النطاح "لم تكن ترضى لمن يريد أن يحلبها إلا بعد أن تضرب وتقيد، ماذا حدث لها؟ " هكذا قال العمدة لنفسه.

- أنتي يابت، فزي قومي.
- العمدة!!

قامت مسرعة من جلستها تهندم جلبابها وتسقطه لتداري لحمها المتجسد من تحته وبعد أن وضعت الطاجن الدافئ أمامها على الأرض

- ده اللي اتعلمتيه برضه يا مردات، تحطي الطاجن على الأرض يلقط وسخ البهايم.
- اصلي اتاخدت يا عمدة، أنا غلطانة يا سيدي

رفعته عن الأرض ومسحت قعره الخارجي بجلبابها، وأكدت في تمرير قماش الجلباب على الفخار فمسح الهباب الأسمر المتجلط على سطح الفخار بفعل التدفئة في الفرن قبل أن يستقبل اللبن.

- اسمعي يابت، ماجر ابنك مطلوب للفرز واني ها رحله بكرة على المركز
- ماجر لساه صغير على الجهادية يا عمدة
- مين اللي قال يابت؟
- أني عارفة يا عمدة، فات على ولادته 13 ربيع.
- النظارة هي اللي تقول، لو لقيوه صغير هيرجع يا ختي لحضنك، طلع ينفع هيرجعلك راجل ملو هدومه، الجهادية هتعمل منه راجل.
- ويمكن ميرجعش يا عمدة
- أني مقدرش أتحمل المسئولية دي، لازم يروح الفرز.

أقرت نظارة الفرز الأولية في مركز تلا بان (ماجر) يصلح للالتحاق بالجيش ومن بعدها قبلته النظارة الكبرى في القاهرة والتحق بالجيش المصري، لم يكن الجيش قد يرفضه وهو في حالة ضم وإخضاع للقوات الإنجليزية المحتلة وقد قامت الحرب الكبرى وفرضت بريطانيا وصايتها على مصر كلها وأعلنتها مستعمرة

بريطانية السيادة فيها للقوات البريطانية المحتلة.

كان كمن سلب الروح فاصفر الوجه ومقت وهربت منه كل حياة عندما ركب في وسط العشرات ممن يوازونه سنًا أو شكلًا في عربات القطار حتى وصلا إلى القاهرة وهناك ظل يحملق كثيرًا في شكل البنايات والشوارع وأعمدة الإنارة والسيارات، الحق على فوج الإمدادات وكان اختصاصه ومجموعة تشابهه طولًا وسنًا حمل المياه من آبار جوفية إلى أماكن تجمع القوات على عربات خشبية كبيرة تجرها جمال وخيول وفي بعض الأحيان كان ينضم لمجموعة أخرى تذهب إلى أماكن مركزية لإحضار أجولة الطحين والفول والعدس وأقماع السكر، كان في كتائب تستعد للحرب على مشارف الصحراء الغربية، عرف أن المكان اسمه الواحات وأحس بحنين غريب لهذا المكان، كان يطلق عنان فكره ليلًا عندما يرتكز القمر في السماء وتظهر ظلال التباب والجبال من بعيد، مرت الأيام بطولها وقصرها، صقيع يضرب كأسنان مدببة ليلًا ووهج حارق يحيل الجلد إلى قيد يراد التخلص منه في أغلب الأيام نهارًا، اشتد عوده وطالت عظامه والحق على قوي القتال وأمسك بالبندقية انفليد الإنجليزية وضرب بها الأهداف وأصابها، كانت يداه ثابتة دائمًا، وعيونه الزرقاء تشتد عمقًا كلما مر عليه يوم حتى صارت الأيام كلها متشابهة لم يطلب الإذن بالإجازة مثل البقية مرت أربع سنوات كاملة وجاء الخبر بانتهاء الحرب الكبرى، لم يعرف أيحزن أم يفرح؟ ! كان يريد الحرب، كان يريد القتال، كان يريد الاغتيال، كان يريد العودة إلى أحضان أمه وضمها إلى قلبه بعد أن أصبح شابًا قويًا يستطيع تحمل أعباءها وإخوته، كلما تذكر ورأى نفسه يقف في وسط الأرض مغروس حتى ما يقرب من ركبتيه في الطين، والخطوات ثقيلة، كلما رفع قدمه ليسير يدفع الطين والمياه، كلما تذكر كان يضحك، كان يبكي داخل نفسه ليلًا على فراقه لأمه وإخوته، ولا يستطيع التخيل عن ماذا حدث لهم؟ وكيف يعيشون؟ من المؤكد أن زاجر الآن أصبح شابًا وهو الآن تملي يعمل لدى العمدة وأمه مازالت (غريبا)

غريبا التي دومًا ما كان يسمع ترنيمات باسمها من جدته (ناجية) ثم انقطعت الترنيمات عن أذنيه ولم يسمعها بعد وفاتها إلا مرة أو مرتين من أمه الباكية ليلًا بعد أن يناموا متكومين في غرفتها القذرة بدوار العمدة، لم يفهم الكلمات ولكن كلما سمعها من أمه كان يتملكه خوف وحزن، رغبة في البكاء وفي الهروب، لم يكن يعرف بأي شعور يتمسك، اليوم في ليالي الصحراء وهو يتسلم أمرًا بتسريحه من

الخدمة ومبلغ من المال وشهادة تفيد بأنه جندي مدرب تذكر الكلمات عندما كان يرددها لتؤنسه ليلًا، اليوم فهم معنى كل حرف من كلمات تلك الترنيمة، يريد الآن أن ينقذ غريبا، يريد الآن أن يقتل الوحش، يريد أن يدفن غريبا في داخله ليكون جسده الواقي والدرع والدفء.

obeikandl.com

الزُّلْفةُ

أربع سنوات مرت وتسلسلت شهورها وأيامها، يكبر (ماجر) ويشتد عوده، ويتلقى (شعبان) تعليمه في المعهد الأحمدي، يقف ويناقش أساتذته من العلماء، (القطب) يعمل ويزيد ثروة أبيه من الأطيان والمواشي، (مردات) تزداد كل يوم هم على هم من كثرة الأعمال و الأتراح والفقدان لبكريها، خافت على أبناءها من بطش العمدة، الشيخ (الصادق) كبروتلونت شعيرات في لحيته وشاربه بالبياض، لم تتلون أي من قوته بالبياض بل بقيت كما هي وإنما في كل يوم كان يسلم جزء من أعباءه لبكريه (القطب)، خرج (عبد الصمد التاجي) من السجن يعرج على قدمه اليسرى بعد أن ركب نصف رجل من الخشب، لم يعد يتحمل زيارة أرضه وأرض أبيه ووجد أخيه الأصغر قد اشتد عوده وتحمل كل الأعباء، لم يقيم عزاء لأبيه المقتول، جلس في داره يفكر بعد أن تعلم في السجن أصول حرفة الحدادة وتصنيع القيود وأدوات الحفر والتكسير، كان أعرج لا يستطيع تحمل أية أعمال شاقة في السجن، جلس جوار الحدادين في السجن وتعلم وأجاد وصنع بيديه معهم سواطير وسكاكين كبيرة كان يحصل عليها الآمرين في السجن، حصل (حفظي نائل الفاضي)على التوجيهية وأردا الانضمام لمدرسة الحقوق

على رصيف محطة القطار في مركز تلا، نزل من العربة الثانية شاب طويل قمحي اللون شعره أصفر يرتدي قميص أبيض وبنطلون رمادي اللون يتخلله أقلام رفيعة من اللون الأصفر ويحمل على يده معطف يشابه البنطلون وعلى رأسه طربوش الأفنديات وفي يده حقيبة من الجلد يقبض علي يدها بقوة وكأنه يحمل ورقة خفيفة، سار متوجهًا إلى نهاية الرصيف حتى يعبر القضبان ويقطعها بالعرض متوجهًا لباب محطة قطار تلا المتواضعة وبجوار اللوحة الإسمنتية المنقوش عليها اسم تلا بالخط الكوفي بلون أحمر على خلفية بيضاء وجد الشيخ الذي كان يسير أمامه قد توقف لشراء كوب من العرقسوس، وقف هو الآخر بجواره وطلب من الرجل كوب له، نظر إلى هذا الشيخ الذي على ما يبدو أنه في مثل عمره تقريبًا ولو كان أقصر قليلًا في الطول، وجهه أبيض مستنير يتعمم

بعمامة أصحاب العلم ويرتدي القفطان الكشمير من اللون الكحلي وعلى حواف الأكمام والذيل تلمع شرائط من الحرير الأسود، علم أن اسمه الشيخ شعبان عندما سأله بائع العرقسوس عن أحواله، وأخبره أنه يستبشر بكوب العرقسوس الذي يصنعه كلما غدا أو راح ما بين المعهد في طنطا وقريته التي تبعد خمسة كيلومترات من محطة قطار تلا، تنبه (ماجر) وعلم أنه من قريته،

- ابن من يكون يا ترى؟

سأله عن وجهته وأخبره أنه ذاهب إلى نفس القرية، سأله عن اسمه قال:

- (ماجر أمين)

رحب به وأطلق القسم بأنه من سيدفع ثمن الكوبان ومشيا سويا حتى موقف الحمير الملاصق لمحطة القطار طلبا استئجار حمارين، وجدا (عبد الصمد التاجي) هو من يقوم بانعال حوافر الحمير وبيع سلاسل حديدية وحلقات وأوتاد ومسامير كبيرة وأيضًا براميل التوابيت وغيرها، افتتح سوق كامل بجوار محطة القطار يبدأ منذ أول ضوء للنهار وينتهي مع قطار الخامسة قبيل المغرب، لم يتعرف على (ماجر) وإنما رحب بالشيخ شعبان وأرسل معه السلامات لأبيه الشيخ الصادق.

لم يفهم شعبان تلك الحفاوة بالسلامات لأبيه، وما الذي يمنعه من أن يسلم عليه بنفسه، كان قد سمع وعرف بالعركة الشهيرة بينه وبين أولاد القوصي التي راح فيها أبيه وقطعت رجله، وعرف وسمع من القطب أنه وأبيه شهدوا بما حدث ورأوه بأعينهم أمام المأمور ورجال النيابة منذ سنوات، لم يطيل التفكير في الموضوع، وتواصل الحديث فيما بينه وبين (ماجر) وعرف أنه ابن (مردات) الغجرية وأنه هو الذي كان يعمل تملي لدي العمدة منذ سنوات، وعرف (ماجر) أنه ابن الشيخ الصادق والذي ربط أبيه في التوتة وتسبب في موته.

وصل الشيخ شعبان إلى دارهم الكبيرة على جسر ترعة أبو خمسة وجد الأنوار تتلألأ والباب الكبير مفتوح لأخره والأرجل تدخل وتخرج، ما أن دخل إلا ووجد عمه شعبان يجلس وأبيه في المندرة المنصورة، عاد الرجل من رحلته الطويلة بالإقامة في القاهرة بعد أن خرج على المعاش وسرح من الخدمة في الجيش المصري يحمل عدة نياشين ومعاش ويمسك في يده (نظيرة) ابنته التي تلقت تعليمها في الآداب والفنون وانضمت لجمعية الاتحاد النسائي التي أسستها

السيدة هدي شعرواي عام 1914 م، ترتدي الحجاب على الطريقة العثمانية ويظهر وجهها وضاء كبدر يرسل الإسعاد لمن تقع على وجهه الأنوار، لم ينجب الاميرالاي (شعبان نصر الدين) سوى (نظيرة) ولم يتزوج بعد وفاة زوجته وتفرغ للقراءة والشعر والصحافة وتربية ابنته الوحيدة، وعندما كبرت خاف عليها من السير في تيار التحرر النسائي في القاهرة، دائمًا ما كان يملأ أذنيها بجمال قريته ميت أبو الكوم وبساطتها وأرضه التي ورثها عن أبيه ويرعاها أخيه الشيخ (الصادق)، دائمًا ما كان يمتع خيالها بالغروب عندما تسقط الشمس البرتقالية ويتبدد ضياءها على زراعات البرسيم والقمح من خلف مدارتابوت (نصر الدين) وبالقرب من الجميزة التي طالما تدلت أرجله الصغيرة من أعلى أحد أغصانها وهو يستذكر دروسه وأبيه يجلس بالأسفل ناصبًا مجلس لفض منازعات الفلاحين.

وصل (ماجر) إلى دوار العمدة، طلب لقاؤه، رحب به وتهلل وجهه فهو لم يعرف ماذا يريد هذا الزائر الذي سقط على قريته رغم الإحساس الملح بداخله أن هذا الشاب يعرفه مسبقًا لم يتركه في حيرة مطولة، بعد أن جلس على الكرسي المنقوش بالأرابيسك اعتدل وأخرج علبة سجائره المعدنية وأخرج سيجارة آلية الصنع دون فلتروأشعلها وهو ينفخ دخانها ويسحبه

- أنا ماجر أمين يا عمدة.

- فزقوم يا يالاه

- أنا دلوقتي مش وله يا عمدة، أني عسكري ميدان في الجيش المصري وعرضوا عليا إني أكمل في الجيش صف ظابط، وأنا رفضت واتعلمت القراءة والكتابة في الجيش ومعايا شهادة بتقول كده واقدر أقدم في أكثر من وظيفة في المركز كمان

- فزقوم لأضربك بالكرباج! !

- متقدرش يا عمدة، بصفة إيه تضربني، أني اشتكيك للمأمور وللمدير كمان

- أنت بتهددني يا بن الزواني!

- انتفض ماجروووقف وتراجع عن رفع يده ليمسك تلابيب العمدة

- هي حصلت؟ ! أنت بتبرقلي يا كلب يا بن الكلاب! !

- أمي وأخواتي يا عمدة؟

- أمك بتخدم جوا وبقالها مكان يلمها ولقيت لقمة بعد الجوع، وأخواتك رحمتي بهم شغلتهم في أرضي يتعلموا الفلاحة ويبقوا بني ادمين بدل ما كنتوا هتبقوا زي دبابة الليل

- عايزهم
- أمر ده يالاه؟ !
- بقولك عايزهم يا عمدة

وضع ماجر يده على المسدس في جيبه والممتد ماسورته على فخذه وفكر لثواني في إخراجه، أعطاه له (عبد الهادي) زميله في الجيش، صعيدي هارب من قتل أبيه لابن عم زوجته وحصل عليه بعد سنوات من تحمل كل أنواع الأعمال واحتفظ به دومًا ولما ضيقت عليه الخناق أسرة ابن عم والدته وأحس أنهم قد اقتربوا من اغتياله تطوع للالتحاق بصفوف الجيش هربًا منهم، أعطاه له ليدافع به عن حقه عندما تبادلوا الأحاديث والأحزان أثناء خدمتهم ليلًا، اتفق معه على أن يلحق به خلال شهور وإن أعجبته قريته فسيقيم بها معه.

رفع يده، وطلب لقاء والدته، دخل إلى غرفتها، وجدها كما هي لم تتغير، تبيت كل ليلة من ليالي أربع سنوات عن نفس المصطبة، أحس أن الغرفة حجر لفأر، لم يكن يراها هكذا قبل أن يلتحق بالجيش.

- ربما هي ضاقت وربما أني قد رأيت أراضي ووديان يعيش فيها الإنسان كإنسان.

لم يجد والدته، وإنما وجد شاب يدهن شعره بالمرطب ويفرقه من الجانب الأيمن يرتدي منامة بأقلام عريضة ويكوم أطراف الأكمام على معصميه ممسكًا بكتاب يقرأ فيه ويرتكن بكتفه على الجدار المجاور للمصطبة تحت السقف الحامل لأغصان العنب البناتي يرفع قدمه اليمنى على المصطبة ويقف مستهترًا بكل ما حوله، نادي عليها، لم يجب عليه صوتها وإنما وجد طفلة تشبه والدته بكل جمالها كما رسخ في عقله تقبل عليه بهدوء وتنظر في حذر

- افرين، أختي افرين

تقدم منها وفتح ذراعيه وانحنى قليلًا مناديًا عليها

- أني (ماجر) يا افرين، أخوكي، أخوكي الكبير، تعالي

لم تقبل وترتمي داخل ذراعيه فيدور بها فرحًا، وقفت متوجسة ونظرت إلى (السيد)، اعتدل من وقفته المستهترة ونظر إليه قائلًا:

- أنت مين وعايز إيه ودخلت هنا إزاي؟

- أني ماجر أخوها الكبير والست اللي عايشة في الجحر اللي جوه ده تخدم في العمدة وعياله تبقى أمي وأكيد زاجر ومالك مغروسين دلوقتي لحد ركبهم في طين

خارض العمدة، أنت اللي مين؟

- تطلع مين أنت عشان تسألني، أنت يا غفير أنت وهو.

جاء البغل بجثته المترهلة، يسرع الخطوات

- نعمين يا سيد أفندي

- مين ده؟ ودخل هنا إزاي؟

- معرفش حضرتك

- طلعوا بره، ارميه بره

اقترب البغل محاولا وضع يده على قفاه ليجذبه من ملابسه، فأمسك بها ماجر وأنزلها بالقوة فشد البغل على أعصابه ودفعه بيده الأخرى في صدره، أسقط ماجر الحقيبة من يده ورد له الدفعة في صدره المكتنز باللحم فاصطدم بالسيد من خلفه وكاد أن يقع، وقف العمدة أمام باب المندرة الكبرى صائحًا:

- بلاش لعب عيال، أمك مش هنا يا ماجر، روح شوف أنت رايح فين وتعالي بعد العشا خدها وغور من وشي.

خرج ماجر يتفحص القرية كما انتوي وذهب إلى دارهم الحقيرة على جسر البحر فوجدها قد تهدمت وأصبحت أطلال من البوص وعيدان الحطب وبعض قطع وكتل الطين المتيبس ولكنه اشتم رائحة أبيه وجدته، جلس ينظر للمياه وهي تتقافز خلف بعضها في ترعة الباجورية، وقرر كما انتوي أن يبحث عن بيت يشتريه في القرية.

مرت الدقائق وهو مسترسل في تفكيره حتى وصلت إلى أذنيه أصوات مجموعة من القراء يقرؤون سورة ياسين بالترتيل النغمي لإقامة ليالي لوجه الله وهو هو نفس الترتيل النغمي المتواصل لمن يقرأ سورة من القرآن رحمة على روح متوفي، لم ينسى صوت الشيخ الذي قرأ سورة ياسين على روح والده يوم أن دفن.

قام سائرًا نحو الصوت، وجدها ليلة كبيرة تظهر الأنوار من الفوانيس من على بعد وتنعكس على صفحة المياه القليلة في ترعة أبو خمسة، هناك وجد دار كبيرة مدهون سورها الضخم بالجير الملون بالأخضر والأشجار فيما حولها وارفة ومهيبة والناس تدخل وتخرج ومجموعة من الأطفال يلعبون يدخلون ويخرجون في أيديهم أرغفة القمح والفول النابت وبعض قطع اللحم، تذكر، فقد دعاه الشيخ شعبان لحضور ليلة احتفالية بمناسبة حصوله على العالمية ولكنه أخبره أن هذه الليلة غالبًا ستكون في الغد سأل أحد الأطفال فأخبره أن

هذه دار الشيخ (الصادق نصر الدين)، لم ينسى الاسم طوال أيامه الطويلة إنه الرجل وابنه الذي تيقن أنهم هم من ربطوا أبيه وقتلوه، دخل بأقدام ثابتة فاستقبله أحد الشباب من الأسرة يقف بالقرب من الباب للترحيب بمن يحضر، وجد الشيخ شعبان يجلس جوار أبيه ومن حوله أخيه القطب ورجل أخر يرتدي جلباب بلدي ولا يرتدي تكالت أو طاقية، وقف الشيخ شعبان مرحبًا به ودعاه للجلوس جوارهم، سأله أبوه عنه فأخبره أنه قابله في محطة القطار وأنه من بلدتهم، إنه ماجر ابن أمين الغجري، نظر القطب إلى أبيه عندما سمع الاسم، لم يلتفت إليه الصادق وينظر إلى وجهه مباشرة وبعد ثوان نظر إليه ورحب به وعرفه على أخيه الفارس شعبان نصر الدين فخر القرية ورفيق عرابي في ثورته.

نظر ماجر إلى الفارس الكبير شعبان وقدم التحية بكل احترام وقال ما كان يحمله طوال أربع سنوات ويمثل كل العبء على قلبه، نظر شعبان إلى أخيه الشيخ الصادق في استفهام.

- الولد فاهم غلط يا شعبان
- وإيه الصح يا شيخ صادق
- الصح يقوله الشيخ إبراهيم
- وفين الشيخ إبراهيم؟
- هيصلي العشا ويحضر معانا الليلة.

انتقل (الشيخ شعبان) إلى جوار (ماجر) ونظر في عينيه الجامدتين في نظرتهم وقد تصلبت كل أعصابه في جلسته، ابتسم في وجهه، وطلب منه الهدوء،

صُليت العشاء وخرج العمدة نائل الفاضي ومعه الشيخ إبراهيم متوجهان لحضور ليلة الشيخ الصادق احتفالًا بقدوم الفارس فخر القرية شعبان نصر الدين.

اختص شعبان الكبير الشيخ إبراهيم بحواره، فافهمه ما حدث، لم يكن يكذبه في كلمة فهم زملاء وأصدقاء يوم أن ولدا في القرية منذ ثلاثة وستين سنة.

جلس العمدة في المجلس وعندما وجد (ماجر) يجلس جوار الشيخ شعبان ويدور بينهم حديث، تأفف وأطلق عدة نظرات فهمت من الشيخ الصادق، ولكنه نظر إلى العمدة نظرة قوية يعرف معناها جيدًا فارتد عن ما يجول في فكره.

جاء موعد العشاء وجيء بالطبالي ومن خلفها الصبيان والبنات الصغار يحملون الطواجن وصواني الكسكسي وقطع اللحم الكبيرة وأطباق الفول

النابت، دعي الجميع ونزل الجميع، ما كان يجلس العمدة أبدا مع (ماجر) ويتناول طعامه معه، امسك القطب بذراعه الطويلة وجذبه مع أخيه شعبان لتناول طعامهم في المتسع الكبير جوار المندرة فقد فرشت الأرض بالكليم الصوف ووضعت طبالي صغيرة عليها الكثير من الأصناف مدعيًا أن الشباب يحبون الإئتناس ببعضهم وقت تناول الطعام، خرجوا جميعًا والتفوا حول الطبلية جلس جوارهم شعبان الكبير واقترب من آذن (ماجر) وأخبره بما عرفه.

- اسمع يا بني، أنت كنت صغير لا تعي أن والدك رحمه الله كان يسرق المقام من الفقر والاحتياج، ولكن تبقى السرقة سرقة، أعطاه أخي الشيخ صادق جزاء كنوع من التأديب، رأيت أنت ذلك وتملكك الخوف والرعب وهربت، في الصباح فك رباط والدك الشيخ إبراهيم ومعه شيخ الخفر وحملوه إلى دوار العمدة وهناك ضربه الحضري الغفير فسقط ومات، هذا ما شهده الشيخ إبراهيم وهو أيضًا يؤكد أن الحضري لم يكن يقتله وإنما كعادة الخفر بأمر العمدة.

نظر إليه ماجر نظرة حادة وثابتة واهتزت أعصابه كمن يريد البكاء ويتمنع، ربت على كتفه ورأسه عندما طأطأها وصمت تمامًا، ثم انفجر

- ممن أخد بثأر أبي حتى وإنْ كان سارق؟ لم تحن عليه كل هذه القرية! لم يطلب السرقة! طلب أن يشقى من أجلي وإخوتي، لم يقبل منه حتى أن يشقى! ممن أخذ بثأره؟

- لا ثأر لك في أحد، وإن مات في دوار العمدة فهو القضاء والقدر وساعة الأجل ويد الحضري كانت السبب

- إذا اقطع يد الحضري؟ !

- وماله الحضري هو مأمور

- اقطع رقبة العمدة؟ !

- لم يكن العمدة ليقتله وإنما كان يقوم بدوره كمسئول، ربما كنت صغيرًا حينها ولم تفهم. اهدأ وتروى ولا تضيع عمرك.

ربت على ظهره الشيخ شعبان ودعاه لتناول الطعام ملقيا بنكتة عن أطعمة الجيش في حضور عمه.

لم ينطق القطب بكلمه وإنما تملكه إحساس بالشفقة عن ما يعرفه عن ما حدث لوالدته وحدثه عقله:

- أمن الصحيح والحق أن يعرف بما حدث لوالدته في غيابه؟ فينطلق للأخذ

بالثأر فعلًا ويغسل صفحة اسمها التي تلوكها الناس صباحًا ومساءً؟

كلما وضع لقيمة في فمه ينظر إليه ويحاول الاستقواء على إخباره، فمن الرجولة أن يخبره، يجب أن يعرف؟

نظر إلى أخيه شعبان وعيناه كلها أسئلة، تحركت أعين شعبان يمينًا ويسارًا في رفض على ما بدا من أعين القطب.

كلما دخل رجل من رجال القرية، يراه! فيسأل؟ فيعرف أنه ماجر ابن (مردات) و(أمين) الذي نفاه العمدة منذ سنوات، تمتلئ الأعين بالحيرة، من الحق كل الحق أن يقتص لشرف أمه، لم يكن لها رجلًا يغسل جلبابها الذي تلوث و اهترأ، اليوم بزغ من عمق الأيام القاسية في هذه القرية وصمتها الجبان عن الحق رجلًا ربما يطهر صفحة والدته.

obeikandl.com

البُهْرَةُ

بعد عدة دقائق انتهوا من الطعام وجلسوا في تجمعات يدخنون المعسل ويشربون الشاي والأدخنة البيضاء والزرقاء تختلط برائحة الشاي وتنطلق صاعدة حول وفوق دار الشيخ الصادق ونخله وأشجارها، لم تترك أعين القطب وجه (ماجر)، يشعر بحمل يجب أن يسقطه عن كاهله، لقد سخنت دماؤه وانتوى أن يقتص من (حميدة الفار) بنفسه عن ما فعله بمردات ولكن الشيخ الصادق منعه، القرية كلها تعرف أنه اغتصبها في مطلع نهاروهي عائدة من قرية (زرقان) تحمل سبت البيض بعد أن دارت على الدور تجمعه، هكذا كانت تفعل في يومين من كل أسبوع تذهب إلى (زرقان) وكفر ميت أبو الكوم تجمع البيض في صباح اليوم وتعود به لتتجمع كميات كبيرة منه في الغرفة الكبيرة للتخزين في دوار العمدة ثم يجمع البيض في أنية كبيرة من النحاس تعبأ به طبقة من البيض وطبقة من قش الأرز حتى لا يتكسر ثم تركب جوارها على الكارو بصحبة (زاهي العربجي) وتذهب إلى سوق مركز تلا كل يوم اثنين من الأسبوع وإلى سوق مركز الشهداء كل يوم خميس تبيع البيض كله وتضع كل النقود في صرة صغيرة تدفنها في صدرها ثم تعود للدوار تسلمها للعمدة كما هي دون حتى أن تنظر لتلك المبالغ فقط كان تحصل على عدة بيضات تطعم بها صغارها.

رآها (حميدة الفار) وهي تشتري البيض من زوجته، أعجبته، مال على أذنها وألقى فيهما عدة كلمات رخيصة، خجلت وهربت من كلماته أكثر من مرة، دبر ورتب وعرف أنها تذهب إليهم كل سبت في مطلع النهار، خرج في ليلة السبت لري أرضه ليلًا وصرت له زوجته طعامه، أنهى سقية الأرض وبقى من قبل آذان الفجر ينتظر حتى صُلي الفجر، اخذ طريق مختصر نزل من جوار غيطه حتى وصل للمحدة الشرقية ومنها إلى مروة النحاتين ليصل إلى جسر ترعة الزرقانية وجلس يختبئ خلف زريبة (محمود النحات) رآها قادمة من بعيد تحمل على رأسها سبت كبير وتسير ببطء وبصعوبة، لم تكن ترتدي في أقدامها شيئًا فتدوس على الأرض مرة تجدها دافئة والأخرى تجدها رطبة و زلقة من تقاطر الندي في

الصباح، وفي أحيان كثيرة كانت تدوس على الأرض فتنغرس حصوة جاحدة على أقدام البشر فتترك أثرًا غائرًا أو تدفع بعض الدماء للخروج والاختلاط بتراب الأرض، اعتادت قدماها على التحمل فإن كسرت بيضة واحدة منها، فعلى الأغلب سيضربها العمدة أو يمنع عنها وعن أبناءها الطعام، تجارة كبرت وتضخمت لم يكن يعرف عنها أحد أي شيء وإنما تخيل الكثيرون أنها هي من دبرت ووفرت وتاجرت في البيض لتضمن قوت أبناءها وأعجبت بها النساء في القرية وتعاملوا معها وأعطوها.

تتهدج الأنفاس وتخرج دافئة من جوفها فتشكل سربا من التبخر سرعان ما يذوب في الهواء وتبقى منه بقايا دافئة تتجمع على الشال الشبكي الأسود الذي تلتف به رأسها ورقبتها وترفع جزء منه أمام فمها، الأنف البيضاء تلونت بالحمرة ربما من البرودة الصباحية لطبيعة الأرض كما خلقها الله أو من شدة الضغط الواقع على الرأس والرقبة والأقدام.

تحمل السبت على رأسها وتضع فيما بينه ورأسها حواية من جلباب قديم لونه أصفر باهت وتبدل خطواتها في حذر فيهتز جسدها وتتكشف تقسيماته المغرية لمن يتتبع وتملؤه الرغبة، كلما هبت نسمة خفيفة من هواء الصباح تدفع بكل جلبابها إلى الخلف فتتجسد الأرجل والبطن والجذع ومن فوقهم صدرها، ما أن اقتربت من حظيرة (محمود النحات) اقترب هو من الجدار المعاكس واستعد، نظر في كل الاتجاهات لم يكن هناك أحد، الطريق المجاور للترعة الزرقانية، طريق شبه مقطوع من سير الناس، في الليل الأشجار المتراصة عليه وعلى رؤوس الغيطان و على جسر الترعة تحفو وريقاتها وتهتز وتنعق الغربان طول الليل فيكون الإحساس بأن هذا الطريق شديد الظلمة هو طريق من طرق جهنم.

خلع جلبابه ووقف بالقميص والصديري واللباس الطويل، وما أن أصبحت أمام الحظيرة، خرج إليها كعفريت وممسكًا بمطواته، نظر إليها في تهديد وعيناه جاحظة كشيطان يبحث عن أكل الوجوه، وضع المطواة على رقبتها البضة، ووضع اليد الأخرى على السبت، ذهبت روحها إلى مكان ما، وجف ريقها والتصقت الشفاه لم تستطع أن تبتلعه أو تحرك شفتاها سارت معه وجسدها ينتفض ويهتز، أمسك بالسبت وأنزله بعنف فتكسرت البيضات، ثم جذبها بقوة وقذف بها إلى جدار الحظيرة، فارتطمت به وخدرت ذراعيها رفع ذيل جلبابها وأجبرها على الانثناء أمامه على جذع من الخشب تربط فيها المواشي ثم باشر اغتصابه لها،

حاولت التمنع، فدفن سن المطواة في فخذها، توقفت، باشر، حاولت التأوه وضع يده على فمها وضغط حتى أحست أن فكاها قد تكسرًا، باشر دون هوادة أحست بكل آلام الدنيا في بطنها، وكأنها ثعابين تمتد وتنهش جزء من أحشائها، استجمعت قواها وصرخت وحاولت التملص منه، كان في فورة الغريزة، لم يستطع السيطرة عليها واهتزت أعصابها، دفعته وصرخت مرات، على بعد عدة حقول ظهر رجل ومعه ابنه قدمًا سريعًا فوجداها قد تعثرت في المروة وسقطت فارتطم وجهها في الأرض فأدمي ودخل الطمي إلى فمها، ومن خلفها وجدا (حميدة) يحاول هندمة ملابسه وفي يده المطواة، ما أن ظهر في أعين الفلاح العجوز لمعان الغيرة على الشرف والحق، لوح حميدة بمطواة وتحرك خطوتين نحو اليسار، ثم انطلق مسرعًا وعائدًا إلى حقله.

بعد أن سقاها الرجل وربت على ظهرها استعادت نفسها وهندمت جلبابها والذي شق من عند الصدر من أثر شد (حميدة) لها، وقفت ومازالت تنتفض وقد تحول وجهها كلها إلى حمرة قانية وكأن الدماء أصبحت تضخ على الجلد وليس في الشرايين والأوردة، هذا العجوز الفلاح القوي، أرسل ابنه لجلب حمارهم ووضع أمامه سبت البيض، ثم رافقها وانطلقا حتى دوار العمدة، نادوا عليه فاقبل وهو مهتاج من أن يوقظه أحد في هذه الساعة المبكرة، عرف ما حدث، شكر للرجل صنيعه وصرفه.

لم يحدثها، لم يهدأ من روعها، لم يحاول التخفيف عنها، كانت تتخيل أنه بعد سنتين من العذاب والعمل دون انقطاع هي في المنزل وزاجر ابنها في الأرض وبعد صمتها عن نفي ابنها الأكبر (ماجر) أنه قد تكونت لديه بعض الوفاء للعشرة، كما حدث في داخلها، لم ينطق!

لملمت نفسها ودخلت إلى غرفتها، تكومت وأخذت ابنتها (افرين) في حضنها وانطلقت تردد:

أبي اينوفا افتح لي افتح لي أنا خائفة من وحش الغابة
اليوم أصبحت أنا أيضًا غريبا
اليوم يا ناجية عرفت لما ترنمتي لي في الصحراء باني غريبا
اليوم عرفت يا أمين لم تركتني!!
كي أصبح غريبا
اليوم عرفت لم راح مني ماجر!!

بكت، ولكن البكاء لم يغسل ولم يطهر، بكت وانتحبت على شرفها الذي لم يكفف جراحه أحد، بكت وهي تحاول إدخال ابنتها إلى بطنها مرة أخرى.

جل ما كان أن الحاجة زهرة بعد أن أقعدت تمامًا بفعل آلام ظهرها أرسلت لها وهدأت روحها ودفعتها للتحمل ليس شفقة نسائية بقدر احتياجها لها بعد أن أطمئنت لها، كان اليوم الوحيد الذي حصلت عليه كأجازة من كل الأعمال، وباليتها عملت كما اعتادت فربما كانت تزفر بكل ما بها من أوجاع في أعمالها.

مثل ما كان يقال لماجر قبل سنتين قيل اليوم لزاجر وهو يكد ويعمل في أرض العمدة، طفل قد تخطى العاشرة ولم يكن بقوة أخيه الأكبر، جاء باكيًا وارتكن هو الأخر على صدرها، بللت دموعه جلبابها حتى ارتشحت ووصلت بحرقتها الدافئة والمالحة إلى جلدها، ولكنها أم حانية ضعيفة، لا تملك إلا العطف و كفكفة الدموع لا النفوس أو الأرواح، لم تستطع أن تكفف دموعه، وجلس مالك الصغير هو الأخر لا يعرف لما يبكون! ! وإنما بكى هو الآخر وهو يحتضن رجل أخيه الأكبر احتماء من الإحساس المؤلم.

مرت أيام قليلة، واستعادت عافيتها ولو ظاهريًا، فالبطن لا ترحم والجوع كفر منذ خلق، حذرت زاجر من التناطح مع أحد فإن فعل! سيضربونه وحيدًا في الأرض ولن يجبر له كرامته أحد.

طلبت الحاجة زهرة أن تقضي (مردات) نصف نهارها في البيت لا خارجًا لتنظيفه والقيام بأعبائه من الطبخ وتغيير مياه الخزانات وغيرها.

في يوم ضربها العمدة بكفه على مؤخرتها وهي تخرج من غرفة زوجته زهرة بعد أن ساعدتها في تغيير ملابسها، ارتعش كل جسدها واختفت في لحظات تدفن همها مما فعله العمدة هو الآخر في غسيل الأواني النحاسية وزجاج اللمبات.

لم يكرر العمدة فعلته وتحاشت لقاؤه وأصبحت فقط تذهب إلى الأسواق لبيع البيض بعد أن تجمعه بعضهن من العاملات الأخريات لديه، وما أن تناست ما حدث لها أو هكذا ظنت وجدت شاب أبيض اللون له شعر طويل وأنف مدبب وذقن مستدقة، يقف مستهترًا ومتعاليًا على كل شيء ممسكًا بكتاب كبير، أحيانًا يجلس على أريكة خشبية كبيرة بجوار جدار المندرة وأحيانًا يضجع على المصطبة

تحت سقف العنب دون أي حياء أو اهتمام، مرات يطلب من إحداهن أن يشرب اللبن الدافئ الطازج بمجرد أن يحلب وأخرى يقف خلفهن بأعين باردة ترسم كل تفصيله من أجسادهن، لم تستطع إحداهن إخبار الحاجة زهرة فهذا ابن أخ العمدة يتعلم في البندر ويأتي كل عدة أشهر لزيارة القرية ويستقر بها والحاجة زهرة تنتوى أن تزوجه ابنتها فهو الوريث الوحيد لأبيه وسيرث كل أرضه وهي تحت يدي العمدة يشرف على زراعتها لصالح أخيه.

تحدثت النسوة أمامها عن فعلات السيد ابن أخ العمدة عندما كان صغيرًا، كان يتعمد دخول غرفة الخبيز عليهن ويقف ينظر إليهن بشراهة مقبل على الاستمناء، وفي أحيان أخرى كان يتعمد أن يتبول داخل زرائب المواشي وهن يحلبن المواشي مع إقبال المغرب، شاب دنيء يخفن منه ويهربن، فكلهن أمهات ويعملن لدى العمدة خوفًا من بطشه وإنما لهيب الشمس في ذروتها في الظهيرة أرحم مئات المرات من العمل لديه وفي بيته ودواره، فهو رجل عينيه صائدتان للعورات دائمًا، يداه طويلتان على اللمس والتحسس ولكنه ليس زاني ولم يقدم على فعلها مع إحداهن، خافت هي الأخرى وأخذت حذرها من (السيد) بمجرد أن وصل إلى القرية بالأمس وقد عرف بفضيحة اغتصابها والكلمات وصلته متكاثرة بالمزيد من الوصف لصدرها وجسدها وأرجلها وهي شبه عارية رغم أن الفلاح العجوز سترها بجلبابه الثقيل وهي تسير خلفه، نظر إليها وهي تجلس تحت أرجل الجاموسة وتحلبها، فتهدل أكمام جلابيتها فتظهر أذرعها ببياضها ونعومتها، وكتل اللحم المتكور لأردافها أثناء جلوسها القرفصاء أغرته، وظل ناظرًا إليها ومسترسلًا في أحلامه، بيت النية هو الآخر لاقتناص جزء منها.

ما أن رحلت كل النسوة العاملات في دوار العمدة وسيطرت صرصرة صراصير الغيط على الأجواء الليلية للقرية ومن خلفها ضواع الكروانات ونعيق البوم وبعض الغربان الجائعة، إلا وانطلقت الرغبة والشهوة تختلط بدناءة ونجاسة الانزواء إلى التشكلات الحيوانية للغرائز الإنسانية، انطلقت الرغبة في نفس السيد، تلصص على غرفتها وظل يحاول استراق النظر، لم يتبين شيئًا، كوم من اللحوم البشرية تتكوم جوار بعضها، زحزح الباب الهزيل ووقف أمامهم، نظر وتفرس جسد (مردات)، التهبت رغبته، مد يده، تحسسها، مررها على فخذها، فزت من نومتها وكادت أن تسقط ابنتها على الأرض في هبتها، أمسكت بها واحتضنتها وانزوت للخلف وهي تلملم أرجلها وتغطي بجلبابها حواف أصابع

قدميها المشقيتين والمتجلدتين، لمعت عيناه وانعكس عليها الضوء الأصفر الكئيب الخافت للمبة الصفيح الصغيرة المعلقة بجوار الباب، توسلت إليه، حاولت القيام من جلستها، زجرها وحدجها بنظرة تهديدية، وضعت ابنتها السارحة في ملكوت الارتياح بالنوم من الفقر والضعف على المصطبة تحت أرجلها وحاولت الهرب والانزواء مما بين جسدي ابنيها الملقين تائهين في نهم الاستمتاع بنوم من عذاب أيام طويلة.

قفز في خطوة واحدة وأمسك برقبتها من الخلف، فسقط ساتر شعرها الصغير وانفك رباطه وأصبح شعرها الكبير والكثيف يتدلى على يده ووجهها وصدرها وظهرها.

خرجت في يديه كدجاجة خانعة امتنعت عنها النقنقة، أمسكت بها صاحبتها استعداد لوضع جناحيها تحت رجلها وحز رقبتها والإلقاء بها بعيدًا حتى تفرغ دمائها استعدادًا للاستمتاع بلحمها الطري، خرجت وهو يغلق أصابعه على رقبتها من الخلف كلما حاولت التوجه إليه واستعطافه، ضغط على رقبتها ليكفيها للأمام، أخذها إلى ما خلف المواشي في حظيرتهم، ضيق عليها المساحة حتى أصبحت هي الفيصل بينه وبين الجدار، ظل يتحسس جسدها ويفركه بقوة لتتألم وتنتفض، ترتعب من مجرد أنها قد تصرخ لتفضحه، فهو أمل الحاجة زهرة في زواج ابنتها وهو وريث أبيه الوحيد وأرضه تحت يد العمدة ورغم سفالته إلا أنه كان يفيض على كل الخفراء والعاملين والتملية بقطع من الحلوى التي تذوب في رضاب الفم، يحضرها معه من القاهرة، ويعطيهم السجائر الجاهزة وعبوات الدخان، ضغط على فكها الأسفل ودفعه لأعلى ففتح فمها وضع فيه قطعة من الحلوى بلون أخضر، أغلقه بقوة ومازالت يده باقية فابتلت بدموعها، نظر إليها ومس شعرها الكبير وتخللت أصابعه خصلاته المنبعجة والمتجمعة، ثم لامس خدها بحنو وأدارها بقوة ومارس بالقوة ما أراد، تنهدت بقسوة كلما دفعها، دارت رؤوس المواشي تنظر في الظلام وانحنت وهي تتلوى وتتحرك، حتى تخبطت وتلامست بطونها، لم تنهار (مردات) ولم تسقط، وإنما طهرت نفسها، وراحت تضم في أحضانها أولادها، وقد قررت أن تهرب في الصباح وليكن ما يكون، وقبل أن تخرج من غرفتها في الصباح كي تهرب من مستنقع قد سقطت فيه، وجدته يقف أمامها

- أنا برضه قلت إنك هتعملي كده. اسمعي، لو عملتيها ها قول إن ابنك ده

سرق مني علبة السجاير الفضة دي، والخاتم، وأقلام الحبر وكل الفلوس. وهاتيجي وساعتها هسيبهم يجلدوكي أنتي والعيال.

استعطفته، وكلما بكت وكبت الدموع من عيونها المتسعتان، زادت أنفاسه شوقًا، وامتلأت نظراته بجمالها، تحمل ابنتها الصغيرة (افرين) وتمسك في يدها مالك ويقف جوارها (زاجر) الذي لم يعرف لماذا سحبته أمه من يده، ولكنه كان ينظر إلى (السيد) بكل الحقد والكره، تخطى العاشرة من السنوات وتخطى قلبه الستين حزنًا.

شهور قضاها السيد في دوار عمه العمدة وفاحت الأخبار إلى أذان كل الأهالي، خرجت العاملات لدى العمدة تحملن الأخبار بما يحدث لتخبرن أزواجهن سرًا وليلًا، ليخبر الزوج جاره وهما يديران الطنبور أو يجلسان حول الجوزة لامتصاص أدخنة المعسل بكل نهم.

علم الجميع!

أشفق الجميع!!

صمت الجميع!!!

دارت الأخبار وصبت في أذن الخفر وشيخهم، نقلت إلى مسامع العمدة، فكر لثواني ثم تناسى ما سمعه، نقلت الأخبار إلى أذان الحاجة زهرة، تحدثت مع زوجها عمدة القرية وعم (السيد)، شارت عليه أن يبرق لأخيه للقدوم لإتمام زواج (السيد) من ابنتهم، أبرق له بسرعة الحضور

حضر أخيه وعلم بما يحدث وجل ما فعله أن أخذ في يده ابنه، وأرجئ الحديث في تزويجه ليوم آخر، كان يرغب في حصول ابنه على منحة لإكمال دراسته في بريطانيا، كان مستعد للتضحية بميراثه من الأرض في سبيل تحقيق هذا الهدف، فهو يعلم كل العلم أنه لا طائل منها ما دامت تحت يدي أخيه العمدة، وإن طلبها، سيعرض عليه أخيه شراؤها ولن يستطيع أحد مناطحته لشراء جزء من أرض أبيهم ليس خوفًا من العمدة فالقرية بها من هم أغني وأقوى وأعز بأبنائهم وعزوتهم وإنما المبدأ، فالأرض عرض وسند ولا يتعدى على العرض إلا ابن حرام أو فاقد للشرف، دارت تلك الكلمات في مخيلته وهو يصطحب ابنه معه وقد عقد النية على إرغامه على عدم زيارة القرية مرة أخرى على أن يبيع الأرض في وقت ما فكيف يرى هو أن الأرض عرض لا ينتهك وابنه الوحيد قد انتهك عرض وشرف واسم وحياة.

obeikandl.com

السَّحَرُ

لم يتحمل عقل القطب وقلبه كل هذا الكم من الهم وهو ينظر إليه ويراه شاب فتي والدماء تتقافز في وجهه، طلب الاختلاء به لدقائق ولم يتركهم شعبان أخيه، أخبره بكل ما يعرف وشهده يوم ربطوا أبيه في التوتة وما سمعوه عن ما حدث لأمه وعن شقائها وأعمالها التي تحملتها كجمل يسير في صحراء لا نهاية لها وجل ما يفعله مضغ كتلة من العشب بين أسنانه الكبيرة يلوكها وينقلها فيما بين الشدقين، وكل عدة أقمار ربما يجد بركة من ماء مالح يشرب منها فيزداد عطشه على عطش.

انزوى في ركن المندرة الصغيرة وسند كتفه على الجدار يحاول لملمة نفسه والظهور بالقوة، تجلد وتماسك ومنع الدموع أن تسقط، فخرجت كنار وأججت وجنتيه وعيناه، طلب منهم واستأذن أن يترك وحده لدقائق وأن يختلي بعدها فقط بالشيخ الصادق، توسط له الشيخ الصادق لدى الحاج ناجي ليؤجر له داره القديمة على جسر المصرف، دارنائية على أطراف القرية من الجهة القبلية، مغلقة منذ عدة سنوات لها باب خشبي من درفتين متهالكتين، وتضم ثلاثة غرف ومتسع بينهم وحمام، وفي الأعلى مندرة واحدة على رأس الدار وفوق الباب الرئيسي وملحق بها من الخلف حظيرة مواشي كبيرة لها باب واحد يتصل بالدار من الداخل، في نفس الجلسة تسلم الحاج ناجي إيجار شهرين كاملين على عهدة الشيخ الصادق وأرسل في طلب مفتاحها النحاسي الكبير من داره.

ذهب إلى الدار في رفقة الشيخ شعبان دخلا الدار سويا وقرأ الشيخ شعبان تعاويذ من القرآن وبارك له السكن، استأذنه للحاق بليلتهم واستقبال المهنئين، أشعل (ماجر) لمبة صفيح بشريط من القطن يشتعل طرفه لتنير له الحيز الجالس فيه، فكر وسرح في الظلمة التي ترتكن وتسكن أركان الدار وغرفها، نعر بصوت ضخم كمن يذبح احتراقًا على ما عرفه وجلس يتخيلهم يغتصبون أمه، بكى وهو لا يشعر أنه يبكي تقافز قلبه الكبير في صدره فهز أضلاعه كلها وجزعه

وأصبح البكاء كطلقات من النيران تصدر من داخله وتنطلق إلى عقله.

أخرج من حقيبته الجلدية الكبيرة خنجر عريض وقصير اشتراه من أحد زملاءه أثناء الخدمة في الجيش، ما أن أمسك به ليخرجه من علبة معدنية صغيرة إلا وسقطت أوراق صغيرة مكتوب عليها كلمات مقتضبة، كانت تلك الكلمات هي إشادة من الملازم أول (محمود عرفان) ابن طنطا والذي علمه القراءة الكتابة ورفع رقعة الإحساس داخله بأبيات الشعر العربي التي كان يترنم بها في أذنيه وكله سعادة ووهج وفي الوريقة الأخرى حكمة من أحد زملاءه والذي حكى له ما مر به فكتب له قبل أن يغادرهم. .

" اعمل عقلك وقلبك قبل يدك ورجلك، واسمع صوت قلبك قبل أن يغلبك شيطانك"

قرأها، وهو يمسح الدموع عن عينيه وأمالها لتنعكس ضياء اللمبة على سطح الورقة فظهرت كل أحرفها.

وضع الوريقات مكانها ودفن الخنجر في جيبه الكبير على جانب رجله اليسرى، اخرج المسدس الكبير ونظر في ساقيته ليتأكد أنها ممتلئة بطلقاتها، أعاد ربطه على فخذه الأيمن، وتوجه إلى دوار العمدة، لم يطرق بابا ولم ينظر إلى أحد، دخل إلى المندرة الرئيسية ونظر فيها لم يجد أحدًا، نزل السلم الصغير في خطوتين وانزوي يمينًا ناحية حظائر المواشي باحثًا عن أمه، كانت تجلس واضعة يديها على رأسها، تنعي الهم بقدومه وخوفها من أن يعرف كل ما حدث فيطير جسده لقاء طلقة غدر من غدارات خفر العمدة، يجلس (زاجر) على الأرض ويأكل قطعة من الخبز الجاف يلوكها في قطعة من الجبن ويشاركه طعامه أخيه (مالك) وتجلس جوار أمها (افرين) تلهو بقطع من أحطاب القطن ولب حطب الذرة.

وقف أمامها يسد فتحة الباب بجسده الفارع، ينظر إليها والدموع تكاد تسلخ المقلتين من محجريهما، نظرت إلى ما سد ضي النور فوجدته. . . ابنها، زغردت وصرخت، زغردت وإنما كانت تصرخ، صرخت من قلبها وحركت لسانها لتكون زغردات، احتضنها وضغط على جسدها ودفن رأسها في صدره، قبل جبينها وأمسك بشعرها الطويل يمرر أصابعه فيما بين الخصلات كما كان يفعل صغيرًا،

قام إخوته يحتضنوه، ويهللون، أصابت ملابسه بقع من الطين شبه الجاف المتيبس على جانبي جلباب (زاجر) فارتجع ونظر إلى وجهه معتذرًا، احتضنه (ماجر) وقبل رأسه، وربت على ظهره ورأسه، فتح ذراعيه لأخته الصغرى، فانطلقت تضحك ورمت بنفسها فضمتها ذراعيه القويتين وقبل كل جزء فيها وأمه تمرر يدها على جنبه وظهره وتنظر إلى أعينه الكبيرة وحاجبيه الغليظتين تحاول أن تعتذر له، وضع يده وأصابعه الطويلة على فمها ومررها في حنو على وجنتها قائلا:

- جيت ياما، أني جيت، بقيت راجل أضلل عليكي ياما، وحق من خلق الأرض واللي عليها لاخدلك حقك، وحق من صور البني أدم ياما، لاخدلك حقك، وحق من خلاني راجل ياما لترفعي راسك.

- لم تستطع أن تتحدث، لم تستطع أن تطلق حرف، تيبس اللسان وصار إحساس بسقوط الأحشاء كلها إلى أسفل القدم.

- فين السيد؟

- سافر، جه ابوه وسافر مصر معاه.

- جه ابوه وسافر معاه بعد سنه ياما، ليه ماكلتي رقبته؟

- كنت أقدر أمضغ كبده بسناني، خفت، خفت على خواتك يا ولدي.

- وحق اللي خلاني راجل لاخدلك حقك

نظر (زاجر) إلى الحوار لم يفهم، لم يكن يعرف أنها كانت تغتصب لأيام طويلة على مدار أكثر من سنة كاملة كل عدة أيام كان يزورها، مرات ممسكًا بمطواة، وأخرى في يده كرباج، حتى اعتادت انتهاكاته لروحها.

انتقلوا إلى دارهم، وظلوا طوال الليل ينظفون ويكنسون حتى ازدهرت الدار بغرفها الثلاث، وأشعل نارًا أمامها، وضع كنكة ليغلي الشاي الذي أحضره معه، أجلس أمه وإخوته حوله، وشربوا وتحدثوا، كلما مرت خيالات في عقله تنعكس صورة أمام عينيه وهو ممسكًا بالبندقية طويلة الماسورة ويرتكز على الأرض ليطلق النيران منها نحو الأهداف فتتحقق فيترقى ويفتخر بكلمات الإشادة من ضباطه..

- كنت في عمق الصحاري أجلس حارسًا لفصيلتي والذئاب الجائعة تتحرش بي عن بعد وتطلق عواءها المرعب! لم أكن أخاف؛ بل أعتدها أكثر من البشر

وأصبحت تقترب مني أكثر في كل ليلة، فلا أفز حتى تقترب فأضرب عيارًا عليها فتصاب وتظل ساعات تعوي وهي تجر سيقانها المصابة خلفها، أصبحت رفيقتي في الفروالكرفي كل ليلة، واليوم ألن اثأرلتلك المرأة التي كسرت في الدنيا وأصبحت "غريبا" حتى قبل أن تعرف أنها "غريبا".

تكشفت من حولهم الأراضي وانتشرت زقزقة العصافير تستيقظ وتتغنى استعدادًا للانطلاق للبحث عن طعام اليوم الجديد، قال لأمه وإخوته: -

- ناموا وارتاحوا اليوم وأنا لي عدة أشياء أفعلها وأحضر ما تريدون من طعام عند عودتي.

حدجته أمه بنظرة تسأل،

قال: - لا تخافي يا أمي.

ذهب إلى المركز، وسأل عن وكالة الحاج (عطية جرجان)، وصل إلى الوكالة ومازال العمال يفتحون الأبواب الكبيرة ويطلقون البخور على حامل فخاري كبير به رماد وقطع كبيرة من الفحم، قدم نفسه للحاج عطية، وأخبره أنه سيفتتح دكان في قريته

رحب به الرجل وأجلسه أمامه وقدم له كوبًا من الشاي، جاء إليه بتوصية من عرفان أفندي كاتب في المحكمة الشرعية بطنطا، وكانت له تعاملات كثيرة معه قبل أن يترق الرجل ويترك موقعه وينتقل إلى الإقامة في القاهرة ويلتحق ابنه محمود بالجيش المصري كفارس ميدان.

اتفقا على طريقة العمل فيما بينهم وترك له مبلغ من المال كمربوط حساب دائم على أن يسجل اسمه في دفترالتعاملات، ثم انتقل إلى السوق واشترى سردين مملح وأقراص طعمية ووقتين من الحلاوة الطحينية وخبز طازج وأقماع سكر، وذهب إلى داره ليطعم أمه وإخوته، مر على دكان المعلم زكي النجار وأحضره في يده ليصنع عدة أرفف وخزانات تستخدم في عرض بضاعته وتخزينها في المندرة اليمنى في وجه الدار كما طلب منه أن يصنع حمير من الخشب لتكون أسرة ينامون عليها،

في المساء ارتدى جلبابه البلدي وطاقيته من الصوف، واتجه لحضور الاحتفال بحصول الشيخ شعبان على العالمية من الأزهر، وضع الخنجروالمسدس في جيبا الصديري، جلس في وسطهم وتناول معهم الفتة ولحم الضأن، كان يجلس رافعًا رأسه لتكاد تلامس العروق الخشبية في سقف المندرة، بارك للشيخ شعبان وهنأه

ثم انفرد بالقطب يطلب منه أن يستأذن أبيه في أن يشتري منهم خروفين وعنزة أو اثنتين، أخبره القطب أنه موافق وفي الغد يأتي ليتسلمهم وعندما صمت كمن يريد أن يقول شيء أخبره القطب أنه هو القائم بكل الأعمال وإدارة كل شيء ولن يعترض على قراره أبيه.

بعد عدة أيام، أصبح الدكان به بضائع من السكروالحلاوة والشاي والمعسل وحتى الأرز، جلست أمه تدير الدكان كما أفهمها، وانطلق (زاجر) خلف الماعز والخروفين يرعاه وهي تبحث عن طعامها على جسور الترع والمصرف وحواشي المروة والسكك.

لم يكن ماجر يعرف كل أهل القرية رغم صغرها لكرههم لأبيه وأمه أو لاستنكارهم أن يعيشوا بينهم، فكانوا معزولون على جسر ترعة الباجورية في دار متهالكة جدرانها ضعيفة وإن اشتدت الرياح والأمطار أصبحوا في العراء، يتكومون على أنفسهم لتدفئة الأرواح، ما تلبث فئران الجسور والتي ولدت حديثًا وكبرت أدراصها وهي ترعى في غابات الحلفا والبوص أن تأتي سريعًا للاحتماء تحت أنقاضهم، بالقرب منهم، تنظر إليهم في استعطاف، تتشمم الإحساس بالعطف ولو لدقائق حتى تهدأ الأمطار الجارفة، فلا تجد إلا نظرات صغيرة باكية بألا تخافي وابقي هنا فنحن أيضًا مطرودون.

- أما اليوم فهم يتضامنون مع ما حدث لأمي، أكان لزامًا أن يموت أبي وتتبعه جدتي ومن ثم أقهر أنا وأنفى كي تتعاطفون مع امرأة مثلكم، كان لزامًا عليها أن تتجرع الصبر والمرارة في كل وجباتها حتى تنكسر عنجهية القسوة التي تغلفون بها عقولكم، أحزن عليكم أم أغضب؟ أكرهكم أم أحبكم؟ قساة قلب أنتم أم رقائقه! ؟

يجلس على سطح الدار ناظرًا إلى كل الأراضي التي تمتد حتى تتلاقى مع خط الأفق ولا تنتهي تتشكل في ألوانها بأنواع الزراعات وتقسم ألوانها خطوط من الأشجار المختلفة في الطول والشكل واللون توت وكافور وصفصاف وجميز وسنط وأحيانًا كتل من البوص البلدي واجمات الموز على حواف بعض الترعة أو المصارف، يدور برأسه في كل الاتجاهات ويشم بكل عمق كل النسمات التي تتكسر على وجهه، فقط اتجاه القرية ما قدمت منها نسمات متلونة بروائح مختلفة وكثيرة ومختلطة، أفاقته من جلسته التي امتدت ساعات وهو على

السطح، ظل أيام يدور في القرية ويحفظ أوجهه الناس وحجم الشوارع وطولها حتى أنه عد طول القرية وعرض بالخطوات وعرف كم تبلغ مساحاتها بالفدان والمتروعرف اتجاها على الشمال المغناطيسي وحدد الأربعة اتجاهات بدقة، كان هاويا لكل العلوم متطلعًا لكل الدنيا، كان مراهق في بداية مراهقته عند البزوغ، واقتلع من مكان إنباته إلى مكان آخرتعلم فيه الفنون القتالية والعسكرية تزامنًا مع قيام الحرب عالمية، لم تبخل إدارة الجيش على أي جندي في صفوف قواتها بكل المعلومات والتدريب وهو كان شغوف بامتصاص كل معلومة وكل حركة رسخت في عقله وعظامه وكل كيانه، حفظ الشعر عندما سمعه من ضابطه المباشر (محمود عرفان) وحاول استيعاب كل المعنى للأبيات التي سمعها من صديقه (عبد الهادي الأسواني)، سأله عن معناه قال:

- هي غزل.

- في من يكون الغزل؟

- في من خلق.

- ربنا

- الله رب العالمين.

في ليالي طويلة أقمارها باهتة وبعيدة تنتشر الظلمة وتحاوط النفس قبل الجسد، وبعض دفعات الرياح الغاضبة ليلًا تقدم وتحجم في دقائق وتتغير درجة حرارتها أكثر من مرة فتكره حتى اليوم الذي فيه رأيت بعينك الدنيا. - ما هذا الحال؟ ما هذا الإحساس؟ أأخاف أم أبرد؟ أأقف أم أبقى مكومًا متدثرًا بملابسي وسلاحي؟

في مثل هذا الليالي يتعرى الإنسان أمام روحه ونفسه وربما أيضًا تتعرى الروح أمام باقي الأرواح ولكن دون أن تراها غيرها، في مثل هذه الليالي تشعر أنك ملك، تملك وتتحكم وتسيطر، وتشعر أيضًا أنك. . لا شيء، وربما كنت لا شيء وأنت لا تعلم، تشعربأن كل الأراضي قريبة ويمكن زيارتها فتحلم بأن تطوف كل البحاروالأراضي، وفجأة تجد حاجز غريب لا تعرف من بناه! أو من أين أتى؟ ولكنه رسخ على القلب وارتفع حتى العينين فلا ترى إلا مصيرك ودنياك الصغيرة المتقوقعة.

- من أين أتت تلك القواقع في عمق الصحراء؟ تلك الكائنات تسير ببطء شديد حتى أن عين الإنسان ربما لا تلاحظ حركتها، إذا من أين أتت و كيف؟

لم يجد أحدًا يجيبه حتى ضابطه المثقف لم يستطع وإنما كان أقرب تفسير كما سمع هو أن تلك الأراضي في زمن سحيق كانت هي قعر البحر والمحيط ثم حدث أن انحسر البحر وتبدلت الأراضي وظهرت الجبال وظهر خلفها الإنسان يمسك بعظمة من فخذ إنسان يضرب بها ويصطاد.

شهرين قد مرا وهو قد ربحت تجارته وتفتحت وجنتي أمه وأخته، صار صاحب لكثير من شباب القرية، يجلسون أمام دكانه وهو يوفر المليم والقرش ويدفنهم في ثغر حفره في أحد جدران داره، ينوي شراء الدار وأخذ الثأر في وضح النهار، هل عليه الفجر بنوره الباعث للحياة عندما وجد الأسواني بوجنتيه الضخام يقف أمامه وفاه مفتوح بابتسامة شكلت كل الوجه، فز من جلسته و تقافز، احتضنه وضمته أذرع عبد الهادي الأسواني بقوتها فأحس بأنس من قوة الظهر و الايخاء.

سكن معه في داره في المندرة العلوية وأصبح أخ لم تلده الأم وإنما الأيام والليالي، سأل عن أحواله فأخبره أن التجارة رابحة وأخيه يرعى عدة أغنام في قطيع صغير سرعان ما سيكبر لا ميلادًا وإنما كان كلما استطاع اشترى جدي أو حمل استغنى عنه صاحبه.

لم يعرف عبد الهادي في دنياه سوى الشباك ومركب صغير يصطاد به الأسماك ومن بعدها السلاح والمدفع وأوامر القادة والموت جالس كل يوم في انتظاره، ذهبا لسوق المركز واشتريا خيوط وغزلوها سويا فأصبحت مصايد صغيرة اسطوانية الشكل تزرع على الجسور فيما بين العشب وتجمعاته فتصطاد كل يومين ما يقرب من سبع سمكات أو أكثر، بيعت الأسماك في أسواق مركز تلا جوار البيض والسمن وزغاليل الحمام وبعض ذكور الإوز والرومي.

مر شهرين آخرين وتفتحت آذانهم على نداء جوهر المنادي بعمارة أيام الاحتفال بمولد سيدي حسن الوفائي، دفعوا هبة مثل كل البيوت واستعدوا للاحتفال بتلك الذكرى يافعين فرحين مقبلين على الحياة.

كان الاحتفال بذكرى مولد سيدي حسن الوفائي تمتد لسبعة أيام وتختتم يوم الجمعة في مشهد مهيب يحضره كل رجال وأطفال وشباب القرية والنساء تتجمعن على أسطح البيوت التي تمر من أمامها خليفة الشيخ حسن الوفائي،

قالوا أن ميلاده كان في اليوم العاشر من ربيع الأخر وفي كل عام يقام الاحتفال بداية من اليوم العاشر من ربيع الأخر وحتى اليوم السادس عشر، يفتح المقام الملاصق للجامع المسمى على اسمه ومدفون هو تحت المقام ذو القبة الخضراء، تعلق الفوانيس الزجاجية بألوان خضراء وحمراء وتعلق رايات بيضاء وخضراء وأفرع من الحبال معلق عليها قطع مثلثة الشكل من القماش بلون أبيض وأخضر مدون عليها بالخط الفارسي بعض آيات من القرآن، أمام المقام فضاء متسع ثم سكة زراعية ضيقة على رؤوس الغيطان في هذا الفضاء وبعد صلاة المغرب تفرش مفارش من الخيش والحصير والكلائم الصوفية تفرش على أرائك خشبية كبيرة صنعت من أخشاب الجميز والتوت يجلس عليها الشيوخ وأصحاب المال والكبار وتنتشر حلقات من الناس في جلوسهم وفيما بينهم توضع صواني من الصاج صنعت بها فطائر كبيرة وبعض الآنية النحاسية بها فول نابت وأخرى بها بعض الثريد وأكواب معدنية بيضاء اللون من الصاج تمتلئ بالشاي المغلي والحلبة ومخلوط القرفة بالزنجبيل وباعة يقفون حول عرباتهم الخشبية يبيعون صنوف من الحلويات الشرقية والغربية، وتنتشر على جانبي الشارع بداية من المقام وحتى منتصف القرية في المتسع الكبير الذي زرع في وسطه عمود خشبي ضخم هو في الأساس شجرة كافور معتدلة الانتصاب، يدهن العمود كاملًا قرب قدوم الاحتفال بالجير الأخضر وتعلق من رأسه سبعة أحبال بها رايات خضراء كل حبل يتجه في اتجاه مختلف لتشكل سباعية الحبال دائرة كاملة مركزه العامود ومحيطها كل المتسع، وترتكن على الجانبين ارجوحات حديدية وأكشاك صندوق الدنيا والأراجوز والسيرك الصغير، من اليوم الأول وحتى الثالث تجود البيوت بما فيها من خير لكل المتصوفين وعابري السبيل القادمين لحضور الاحتفال ويتجمع الناس أمام المقام في صفوف متوازية ومن أمامهم الشيخ إبراهيم والشيخ حمودة يرددون بصوت عذب كلمات الإمام البوصيري في بردته ويمدحون النبي محمد(ص).

محمد[3] سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجمِ
نبينا الآمرُ الناهي فلا أحدٌ أبر في قولِ لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مقتحم

3- الإمام البوصيري.. البردة

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبلٍ غير منفصم
فاق النبيين في خلقٍ وفي خُلُقٍ ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرفًا من البحر أو رشفًا من الديمِ
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبًا بارئُ النسم
منزهٌ عن شريكٍ في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حدٌّ فيعرب عنه ناطقٌ بفم

تتلخص كل الدنيا في أيام الاحتفال بمولد سيدي حسن الوفائي في قرية ميت أبو الكوم، يجود العمدة بإشراك خيله، فرس في كل ليلة تؤدي رقصتها بعد أن تكسى بسرج فخم يتدلى منه خيوط ذهبية، وهكذا يفعل كل أعيان القرى المجاورة كنوع من المشاركة والتبرك وطلب المدد والحفظ لخيله وبهائمه، من اليوم الرابع وحتى السادس تكون الليالي كاملة بداية من بعد صلاة العصر يفتح المقام للسيدات القادمات طلبات للمدد، من تريد أن تنجب، من قطع عنها الطمث، من ماتت جاموستها، من ولد ابنه مريضًا واصفر اللون، من يزرع القطن لتزويج بناته، تدور حول مقام خشبي مربع الشكل وفي كل ركن من أركانه عمود خشبي من رأسه يرتفع شكل هرمي توضع أسفله مناديل قطنية متوسطة الحجم بألوان ستة ومعطرة بالمسك والكافور وزهرة البرتقال، تدور من لها رجاء حول المقام وتمرر يدها على حوافه ومناديله، تدعو في سرها، تمرر يديها على المناديل وتضعها على رأس صغيرها، ترفع القبة الخشبية أعلى العمود وتمسك بالمنديل وتمسح به رأس الصغير تدعو في طيات المنديل وتعيده إلى مكانه بعد أن تهندمه كما كان، تسقط في صندوق النذور هبة بما تستطيع أن تجود مليم أو اثنين وتقرأ الفاتحة في يديها في سر وكتمان وتمسح بها صدرها ورأس صغيرها، وتخرج لإعداد ما تستطيع أن تجود به من طعام، الصغار يلهون ويتمتعون بمشاهدة صندوق الدنيا وحكاوي شاعر الربابة الصعيدي الذي يجلس دائمًا على درجات السلم الصاعد إلى المرتفع المبني بجوار جدار الجامع وملاصق للمقام ممسكًا برباته ويتغنى بحكاوي من تراث الريف.

تنصب حلقات التحطيب في رابع ليلة ويتبارز الفتية والشباب من كل القرى المجاورة بحثًا عن منصب ملك المولد لهذا العام، مباريات ومبارزات تقام ويحكمها شيخ الحلقة وكبير المحطبين، يحصل الفائز على نبوت ضخم ومدهون ومعممة رأسه الغليظة بإطار من خيوط وتتدلى منه أربعة نجمات نحاسية.

أبيات لمدح النبي وصفوف الشباب تتراص وتتطوح يمينًا ويسارًا وحبات العرق تتناثر وتراقص الجلابيب بألوانها المختلفة

مولاي[4] صلي وسلم دائمًا أبدًا على حبيك خير الخلق كلهم
فإن أمارتي بالسوءِ ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسي غير محتشم
لو كنت أعلم أني ما أوقره كتمت سرًا بدا لي منه بالكتمِ
من لي برّجماحٍ من غوايتها كما يردُّ جماح الخيلِ باللُّجُم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النَّهم
والنفس كالطفل إن تهملهُ شبَّ على حب الرضاعِ وإن تفطمهُ ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

تمتلئ السكك الفرعية بجوار الترع الرابطة بين قرية ميت أبو الكوم وكفرها و زرقان وكفرها وحتى قرية طوخ دلكا تمتلئ بالرجال والشباب قادمين لحضور الاحتفال كل منهم يرتدي أفخم جلابيبه وأخر طاقية قد غزلت له يهذب شاربه الصغير ويضع في جيبه بضع مليمات لإنفاقها على فقرات الاحتفال أو رهان في مبارزة بالعصي ومن لم يكن قد اقتنى مطواة فيشتري لنفسه واحدة من بائعها الذي يعرضها على منضدة صغيرة من جريد النخل وجواره مسن من حجر صوان لشحذها، يتراص الشباب حوله يحاولون قصف الهدف المعلق على جدار خلفه بمطاويهم الجديدة، تسقط أو ترتد فيضحكون، فيقف ممسكًا بخنجر سلاحه طويل صنع بالكامل من الحديد وليس له مقبض خشبي فيقذفه بسرعة خاطفة فيثبت فوق الهدف بدقة وإحكام، فيمط رقبته النحيفة في فخر ثم يسير في تؤده وخيلاء ليخلعه ويضعه في جيب الصديري مناديا على بضائعه.

كثيرًا ما كانت تنشأ الصراعات والمعارك بين الشباب المندفعين في فورة القوة

4- الإمام البوصيري.. البردة

والتجلد بمرونة الصغر وانفجار الدماء في الشرايين باحثين عن إثبات النفس، ينتشر الخفراء بين المرتادين حاملين بنادقهم وتطل بجوار طرابيشهم الكبيرة فوهات البنادق أعلى أكتافهم ويحملون في أيديهم خرزانات من المامبو يفرقون بها الجموع إذا ما غليت الدماء في عروق الشباب ولاحت أمامهم شرارة لعركة مقبلة، وضابط من مركز شرطة تلا يجلس مرتديًا زيه العسكري وحوله العمدة وكبار القرية وخلفه يقف اثنين من العساكر بملابسهم الرسمية ينظرون في كل اتجاه إذا ما قدم أحدهم.

في الاحتفال بمولد سيدي محمود العراقي بقرية زرقان كان (حميدة الفار) هو ملك التحطيب بعد أن فاز على سبعة من الشباب في ثلاث ليالي متتالية، شاب طويل أبيض اللون يشوبه حمرة خفيفة يرتدي دائمًا جلابيب مخططة بأقلام رفيعة وتزين حوافها بشرائط حريرية رفيعة ومن تحتها صديري أبيض صدره من الحرير المخطط بأقلام فضية عريضة، له شارب صغير ودائمًا ما كان يجرد لحيته فيظهر الشارب أسمر ليقسم وجهه، ذراعاه طويلتان وله ركبتان كبيرتان تبرزان كلما مشى، ورث عن أبيه فدانين ودار كبيرة، يزرعهم بنفسه ويكتفي.

وقف على رأس حلقة التحطيب في اليوم الخامس قبيل أن يقف المنشد وتستعد فرقته من خلفه، يرفع أطراف أكمام جلبابه البني حتى كتفيه وممسكًا بالنبوت الذي كان جائزته في العام الماضي في قريته، ويقف مزهوا بكل فخر ممسكًا بالنبوت طرفه الرفيع على الأرض ورأسه الغليظة تحت راحة يده كمن يغرس أو يتكأ عليه، لم يهلل له أحد، ولم تتكوم حوله إلا مجموعة من شباب طوخ دلكا لا يعرفون ما فعل وإنما يرونه فارس و محطب ذو شأن، تخطى الثلاثون بخمس سنوات ويظهر كإبن العشرين عندما تراه، لامس عازف الكمانجة أطراف العازف بالأوتار فأصدرت نغمات متقطعة، فجرب عدة تقسيمات، فانتبه الجميع أن المنشد يستعد لتدويخ عقولهم بعذوبة الحكي والإنشاد بفضائل أناس قد مرت عليهم أزمان سابقة.

يجلس ماجرو عبد الهادي فوق السطح والأضواء تبرز أعلى القرية في ناظريهم كحلقة دائرية يخرج منها أضواء في أشعة تنطلق إلى السماء، وصوت المنشد يصل للآذان عذبًا ممتعًا يختلط مع نسمات خفيفة صيفية تقودها الأشجار نحوهم فيصبح الشدو كباعث على الروعة والإذعان والتفكر.

يـا راحِلًا، وجَميلُ الصَّبرِ يَتبَـعُهُ ... هلْ مـــنْ سبـــيلٍ إلى لقياكَ يتَّفقُ
ما أنصفتـكَ جفوني وهيَ دامية ... ولا وفي لـــكَ قَلـبي وهـــوَ يَـــحتَرقُ
روحي للقاكَ يـا مناها اشتاقتْ ... والأرضُ عـــليّ، كاحتِيـالي، ضاقَتْ
والنَّفسُ لقدْ ذابتْ غرامًا وجوى ... في جَنبِ رِضاكَ، في الهَوَى، ما لاقتْ
أهـــوى قمرًا لـــهُ المعانـــي رقُّ ... مـــنْ صبـــحِ جبينهِ أضاءَ الشَّرقُ
تـدري، بـــاللهِ، ما يَقولُ البَرْقُ: ... مـــا بيـــنَ ثنايـــاهُ وبيـــنَ فـرقُ

- الله على الكلمات، اسمع يا ماجر
- لمن تلك الكلمات؟
- ابن الفارض يا صاحبي، وهذا المنشد صوته رائع وكأنه قادم من السماء.

لم يرد عبد الهادي أن يترك تلك اللحظة من فرط الجمال، والنزول للقرية، تحت إلحاح صوت ماجر، نزلًا وتوجها للقرية، كانت الروح والرائحة والأصوات جميعها قطعة من جنان لم ترى إلا في أحلام المتنسم أو خيالات المتمني، تلك القرية البسيطة التي تتناثر البيوت في شوارعها وتشتد حرارة الشمس في أيام فيختفي كل كائن حي منها هاربًا إلى البيوت أو جسور الترع تحت ظلال الجميز يلعبون السيجا ويتبارون ويسخرون من بعضهم تلك القرية ليست هي القرية في وضح النهار، ذلك البهاء ليس بهاء أهلها بقسوة قلوبهم وصمتهم وجبنهم، لابد أن هناك روح ترفرف بأجنحتها الكبيرة لتضم كل القرية.

درجات هي الناس حين خلقت وزادوا على الدرجات درجات من عندهم، أمام المقام يقف المنشد يشدو ويتغنى ويتمايل بحنو بأبيات الفارض ومن خلفه نغمات للكمنجة والربابة وناي ومزمار وبعض الطبول الصغيرة تتداخل النغمات في الأحرف فتصدر أصوات تلامس قشور الروح فتهتز الأبدان في رحلة قصيرة بعيدًا عن كل الهموم، تجلس أمامه الجموع متراصين عندما تنظر لا ترى إلا طواقي وجلابيب جلست على الأرض وصمتت تمامًا وبعض تلك الطواقي تتمايل بما يناسب الأصوات الواصلة إلى الآذان ومن خلفهم مفارش من الحصير يجلس عليها بعض الناس في حلقات صغيرة ومن بعدهم أرائك كبيرة على شكل مربع ينقصها الضلع المواجه للمنشد في الوسط يجلس الشيخ الصادق والعمدة وباقي الكبار وأصحاب الأطيان وفي وسطهم يجلس ضابط البوليس وعلى جانبي جلستهم يتراص شبابهم وأبنائهم وبعض المحظوظين من الذين تعلموا وارتادوا

المدارس والأزهر.

- يا الله حتى حين يذكر اسمك واسم نبيك يخشعون بنفس الترتيب في دنياهم، الغني قبل الفقير، والقوي يسبق الضعيف، والشاب تبرز رأسه إلى أعلى رؤوس العجائزوالتي انحنت من قسوة الأرض والشموس المتعاقبة.

وعلى مقربة من الجمع وعند التقاء زاوية جدار الجامع بالشارع الرئيسي المؤدي للمتسع الكبير تنصب حلقة التحطيب ويجلس المحطبون متجمعين ناظرين للمنشد ومستمتعين وكل منهم إما ممسك بعصاه أوواضعًا نبوته أمامه كبطاقة تعريف لنفسه أمام الجميع.

obeikandl.com

obeikandl.com

- الفَجْرُ

وقف ماجر ومعه عبد الهادي بالقرب من حلقة التحطيب ينظرون بتدقيق نحو المنشد والجموع وترتفع النظرات إلى أسطح البيوت المطلة على الجامع والمنشد والمقام فيجدوا النساء قد جلسن في تجمعات ومعهن بناتهن الصغار ينظرن للجميع وتتركز أبصارهن على المنشد، لم يقررا إذا ما كان عليهم أن يتخطوا الجميع ويذهبا للجلوس أمام المنشد وسط الجموع، رفض عبد الهادي وفضل أن يستمعا للمنشد فالصوت عن بعد أكثر روعة ودخول إلى القلب.

عدة دقائق وانتشرت موجة من التحرك أمامهم وخبطت العصي في بعضها وصدرت أصوات الأفواه تسب بعضها وتتلاقى وتتداخل، وقفت الجلابيب وفي يديها العصي والنبابيت وفتحت حلقة في برهة من الزمن ودار شاب طويل في الحلقة بهدوء وخطوات ثابتة وهو يلوح بنبوته الكبير وعلى وجهه ابتسامة ساخرة وماكرة وأمامه كان شاب أسمر اللون لحيته طويلة وغير مشذبه واللحم يكاد يخترق جلبابه من الفتحة العلوية على صدره فلم يكن يرتدي صديري فقط الجلباب ويجسد حجم جسده الضخم، تلاقت العصي وأصدرت أصوات حادة توحي بالتحدي وليس اللعب والمبارزة، تكررت، صدرت شتائم وكلمات من كليهما، صفق بعض الشباب وصاحوا على حميدة، لفت الاسم انتباه ماجر، فهم من الصياح إلى أيهم توجه، عرفه وانتظر، بعد دقائق من التناطح لم يستطع أحدهم أن يجرد الأخر من نبوته أو يطيح به بعيدًا، تركوها وتقابلًا كل يضع كفه في كف الأخر بالمقابلة على أن تتداخل الأصابع وتكون الأذرع مرفوعة في الهواء أعلى الرأس، دقائق من الانتظار، الكل يرقب الحدث، بعض الشباب ترك المنشد وقدموا يتفرجون، البعض صاح، البعض هلل، وقفت مجموعة من الشباب خلف صديقهم من قرية طوخ دلكا إنه الضخم الأسمر تملي يعمل لدي أحد أعيان القرية استقدمه من قنا واستقر في بيته وعمل لديه.

وقفت مجموعة أخرى خلف ابن قريتهم حميدة، يهللون ويرسلون السباب

للآخرين ويصيحون في حميدة بأن يؤكله التراب والوسخ، داروا في الهواء وترنحوا أحيانًا وفي لحظة خاطفة استطاع الشاب الصعيدي أن ينزل حميدة على ركبتيه فقد أداركفيه للخلف فإن لم يذعن للنزول على ركبتيه فسيكسرهما.

فَكّ أصابعه من أصابع حميدة ووقف يهلل له أصدقاءه، أمسك حميدة بنبوته وحاول أن يضربه على رأسه فمنعه أحدهم وأمسك به من جذعه بقوة حاول التملص منه لم يستطع وتكومت الشباب على بعضها تتلاطم الكفوف وتتداخل الأرجل ورفعت العصي وتكسرت بعضها.

جاءوا الخفراء بالخرزانات يفرقون الجموع وضربوا بلا هوادة فمن تصل إلى ظهره ضربة خرزانة فتكون كسياط الجلاد فيتلوى تحت لسعتها وينزوي على جانب، وقف على رأسهم ضابط البوليس والعمدة، سألوا عن السبب وعرفوا، صمم الضابط على أن يحبسهم ويحرر محضر بأنهم مشاغبين، تدخل شيخ البلد القادم من زرقان ليحمي ابن قريته حميدة الفار متعهدًا بما يأمر به الضابط، وهكذا نظر عمدة طوخ دلكا للصعيدي الضخم والذي اعتذر وطلب الصفح.

سأل عن أسماءهم ومن أية بلد هم، نطق حميدة بصوت المنتصر:

- حميد الفار يا بيه

جمدت أنظار ماجر عليه وتفرس كل جزء من جسده، لاحظ عبد الهادي وسأله عن تلك النظرة، لم يجبه وإنما أشار بيده له أن اصمت.

عادت جلسة الأعيان كما كانت وأشار العمدة للمنشد أن أكمل..

نظر إلى الخلف وطلب ممن خلفه شيئًا ثم أنشد

يا بني آدم خد بالك دا الشيطان رفيق[5]
يقولك باصاحبك وهو بالشر مشير
جواك يا مؤمن الأصل خير وهو دايمًا دخيل
يحسد عليك النعمة وعايزك من الكره تشيل
لو في يوم غضبت اعرف إن بابه أصبح يسير
يدخل ويقعد ما يطلع إلا إذا كان الدم يسيل

ألقاها المنشد في نغم سريع ومتواصل، فطرب السامعون وهللوا له وصفقوا،

5- كلمات المؤلف

فعادت الآلات الموسيقية من خلفه تشدوا بنغمات هادئة لاستكمال كلمات بن الفارض شيخ المتصوفين.

تحركت قدما ماجر وصديقه في خطوات ثابتة وهادئة تبتعد عن خضم التجمع ويبتعد الصوت شيئًا فشيئًا، حتى أصبحا يسيران على جسر ترعة الباجورية يجاورهم على اليسار الأشجار المغروسة على أعلى الجسر وبمحاذاة الطريق ومن خلفها وما بين أغصانها تظهر صفحة المياه وتختفي وتنعكس عليها أضواء نجمات بعيدة في صفحة السماء، وعلى اليمين مسافات كبيرة من الغيطان تتراص جوار بعضها، وطيور كبيرة وعصافير تطير وتقترب من صفحة المياه لتغوص أقدامها وترتفع أحيانًا خالية وفي أخرى بين مخالبها اسماك، نعيق للغربان ظهر كبيرًا ثم ظل يضعف حتى اختفى ونقيق الضفادع على الجانبين كلما اقتربا زاد النعيق فجأة ثم يصمت بنفس السرعة ما يلبث بعد خطوات أن يظهر بشكل متزامن وكأنهم يخاطبون بعضهم أن هناك من يسير على الطريق.

- فيك إيه يا ماجر، إيه اللي حصل فجأة وقلبك كده!
- هو يا عبد الهادي
- مين؟
- الكلب
- أنا مش فاهم حاجة يا ماجر
- أنت اديتني سلاحك ليه
- عشان تارك في اللي قتل ابوك
- طيب وإذا عرفت إني كنت فاهم غلط والسبب في موته أمر من العمدة وضرب من حيوان اسمه البغل
- يبقى الطارواجب ما دمت تأكدت أنه قتله ظلم وتجبروافترا.
- ما هي دي المشكلة! الشيخ إبراهيم بيأكدلي إنه مات قضاء وقدر مكانوش قصدهم يموتوه.
- وأنت مصدق؟
- مصدق اه ومش دي المشكلة، الشيخ صادق فهمني هو ليه ربطه في التوتة.
- وفهمت إيه؟
- فهمت إن أبويا كان فقير، غلبان، جعان، كان بيمد ايده عشان يأكلنا، فهمت
- فهمت يا صاحبي، ودا اللي شاغلك وقالب وشك؟

- لا يا عبد الهادي، في الوقت اللي كنت أني وأنت فيه لابسين الميري وماسكين سلاحنا وبندافع عن تراب البلد دي، كانوا هما بينهشوا من لحمي في كل يوم حته.

- هما مين؟

- اتنين، اتنين يا عبد الهادي لازم يدفعوا دمهم تمن اللي عملوه في الست اللي أول ما شوفتها انت قولت عليها ملكة فعلا.

- عايز تقول! !

- أقول إيه بس يا صاحبي، أني حاسس أني عريان وخايف أقولك أتعرى أكتر!

- قول يا صاحبي، قول ومتخافش، أنت فديتني وحميتني وأني هاعيش طول عمري اسير لجدعنتك ورجولتك، قول واللي هتقوله هاشيله في صدري معاك.

- كانوا بيغتصبوها يا عبد الهادي، كانوا بيحطوا المطاوي على رقبتها والكرابيج في ايديهم عشان ياخدوا من روحها حتة يا عبد الهادي، ااه ياما، ااه

- اهدى يا صاحبي وماتبكيش اوعاك تبكي، اوعاك أشوف دموعك دي، خليها، حافظ عليها عشان تكون النار اللي تكوي جلودهم وتسحب الروح من عنيهم، اوعاك تبكي وأنا جنبك دراعي بدراعك وقلبي على قلبك.

- عايز أبكي وخايف الدمع يخلع عنيا، مشوفش، مشوفش عيونهم وأني باخد روحهم.

- اوعاك يا صاحبي وإن كنت عايز تبكي، تعالى في حضني وفي دراعاتي وكب شوية، الهم بيقتل القلب ويسود الروح يا صاحبي.

- كان أهون عليا اطلع الخنجر وادبه في رقبته واشيل راسه على ايدي واقول للناس كلها، غسلت شرفي

- وتسيبهم يدوقوا الفقروالضعف من تاني، اوعاك تفكر إن الناس هتنصفك، الناس يا صاحبي بيحبوا المغني وكل اللي في بالهم، حكاية يسمعوها ويهزوا رووسهم.

أشار عليه صديقه بأن يتروى لحين التدبير، فيذاب الهم من النفس ولا يفقد الجسد، فان قتل حميدة أمام الناس فمن الأغلب سيعدم ويصبح حكاية تروى، وما الطائل من أن تحكى حكايته وتفضح أمه وهي وإخوته يتضورون جوعًا ويطلبون لقيمات تسد الجوع فلا تقضى لهم وإن كانت ستكون سم يهري الأبدان ويقوضها.

مرت الساعات ثقيلة ممدًا على السطح وبجواره صديقه مطلقًا ناظريه إلى السماء السوداء يتتبع نجومها حتى أطل النهار بقسوة شمسه وهواءه الحاد، ثم رحل في هدوء وانتشرت الظلمة على القرية تشقها الأنوار وأصوات المحتفلين في الشارع الرئيس والوحيد والمنشد يتغنى والجموع تهلل طربًا وتستمع في ورع كمن فهم دروسه وتيقنها، كانت الوصلة الأولى من بعد العشاء يحكي لهم ويتغنى بقصة الغزالة والذئب

في سالف الزمان يا سادة يا كرام[6]
كانت الأرض غابات وأشجار
ولدت غزالة في حضن جبل
ابن جميل وألوانه زاهية وكان دكر
يقبض ويرضع اللبن ما تكفي ضروعها
ويبكي الصغير ويتلوى وما يقدر يصلب خراسعه
بكت على بكاه ولحست فمه الطري
قالت: يا ولدي ابقى في ضل الصخرة
وأنا على المولى هاتكل
جريت هنا وهناك وما وجدت
قالت: أريح البدن و يا رب مدد
شافته من بعيد بيقرب وفي سنانه وتد
قالت: يا واكل اللحم لمين الوتد
قال: جاي أساعدك وأطعم الولد
قالت: الولد لساه صغير وما في ضرعي مدد
قال: الوتد نوسد بيه قبل ما يقع ويفترسه الضبع اللي كفر
قالت: ما اعرف أوسد الولد
قال: من أجله جيت عشان أكون المدد
قالت: ومن نيابك كيف أحميه؟
قال: شبعت وزهدت الدنيا وولادي قوتهم سمك
ورا البحيرة طعامك ولو رحلتي هيموت الولد

6- كلمات المؤلف

obeikandl.com

قالت: شوفته بعيني وحواليه كانوا ولادك
قال: نوسد ونرجع اصحبك لقوته وما تخافي إلا من سقطة الجبل
رجعت معاه تسوقه لفين تاركة الولد
ما أن شافه إلا ونهش اللحم وما تركه إلا ونزف
جره أمامها واتكاتروا عليه ولاده وفضلوا ينتظروا الحبل.
قالت: ما كنت يا ولدي اجري من رؤياهم وأنت في حشاي صاير واليوم انتظروا لما كست عظامك لحم وافترسوا فمك وهو لساه باللبن ينقط ما شبع.

سرح ماجر لاهيا وهو يسمع والناس من حوله يهللون والابتسامات ترتسم على الوجوه، ظل ناظرًا لحميدة أينما راح، حفظ شكله ورأي كيف يمسك نبوته، سريع الحركات، فتي بطوله وشبابه.
- لكني وإن طالت يدي رقبتك لأخلعها من جسدك النجس كما تخلع الأبصال وتقتنص، وستكون مثلها لن تستطع أن تصرخ أو تبكي أو تندم حتى على فعلتك.
يجلس المنشد (محمد الطوسي) ليستريح بعد الوصلة الأولى وأصبح الاحتفال مكتظ بالأرجل وانتشر الخفراء، وتجمع كل الباعة بعرباتهم أمام المنشد في المتسع الكبير حول عمود سيدي حسن الوفائي، أقيمت المبارزات النهائية للتحطيب واتسعت الحلقة والجميع ينظرون كعادة كل سنة على من سيكون ملك التحطيب لهذه السنة، وقف حميدة ملوحًا بنبوته وكسب كل من بارزوه ويقف أمامه حسين القوصي شاب لم يبلغ العشرين من العمر، فلاح قوي يداه كبيرتان وأعينه أيضًا، تبارزا، خبطت العصي بقوه وارتفعت حدة الصيحات بالتشجيع، القوصي ابن ميت أبو الكوم أمام الفار ابن زرقان، طالت المبارزة وقلت حدة الضربات وأصبح الحذر من كليهما سيد الموقف، أمسك كل منهم عصاه من طرفيها بيديه الاثنتين ووضعتا العصاتين في مقابل بعضهما والأقوى من سيستطيع أن يدفع الأخر ليتراجع خطوات أو يسقط على الأرض، ظلوا دقائق كل منهم يشد أعصابه ويستجمع قواه ويدفع الأرض برجليه وكأنما ثورين قد هاجا وتناطحا، نعر حميدة الفار بقوة وبصعوبة ودفع القوصي الذي ارتفع قليلًا عن الأرض وارتد للخلف خطوتين فمال ظهره على الجموع، ثم اعتدل ليكمل المبارزة قبل أن يهجم عليه حميدة، عدة حركات من كليهما ودارا خلف بعضهم والعصي تلوح في الهواء، أحس القوصي بلسعة خفيفة في جانبه الأيسر، أحس

ببرودة ودفء في آن واحد، خانته قدمه فانهدل جذعه قليلًا، أمسك عصاه بيده اليسرى ووضع يده على موضع الألم، فكانت مبتلة بدماء، رمى عصاه وأمسك جنبه متأوه، واتكأ على ركبته التف حوله أصدقاءه ومزقوا جلبابه فوجدوا قميصه مبتل في بقعة كبيرة بدماء مزقوه فوجدوا جرحا غائرًا والدماء أصبح لونها أكثر عمقًا وكثافة، صرخوا، حضر مصطفى الملاح شيخ الخفر ونظر للجرح، هذا جرح مطواة أو سكين، ونظرا في الجموع، كان عبد الصمد التاجي يقف وسط الجموع وبجواره ماجر، انصرف بهدوء، رآه ماجر وهو يدفع بمطواته جنب حسين القوصي وتعجب، قال ربما يدفعه أو أنه صديقه ويشجعه، نظر جواره لم يجده، تذكر وجهه هو نفس الرجل الأعرج الذي كان ينعل حوافر الحمير ويبيع السلاسل عند محطة قطار تلا، أخبر صديقه بما رآه.

قام المنشد يكمل الوصلة الثانية من الإنشاد، واهتزت الرؤوس أمامه، توج حميدة الفار ملك التحطيب وحصل على النبوت الثاني ورافقه صديقيه وانطلقا إلى قريتهم.

انطلق ماجر في أثرهم، فكر وهو وعبد الهادي أن يقطعا الطريق عليهم من محدة النحاتين وأمام تابوت التاجي، الظلام حالك، وصوت المنشد يبعد ويصغر كلما خطوا نحو قريتهم بجوار ترعة الزرقانية، يحمل نبوته الجديد في يده ويحمل أحد أصدقاءه النبوت القديم ويسيرون بزهو ويتحدثون عن ما حدث وما أصاب حسين القوصي، وما أن مروا بجميزة النحاتين واقتربوا من تابوت التاجي إلا وأسرعوا الخطى كلهم دون أن ينطق أحدهم، هذا التابوت يظهر منه برميلين فقط فوق سطح الأرض، وعلى حافة المدار التوتتين الكبيرة والصغيرة وتفترش أغصانهما كل المدار وما يجاوره فيصبح التابوت كمقبرة مرعبة تسوده الظلمة الكئيبة والسواد المستمر فلا يظهر من خلفه سوى ضوء صغير من ضي السماء يظهر السكة الصغيرة الموصلة لأراضي قرية طوخ دلكا وقد التف الظلام على جانبيها وتخلل عيدان الذرة وأصبحت هي الأخرى كحية كبيرة من يمشي فيها يشعر أن لا نهاية لها.

وما أن عبروا التابوت وأصبحوا أمام حظيرة النحاتين إلا ووجدا ماجر وعبد الهادي يقفون أمامهم، فثبتوا من فورهم وأخذهم الرعب مفترسًا فلم ينطق أحدهم أو يستطيع فقط مرت ثواني قليلة كانت قاتلة أخرج ماجر الخنجر الكبير من جيبه وقال بصوت ثابت:

- فين حميدة؟

لم ينطق أحد وإنما رجع للخلف كلا صديقيه دون تفكير، تقدم ماجر بخطوات ثابتة نحوه، فرفع حميدة النبوت ويداه مهتزة، حاول ضربه فقز ماجر ناحية اليسار ثم انقض عليه فوقعا على الأرض ضربه ماجر بركبته في بطنه فتأوه كحمل يقتطع ذئب رقبته، ووضع الخنجر الكبير على رقبته

- انت عارف أني مين؟

- لا...

(قالها بحشرجة مرتعب من الموت)

- أني ماجر أمين الغجري، أمي تبقى مردات، فاكرها

- أني، أني معملتش حاجة، كدابين.

- لو هما كدبوا، هي هتكدب ليه يا نجس

وسحب الخنجر بالعرض فقطع رقبته وهو ممسكًا برأسه، ضغط على الخنجر أكثر حتى احتك في عظام الرقبة.

قام عنه ووقف على رأسه وهو يخور كثور ذبح وتتحرك قدماه ويداه بشكل عشوائي، حاول الوقوف لم يستطع رقد على جانبه يصفي الدماء.

أخرج مسدسه ولوح به لصديقيه، عرف أسماءهم وحذرهم من أن ينطقا باسمه فهربا بشكل هستيري ورمي من يحمل النبوت بجانب جثه حميدة.

تحركا وقبل أن يخطوا أولى خطواتهما على سكة النحاتين للعودة للقرية مثلما أتيا حتى لا يراهما أحدًا وجدا عبد الصمد التاجي قد ظهر لهما، رفع ماجر مسدسه يصوبه تجاه الشبح الذي ظهر فجأة ووقف في طريقهم،

- لالالالا يا ماجر يا أمين الغجري، أني مش عدوك، أني حبيب

- أنت مين؟

- أني عبد الصمد التاجي ابن عبد الحميد التاجي صاحب التابوت ده والأرض اللي تحته

- ايه اللي جابك هنا وعايز ايه؟

- أني، مش عايز حاجة، أني عايز أقول تسلم الرجالة.

- يا سلام، تعرف يا عبد الصمد لو قولت حاجة..

- متكملش، إذا كنت مجروح يا بن مردات وخدت طارك بايدك، أني كمان مجروح وجرحي أهو، علامته إني برجل خشب.

- أنت عبد الصمد اللي شوفتك عند محطة القطر.
- ايوه أني. ويا ترى الشيخ شعبان يومها حكى لك أني بنص رجل ليه؟
- حكا لي يا عبد الصمد.
- يبقى أكيد دلوقتي تطمن لي.
- من يد راجل لراجل
- من يد راجل لراجل
- ايه اللي جابك هنا دلوقتي واني شوفتك وأنت بتغز حسين.
- أني عارف انك شوفتني، وعجبني انك متكلمتش.
- الجرح واحد يا عبد الصمد، إنما جاي هنا ليه، هربان؟
- لا مادمت أنت متكلمتش، محدش شاف حاجة، اني جيت هنا مكان ما اتقطعت رجلي ومات أبويا، عشان أقوله أني خدتلك طارك يابا.

عادا إلى المولد واختلطا بالجموع وجلسا حتى رآهم الكثيرين، استمتعا بسحر الإنشاد، نسمات خفيفة باردة تطل على الوجوه ونغمات الآلات تتراقص في الآذان حاملة كلمات بن الفارض تدخل إلى العقل فيسرح، يهتز، يرتوي، يطير إلى آفاق، كل إلى أفق يبحث عنه، وآخرون تلوح في خيالهم ذكريات رسخت منذ أيام وشهور تضفي البسمات الهادئة على الوجوه.

قبيل الفجر، انتهت الوصلة الثانية في ساعتين كاملتين، هللت الجموع ووقفت الجلابيب تهتف وتشكر وتشيد بعذوبة الصوت والمعنى، طلب أحدهم موال للختام، لم يبقى إلا دقائق على وقت الفجر، نظر المنشد إلى العمدة والكبار فأشاروا برؤوسهم في ابتسام؛ أن أكمل وأمتع الناس.

قال يا بن أدم[7]
العين بالعين، والسن كمان
والودن بالودن والأنف بالأنف
والجروح واجبة القصاص
بس..
قبل ما يقول ظلم نفسه من لم رضي بحكم من خلق الكون

7- كلمات المؤلف

قال...
ومن تصدق وعفى لهو خيرله وكفارة
يابن أدم
كن كريم في أخلاقك، واحفظ الغضب
الغضب يا بني من الشيطان
والشيطان لك دايمًا عدو
لو نار الغضب في صدرك ولعت
ينفخ ويرقص جنب ودنك
وحجته جاهزة من أيام الخلق بأنه الغاوي
الخيروالشر
الخيروالشر جواك
افصل واحكم وكن حكيم
دا حاصد الشر خسران واللي زرعه من قبله
واللي كسب..
واللي كسب؛ اللي قدروعفى
القوة في القلب مش في الدراع
لو كان الدراع يحب القلب لكان الفيل سيد الغاب
العين بالعين يا بن أدم والعفو سيد الأخلاق

عادا بعد أن صليا الفجر في الجامع وسط المئات، عادا إلى دارهم، أيقظ أمه نظر مطولا إلى وجهها، لم ينطق وإنما طالت نظراته حتى ارتابت، قبل جبينها الندي وقال:

- قريب يا مردات

لم تمر ساعات وانتشر الخبر بقتل حميدة أمام تابوت التاجي، لم تكد قوة البوليس تصل إلى المركز حتى عادت مضاعفة، اجتمع الفلاحون حول موقع الجريمة مثلما حدث منذ سنتين، رفعت الجثة لنقلها للمركز شددت الرقابة على مداخل ومخارج القرية، وسادت حالة من الترقب، جمع الخفر للتحقيق في دوار العمدة، ثم استدعي أناس بعينهم، من بينهم كان

(عبد الهادي) الغريب عن القرية، و ماجر العائد حديثًا، لم تسجل سجلات

obeikandl.com

مركز البوليس أن هناك عداء فيما بين ماجر وحميدة، فجريمته باغتصاب مردات لم تسجل ولم يبلغ عنها أحد، انتهت التحقيقات وعرف كل الأهالي في القرية أن (ماجر) ربما فعلها، أمر بالتفتيش في الدار لم يجدوا شيئًا يدلل على أنه الفاعل، كما شهد الخفر أنفسهم أنه رأوه تقريبًا طول الليلة في وسط الناس يستمع للمنشد وصديقه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الصُّبْحُ

عاد حفظي بعد يومين من القاهرة، طالب في مدرسة الحقوق في الفرقة الثالثة لم يكمل شهروعاد عندما بلغته الأخبار، جلس يسأل ويستفسر عن كل ما حدث، سجل في الأوراق وذهب لمركز البوليس وطلب من المفتش الإطلاع على التحقيقات رفض طلبه لأن التحقيق مازال مفتوحًا، عرف في نهاية إلحاحه أنه في الأغلب ستقيد جريمة مجهول فاعلها وسيؤمر بالدفن تحت الحراسة.

عائدًا من المركز فرآها، شغف القلب وأخذت العينين، وظل يتفحصها وروحه تلح عليه بالسؤال:

- من تلك الجميلة الراقية؟

تحمل في يديها حقيبة من الجلد ويبدو عليها الارتقاء، ذهب إلى أمه وسأل، أخبرته أنها نظيرة ابنة الأميرالاي شعبان نصر الدين، تعلمت الآداب والعلوم، وبلغت السابعة عشرة وجاء بها والدها للإقامة في القرية خوفًا من حركات التحرر النسائي في القاهرة، وتنتوي افتتاح دار لحضانة تمهيدية للأطفال تعلمهم القراءة والكتابة.

رأت في عينيه لمعان الرغبة، شغف الحب، طمأنته بأنها ستفكر في خطبتها من أجله.

زارت الحاجة (منارة) في بيتها، رحبت بها وقالت لا حكم لها فالبنت قوية كأبيها شعبان ولكنها ستخبر الشيخ الصادق زوجها برغبتها.

رفض الشيخ الصادق الفكرة، وقال لزوجته: أنه يرغب في أن يأخذها زوجة لابنه شعبان، فرحت وهللت وتمنت، ولكنها لم ترسل للحاجة زهرة لتبلغها برفض الطلب.

افتتحت (نظيرة) دارللحضانة، وذهبت للشيخ إبراهيم تدعوه لمؤازرة الفكرة فأيدها وأعجب بها، وشجع كل الأطفال على حضور صفها، فرح هوولم يخبرها، فالطفل وإن تعلم وعرف الأحرف يحفظ القرآن بشكل أسرع وأسهل، دون عناء ضربهم على أرجلهم وتعليقهم على الفلكة، وإن كان الطفل غبي ولم يحفظ تتأخر

والدته في إرسال الخرج من القمح أو الذرة أو حتى البطاطس معللة تأخرها في الدفع بأنه لا يحفظ ابنها.

على مر سنوات كان تابوت التاجي منذ أن حفر، يكتسب في كل عام وصمة من الكره والرعب في قلوب الناس، البعض وإن كان طريقه السكة التي تبدأ من مدار التابوت وجسر الترعة الزرقانية وحتى مشارف بيوت طوح دلكا، أصبح يدور ويسير ويستخدم سكة أخرى طولها ثلاثة أضعاف تبدأ من الصهاريج على جسر الترعة الزرقانية على مشارف قرية كفر ميت أبو الكوم وتعبر كل الأحواض الزراعية المجاورة لترعة بحر سيف حتى تصل لسكة السلخانة والتي تخترق بيوت الجانب الشرقي من قرية طوخ دلكا.

بعد أن حفر بأيام وبعد أن رفع المياه لمدة يومين سقطت جاموسة (حمدية) وكسرت أرجلها الخلفية وبيعت لتذبح بربع ثمنها، لم تمر النيلية وأثناء موسم حصاد الذرة سقط (فتح الله) أخ (مستقيمة) وأخرجوه ليفقد النطق وربطت عظامه على أن تكبر وأصبح قزم، وبعدها بشهور قذف (عبد الحميد التاجي) بإبراهيم القوصي في الترعة وفقد الرجل كرامته وجلس في بيته ليفقد صحته هي الأخرى، وكان رد أبناء القوصي في نهاية الموسم بقتل عبد الحميد وقطعت رجل عبد الصمد ابنه، ودخل عرفان السجن لسبع سنوات، ومؤخرًا قتل أمامه (حميدة الفار) وحزت رقبته كما عجل جاموس سقط مكسورًا، ابتعدت الناس عنه، ابتعدوا عن السكة كلها، سكنت الغربان والحدآن وابوقردان الأشجار على جسري الترعة بداية من جميزة النحاتين وحتى نخل أولاد الزناتي، وخرجت فئران الجسور تسعى باحثة عن قوتها وانتشرت القنافد على جانبي الطريق تختبئ في النجيل والحشائش على الحواف إذا ما شعرت بدبيب أقدام أحدهم.

لم يستطع عبد الصمد التاجي أن يظهر جوار التابوت في أي وقت من أوقات النهار، كان الخجل يلفه ويمتقع وجهه بسواد يتجمع على حوافه، وجد أنسه في الجلوس على المصطبة الطينية والتي بنيت على فلق نخل فيما بين شجرتي التوت اللتان تحوطان المدار والتابوت، جلس في عمق الظلمة ينظر لمن يمر ويكاد يرى خوفهم وجبنهم، أحيان كثيرة كان يحادثه ويستمر في حواره معه ساعات، وفي تلك اللحظات وهما يجلسان على المصطبة لم يكن يرى أحد أبدًا يمر، لم يعد أحدًا يرغب في استعمال التابوت ليلا وإن اقترب المغرب وأقبل الليل، حل بهائمه من ناصية التابوت ونجى مسرعًا إلى بيته ليكمل سقية أرضه في الغد بعد

أن تتضح ملامح الأشجار والأراضي والزراعات.

أصبح يروي أرضه ليلًا دون نزاعات، بني جدار من الطين ارتفاعه يقرب من المترين في شكل شبه دائري حوط به جذعي شجرتي التوت، أصبح ساتر، أكمل الضلع الناقص بجدائل البوص البلدي ورصعها من الداخل بالطين المخلوط بالتبن، ترك في نهاية الجدار شيء يشبه الباب وصنع أمامه حفرة وارتفع بحوافها بالطين فأصبحت مستوقد صغير، كلما دعته حاجته الغرائزية وألحت عليه استقدم (شلبية الغازية) من المركز تقضي معه الليلة كاملة وتغادر عند بزوغ أول شرائط النهار، صنع لنفسه مرتع، في الليل وكأنما تلك البقعة وذلك المدار وتلك الشجرتين قد انتقلوا إلى مكان غير المكان، هدوء صافي، انعزال وانفصال، إحساس بالملك.

- أنا ملك الآن، كلهم يبيتون الآن في بيوتهم ويغلقون الأبواب الضخمة والكبيرة على أنفسهم وبهائهم تاركين كل تلك الأراضي خلفهم، حقًا إن الإنسان أجبن من تلك الضفدعة التي تنق أمامي، وإن أمسكها أحدهم يسيل منها مائها رعبًا، ولا تقوى على النقيق، هؤلاء أنتم، ضفدعات مرتعبة، كل ما لكم نقيق صارخ يسمع وكأنه جيش جرار، فقط أصوات، وعليكم وليتم حاكم وأمر، هو الأخر ضفدعة كبيرة تمتلئ بطنها بالدود والحشرات ومن كثرتها لا تستطيع حتى أن تنق، أنا اليوم الملك.

كانت تلك أحاديث عبد الصمد لنفسه، أيده فيها رفيقه الشيطاني وعزز في قلبه الفكرة.

- ولكني أعرج! !
- ربما تكون ميزة ولا تدري.
- ميزة أن يزحزح طفل لاهي طرفها فأسقط كالجوال.
- ميزة أن لا يصدق أحد أنك تستطيع فعل ما ترغب، فقط اعمل عقلك.
- كيف
- أرأيت يومًا ثعلب يخطف دجاجة
- لا
- استطعت في يوم الإمساك بحدأة وهي تخطف كتكوت
- لا

- احوطت على ثور أسود وفحل قطع رباطه وانطلق
- نعم ومن لا يرى بهيمة هائجة ولا يحاوط عليها قبل أن تكسر نفسها.

ابتسم عبد الصمد، وأخرج مطواته يقلم بها غصن ليمون في يده كان ممتلئ بالشوك الكبير، صنع منه عصا متوسطة الطول لها رأس منتفخ وتظهر نتوءات الأغصان الأصغر بعد أن اقتطعها منها كبروزات صغيرة أعطتها قوة وصلابة.

أنهى عمله أمام محطة القطار وسرج بغله وخزن معداته وأدواته وبضاعته في المخزن المجاور للمحطة والمؤجر من إدارتها، أوقف البغل جوار باب المحطة الرئيسي وصعد على الهيكل الحديدي الذي زرعته هيئة السكك الحديدية كبروازين كبار أمام باب المحطة لتوجيه الداخلين والخارجين ومنع أي حيوان مهتاج من القرب من المبنى، صعد عليه ليمتطي البغل وتوجه إلى محلات رواش بشارع الأثر مثل أي فلاح اشترى علبة من سم الفوسفين، علبة كبيرة، وعاد إلى قريته، ثم ذهب للوكر وخزنها، وقبيل الفجر تمشى في الأراضي حتى وجد أحدهم يزرع فول بلدي على حواف المروة وعلى الحدود بينه وبين الجار، اقتطع عدة قرون شبه ناضجة، جلس على المصطبة وأخرج عدة كريات من سم الفوسفين، أذابها في كوب صغير من الصاج، ثم صنع ثقب صغير في كل قرن من قرون الفول، وأحضر عقلة من عقل البوص الرفيعة والتي ناسب حجمها حجم الثقب ثم صب المحلول السام داخل القرون حتى امتلأت، ثم تركها تتشبع بالسم، وعاد للحقل قطف مرة أخرى كمية من القرون، تركها كما هي، بعد أن تفتح النهار ولاحت صفحة السماء صافية منيرة إلا من بعض السحب البيضاء، امتطى بغله عائدًا إلى القرية، النهار يتفتح والزراعات تشرئب وريقاتها متشحة ببرد شافي من ندى الفجر والشمس يظهر ضوءها الأصفر ولا يظهر قرصها وبعض نسمات تهزهز سيقان الفول على حواف المروة الملاصقة للسكة، ينظر ويتلفت حوله، يستمتع بهذا الجمال، على بعد عدة أمتار رأى ابن حسين القوصي يسحب خلفه بقرة وجاموستين ومن خلفه بن عمه عرفان يركب الحمار وتتدلى رجليه في اتجاه واحد ويسحب خلفه ثلاثة عجول صغار وتسير خلفهم عنزة ضرعها ممتلئ باللبن وحولها جديان صغيران وخروفان سمينان، وتسير في المؤخرة زوجة عرفان ممسكة بحبال بقرتين تسير الأولى أمامها والأخرى خلفها وما أن وقعت عينه علي قافلتهم الصباحية اليومية، إلا ومد يده في جانب الغبيط وظل يسقط قرن من

قرون الفول كل ثانية أو اثنين وبغله سائر في طريقه وبعد أن تقابلا ومر كل في اتجاهه، التفت وعيناه على القرون التي أسقطها.

أمام محطة قطار تلا، يقف على ركبتيه ممسكًا بحافر بغل يقشط حوافه المهترئة بالمقشط لينعلها ومن خلفه صبيه حاملًا الجلاخة والنعل الحديدي الجديد ومسامير التثبيت والشاكوش.

- وأنت جاي المركز النهارده ليه يا عمران؟

- جاي اشتري تقاوي الخيار

- الله، ما البارح كان السوق ماشترتش ليه؟

- ما أني كنت ببيع الحوليتين عشان اشتري عجلة جديدة وعلى ما خلصنا البيع والشرا ملحقناش.

- وهو أنت ها تلحق، دا الظهر قرب أهه

- ما هو أني اتأخرت، أصل. . . ؟

- أصل إيه يا عمران، سكت ليه؟

- أصل وأني جاي سمعت إن بهايم إبراهيم القوصي كلها جالها حمى، وشطحت كلها، حتى المعيز.

- حمى؟ حمى ايه؟

- اه الناس بتقول، يا دوب العيال وصلوا الغيط وربطوا البهايم، وراحت كلها مشطحه على جنبها، وصار الصوات يلم البلد كلها.

- لا إله إلا الله، وماتت؟ !

- ربنا يلطف بهم، ما هو ده اللي أخرني، أني كنت واقف هناك، وملحقوش حتى يدبحوها.

أنهى عبد الصمد عمله وركب عمران حماره ورحل، ما أن أدار وجهه ليجلس على كتلة الخشب ليرتشف دخان الجوزة إلا ووجد (ماجر) يمر أمامه، أشار إليه بكل قوة فأقبل عليه، أصر أن يجلس معه لارتشاف كوب من الشاي ومشاركته الجوزة، جلس ماجر وتحدثت الأعين بغير ما تتحدث به الالسنة، وعندما قام ليودعه دعاه للقاؤه في وكره ليلًا.

ارتدت أصوات البنادق في هدوء الليل قبيل منتصف الليل لتوقظ الأهالي في بيوتهم مذعورين، البعض خاف أن يفتح شباكه، وآخرون طلوا من الشبابيك

بجلابيب رقيقة وقمصان دبلان كالحة عاري الرؤوس، ينظرون لبعضهم عن بعد ولا يملك أحدهم إجابة وإنما دوي الطلقات يتردد ويترافق مع عواء الذئاب، الصوت قادم من الناحية الغربية من ناحية ترعة الباجورية، لابد أنها هجمة ذئاب على أحدهم وأطلق عليهم خرطوش بندقيته، في سرى الليل وإن تعاركت الضفادع على جسر ترعة الباجورية يصل نقيقها إلى الدور وتسمعه الأهالي، ربما كانت الطلقة السابعة أو الثامنة وامتد صوتها وانتشر وكأن الهواء كان ثقيلًا فحمل الصوت لثواني ولم يخبو فجأة، ارتكن غالبية من استيقظ رعبًا إلى فراشه ونام وآخرون أخذهم القلق فنزلوا من مقاعدهم العلوية للاطمئنان على بهائهم، ودوت طلقتين أو ثلاثة من فوهات بنادق الخفر كنوع من رد الفعل التحذيري لأي منصر ينوي دخول القرية، ربما تطارده خفر القرية المجاورة ولم يصيدوه.

أمام دوار العمدة في الصباح، تقف سيارة المأمور وبعض من قوة البوليس، وتجري التحقيقات، هذا الغريب المصاب في فخذه، متماسك أمام الآلام وإنما بعض الدماء قد تيبست على جلبابه الممزق والملطخ بالطين والتراب من أثر سقوطه وحمل ولاد (الهجارسة) له بعد أن أصيب، راح في نوبة إغماء إلى ما يقرب من ساعة واستفاق ليجد نفسه أمام العمدة يلكزه الغفير البغل بمقدمه عصاه الكبيرة، بعد أن تماسك اعتدل ليسند ظهره على حافة الأريكة الكبرى، اعترف أنه جاء بحثًا عن (عبد الهادي الأسواني)، وقد جاء قاطعا مديرية البحيرة ثم الغربية حتى وصل قرية الساحل وهي على الجانب الأخر المقابل لقرية ميت أبو الكوم وعبر ترعة الباجورية في مركب صغير لأحد الصيادين، خرجت عليه بعض كلاب حراسة جنائن برتقال محمود أفندي، نجا منها وأكمل سيره كما وصف له، وفيما بين جنائن البرتقال، ومنطقة المناول للترعة الكبيرة وجد الذئاب تحوم من حوله تقترب وتبتعد، حتى تجرأت والشرر يتطاير من أعينها فأطلق عليهم الرصاص لينجو بنفسه أصاب اثنين ربما وهرب الباقون، وما أن توجه لإكمال طريقه وجد من يضرب عليه ولم يتبين من ضربه واختفى، سقط على الأرض صائحًا بقوة، بعد عدة دقائق اشتعل الجرح وأصبح يأكل لحمه والدماء وكأنها مياه تغلي، صرخ واستغاث، فوجد اثنين من الرجال يقتربون بحذر هَمّ أولاد الهجارسة حراس جنائن البرتقال.

أُستدعي ماجر وصديقه للتحقيق ،وعزل الغريب في غرفة الحجز وعينت عليه حراسة داخلية وخارجية، أنكر ماجر وصديقه عبد الهادي أي معرفة بما

قاله.

عزلا في غرفة السلاح، واستكملت التحقيقات مع الحارسين وبعض الفلاحين في المنطقة، وقبل أن تنتهي التحقيقات، صرخ حضري البغل مناديًا على العمدة.

مات الغريب متأثرًا بالنزيف والآلام.

لم تثبت عليهم أية إدانة كما أن بعض شباب القرية شهدوا أنهم قد سهروا سويا حتى وقت متأخر أمام دكانهم.

حذرهم المأمور مهددًا، وأمر العمدة بوضعهم تحت المراقبة.

لم يستطع ماجر أن يزور عبد الصمد ليعرف ماذا كان يريد؟ استدعي عدة مرات إلى دوار العمدة كلما قدمت إشارة تليفونية لدوار العمدة بمرور أورطة عسكرية من قوات الإنجليز عبر الطريق الزراعي الرابط بين مركز تلا ومركز الشهداء، معسكرهم الرئيس كان في مدينة طنطا والأخر في منوف، وفي أحيان كثيرة كانت تخرج قوات صغيرة مكونة من سبعة أو ثمانية جنود للتنزه أو التأكيد على بعض الخرائط أصبحت اهتماماتهم أكثر بصيد اليمام في الجنائن والبساتين الكبيرة، فحادثة دنشواي كما تركت أثرا كبيرا في نفوس كل المصريين ترك فيهم أيضًا أثرا من الجبن من نهضة الفلاحين في وجوههم وما زاد من حدة الأوامر الصادرة من مدير المنوفية لكل العمد ومشايخ القرى والوكلاء بالالتزام بكافة عوامل تأمين جنود الإنجليز إن حادثتي قتل الطفل في تلا بجوار المعسكر الفرعي لهم واغتصاب المرآتين في قرية الساحل قد بيتتا لدى كل الفلاحين ضغائن الأخذ بالثأر فرغم أن مدير المنوفية قد أرسل إشارات رسمية لكل عمد القرى المجاورة لقرية دنشواي بحضور تنفيذ الحكم في القرية نفسها بعد صدور الأحكام من المحكمة المخصوصة التي شكلت في أقل من يوم ليحضروا ويشهدوا تنفيذ الأحكام فينقلوا الصورة كاملة لأهاليهم فيضمن بذلك ثبوت مركزه بشدة قبضته الأمنية أمام رؤساءه إلا أن المشهد بالجلد والإعدام والسجن المشدد وانتشار عويل النساء وبكاءهن ترك أثرًا في نفوس الرجال بالكسر والامتهان، وتخيل كل صاحب عزة في أهله وماله أنه ربما يكون في نفس الموضع الذي نصبت فيه المشنقة قبل حتى صدور الأحكام من محكمة شبين الكوم وأن أولاده وأحفاده وذويه يرونه معلقا تطوحه يد الأثمين بعد أن فارقت روحه جسده، أو تتقاطر الدماء على ظهره عاريًا ترتجف روحه من الألم قبل جسده، أصبحت حكاية تروى للصغار وقت العصر مع اصفرار الشمس وميلها للغروب، أو أمام

الكانون وهم يشون البطاطس والبصل، أصبحت حكاية تروى تضخ العزة والكرامة والأمل وليس الامتهان والجبن، فرغم أن جندي إنجليزي واحد مات بفعل الشمس الحارقة وتجمعت كل قوات القوة والغطرسة في مصر من احتلال وأولي أمر بتشريد وقتل وجلد وسجن أكثر من 52 فلاح مصري من فلاحي قرية دنشواي إلا أن من شهد الحدث حكى لأولاده عن دور الشهيد مصطفى كامل الوطني الذي دافع عنهم وجعل قضيتهم قضية دولية وعن درويش زهران الفلاح الذي أعدم وأقبل على الموت صائحًا في الجلاد: "أسرع وانهي عملك"، عندما سقط متدليًا على حبل المشنقة تقوس جسده بقوة كمن يناطح الحبل الملفوفة به رقبته، كمن يناطح المشنقة بضخامتها، كمن يناطح الآثمين من أبناء نفس الطين الذين سهلوا للمحتلين قتله، صارت حكاية الأربعة الذين شنقوا في حادثة دنشواي حكاية شرف وكرامة .

حسن علي محفوظ، يوسف سليم، السيد عيسى، محمد درويش زهران، أسماء حفظت وحفرت في أذهان كل الأطفال في قرية ميت أبو الكوم، كل الأطفال الذين يماثلون نفس أطفال المغدورين والمقتولين ظلمًا في السن.

نجت ميت أبو الكوم من تواجد أفراد من قوات الاحتلال الإنجليزي بفعل جملة قالها الأفندي محمد السادات، والذي كان يعمل كاتبًا بالقسم الطبي بمنطقة مركزية الجيش المصري بطنطا، ثم انتدب للعمل مع القوات التي تجوب منطقة جنوب تلا وقرآها، كان من أبناءها وعندما مروا بها متجهين لقرية سرسموس أرادوا أن يقضوا الليلة في معسكر فرعي على مشارفها، حذرهم الأفندي قائلًا:

- هي قريتي، ولي فيها دار وفدانين، النساء فيها ليسوا على قدر من الجمال، وتنتشر الأمراض بين الفلاحين

خاف قائد الاورطة واستكمل سيره وعسكر قرب مدخل الشهداء وسرنا على جسر ترعة الباجورية.

كلما جاءت إشارة تليفونية إلى دوار العمدة بالتحفز وتقديم العون لقوات الإنجليز، جمع الخفر ووكيله وشيخ البلد وأعيانها، وردد نفس الكلمات

- احمدوا ربنا إن الإنجليز كرهوا بلدنا، نفذوا اللي يطلبوه وشوفوا اللي عايزينه، خليهم يغوروا من وشنا، الإشارة نفسها جاية بأمر الحكمدار والمأمور.

استدعى ماجر وصديقه عبد الهادي، حذرهم إذا ما قابلوا أورطة الجيش

الإنجليزي في أن يعارضوهم أو يرفضوا أي طلب، إن طلبوا البغل، فأعطوه لهم، إن طلبوا بضائع، سلموها كما هي ولا تطلبوا ثمن.

obeikandl.com

obeikandl.com

الصَّباحُ

الحق ماجر كل إخوته بحضانة (نظيرة) تعلموا منهم، ارتشفوا الأحرف والعلوم كالهواء، أجزلت عليهم نظيرة بهداياها من أفلام الفحم وبعض الأوراق.

وقف على بابها حفظي مبتسمًا، انصرف الأطفال وهي تهم للخروج، اعترض الباب وهو ممسكًا بالطربوش، تحولت عيناها الأنثويتين إلى عيني الفارس المغوار الأميرالاي شعبان نصر الدين، ارتجع ورفع ذراعه عن الباب، مرت منه نافرة، قال:

- أنا حفظي نائل الفاضي، تلميذ في مدرسة الحقوق

لم تعره اهتمامًا وأكملت سيرها بصرامة، طلبت من عمها الصادق أن يبني لها مندرة خاصا في طرف الدار الكبيرة كي تكون مدرسة مصغرة، سأل عن سبب رفضها لمندرة القراءة التي تقيم فيها دروس تعليم الأطفال، حكت له ووصفت الشاب، ربت على ظهرها وطمئنها، ومسح على شاربه الكبير وهو يرتشف الشاي، انصرفت من أمامه إلى مقعدها بالطابق الثاني، نادى على زوجته وطلب منها أن تسألها عن رأيها في زواج نظيرة من الشيخ شعبان.

يصعد عبد الهادي على جسر ترعة الباجورية حاملًا مقطف من سعف النخيل ممتلئ بالأسماك وهي تتقافز وتتحرك فيه، وضعه بجواره وغسل يديه ورجليه وهندم جلبابه، ثم ركب حماره متجهًا للقرية، بعد مسيرة عشر دقائق قطع فيها الطريق المؤدي للقرية من ترعة الباجورية، وجد أورطة الجيش الإنجليزي تسير يمتطون الخيول ويسبقهم جاويش من البوليس المصري يركب حصانه وخلفهم اثنين من الخفر يسيرون، وقف على حافة تقاطع الطريق مع جنينة الحاج عبد اللطيف انتظارًا لمرورهم، لمح الأسماك الجندي الثالث في المسيرة، توقف وأشار له مناديًا أن تعال هنا بالإنجليزية.

تحرك عبد الهادي نحو وحدثه بالإنجليزية بشكل رقيق، فوجئ الجندي فصمت وهو ينظر له.

أخبره أنه كان طوبجي برينجي في الجيش المصري وخدم أربع سنوات في الجيش المصري واشترك في عمليات تدريبية مع الجيش الإنجليزي في الواحات.

ابتسم الجندي وفشخ شادقيه وهو يخاطب زملاءه فتجمعوا حوله، سألوه عن الأسماك، فأخبرهم أنه عمله الحالي وهو عمله الذي برع فيه قبل الالتحاق بالجيش المصري، عرضوا عليه شراؤه، فقدمه لهم مجانًا وأدى التحية العسكرية لهم، ضحكوا ونبهوه أنه لا يرتدي الزي العسكري ليؤدي التحية العسكرية لهم، فطن لذلك وابتسم معتذرًا.

طلبوا منه أن يرافقهم عدة كيلومترات فليس معهم مترجم فنزهتهم قصيرة تمتد إلى جنائن الشقي ثم العودة لمعسكرهم في تلا.

بعد مسافة لا تزيد عن ثلاثمائة متروعلى مشارف القرية من الناحية الغربية وجدوا دار ماجرودكانه، سألوه فقال أنه بيته وصديقه ماجروهذا دكانه.

جلسوا أمام الدكان يرتدون ملابسهم العسكرية واعد لهم عبد الهادي شايا ساخنًا ارتشفوه بكل نهم، وتجمعت حولهم بعض الأطفال، وأعطوهم بعض قوالب الشيكولاته، رأوا مردات في الدكان، علق أحدهم بأنها جميلة رغم أنهم يعرفون أن نساء هذه القرية ليسوا على قدر من الجمال، احمرت وجنتي عبد الهادي وصمت، اعتذر الصاغ الإنجليزي، قائلًا:

- ترى أنعيد حادثة دنشواي مرة أخرى!

لم يبتسم عبد الهادي ولم يعلق، وإنما لاحظ الخفيران البغل ومنصور أن هناك شيئًا ما يجري، سأل البغل عبد الهادي فأخبره بما قاله، فرد قائلًا:

- أنجاس ولاد الكلب

شكر لهم ضيافتهم، وأخرج من جيبه جنيهًا مصريًا، رفضه عبد الهادي

ردت نظيرة على زوجة عمها (منارة) بأنها لا ترفض شعبان وإنما تطلب فقط التروي في الزواج فهي تريد تحقيق شيئًا ما في تعليم أطفال القرية، جلس جوارها أبيها شعبان يحاول إقناعها فلم يستطع، فقط طلبت التمهل حتى العام القادم لترى نتائج مجهودها، أرسلت الحاجة منارة للحاجة زهرة ورفضت طلبها بحجة أن نظيرة ليست لديها رغبة في الزواج الآن.

يسير ماجرو عبد الهادي ليلًا على ترعة القصالي ثم أنزوا نحو الترعة الزرقانية ومرا ب عبد الصمد التاجي.

اقتربا بخطوات ثابتة وهادئة نحو التابوت ثم وقفا يدققان النظر، سواد

حالك، حتى أغصان أشجار التوت لا تتبين فقط هيكل مظلم لشجرة تتحرك بعض أغصانها الصغيرة مع الهواء، ناد عليهم عبد الصمد أن أقبلا أنا هنا

عبروا الترعة مرورا على جزع طويل لشجرة جميزة وضع أمام التابوت ليعبر عليه الناس، رحب بهم ووضع يده في أيديهم مسلمًا بقوة.

- أظن كده أنت عارف إن ليا واجب عندك يا ماجر

- صحيح، وأني كمان ليا واجب عندك.

- واجبي أكبر

- بالعكس يا صاحبي، أنت قتلت حسين، وأني مقولتش حرف، كنت أقدر أتكلم، بعدها ذبحت الكلب ومعرفش انك هنا وشايف، يبقى مين صاحب الواجب يا أبو الرجال؟

- عندك حق، واجبك أسبق وأكبروأني تحت أمرك.

- أني مش عايز منك حاجة، أنت قولت عدي عليا، خير!

- عايز أتشرف بصحبتك يا أبو الرجال.

مرت شهور وهدأت الأحوال ونسي الأهالي أو تناسوا كل الأحداث، جاءت الأجازة الصيفية، وعاد الشباب الدارسون في الأزهر والملتحقين بالمدارس العليا بالقاهرة، يتجمع بعضهم في المندرة المنصورة ويسهرون ويتشاركون الأحاديث حول الاحتلال والإنجليز وأحوال مصر وما يفعله الصحفي الثائر أحمد حلمي ومقالاته التي تؤجج الصدور وتنير العقول، تحدث في بعض مقالاته عن وسطاء جمع أقطان مصر والاتجار فيها وتصديرها لدول أوربا وتحقيق أرباح على حساب مجهود الفلاحين المصرين ولذلك هو يطالب القصر بإنشاء نظارة للزراعة في مصر.

أصبحت أرض الشيخ الصادق نصر الدين تصل إلى 42 فدان يملكها هو وأخيه شعبان وابنيه وبنت أخيه و له من أبناء العمومة ما يقرب من 16 أسرة بعضهم يملكون عدة أفدنة وآخرون يعملون لديه في أرضه المتسعة، بالإضافة للتملية العاملين لديه نظير الحصول على محصول عدة قراريط.

كان من بين ثلاثة في قرية ميت أبو الكوم الذين يستطيعون زراعة القطن بمساحات تؤثر على الكميات المجموعة في نطاق المركز، قديما كان يأتي إليهم ملتزم الخديوي وكان صغيرًا حينها بعدها أصبح الملتزم متعهد له قصر كبير في قرية طوخ دلكا يسكنه لمدة شهر في موسم جمع الأقطان ويجمع أقطان أكثر من 12

قرية يشحنها إلى الإسكندرية ليتاجر بها وكان يعرف بنفسه الفلاحين زارعي القطن بشكل شخصي، أحيانًا كان يقبل دعوة أحدهم على مأدبة ضخمة، وأخرى كان يجمعهم في قصره المهيب على السكة الزراعية يسلمهم أثمان القطن، أما اليوم فقد اختفى المتعهد وحل محلة تجار ووسطاء يعملون بالأمر لجمع الأقطان لصالح تجار كبار إنجليز يقيمون في الإسكندرية والقاهرة وطنطا ويتنقلون عبر السكك الحديدية، أصبح سعر القطن يحدد بناء على رغبتهم ويطلبون من العمد تأمين حركة نقله إلى مجمعات الأقطان في المراكز، ما يشهد الناس للشيخ الصادق هو رفضه منذ عدة سنوات لتسليم محصول القطن لديه والذي وصل إلى 32 قنطار إلى التاجر الإنجليزي والذي تسبب في أن زاره مأمور المركز مكلفا من الحكمدار بأمر من المشرف الإنجليزي على مديرية المنوفية، وحينها عندما وصل المأمور إلى داره الكبيرة وجد جيش من أبناءه وأبناء عمومته والعاملين لديه يجلسون ويقفون حول أكياس القطن في فناء داره الضخم وفي أيديهم مشاعل كبيرة، وبعض البنادق والغدارات.

لم تكن القوة المرافقة للمأمور أكثر من سبعة أفراد بينهم ضابط وجاويش وعدة عساكر، أوضح المأمور للشيخ الصادق أنه مكلف بطلبه من قبل الحكمدار، رفض طلبه إذا لم يدفع التاجر أعلى سعر.

بعد عدة أيام دفع التاجر السعر الذي أراده الشيخ الصادق وحملت أكياس القطن في حراسة مركز الشرطة، وتم توجيه تحذير شديد اللهجة للعمدة نائل الفاضي الذي لم يستطع حل المشكلة وعندما لوح له بأنه سيفقد كرسي العمدة، وقف الشيخ الصادق وأزره مما اضطر المأمور للتراجع معللًا للحكمدار بأنه ربما تشتعل الأمور في القرية فمنذ عشر سنوات، رفض الشيخ الصادق أن يكون عمدة القرية وفضل بقاءه كشيخ البلد القائم بأكبر قوة تؤثر على الناس كما ورثها عن أبيه، وأيد نائل الفاضي والذي رشح نفسه على استحياء وخوف فرغم رفض الشيخ الصادق إلا أن كل أفراد العائلة كانت ترغب في الكرسي ورفضوا نائل الفاضي وهددوه، ومنذ هذا اليوم ونائل الفاضي يحمل الجميل في رقبته ولا يستطيع أن يثني كلمة نطق بها الشيخ الصادق لحل مشكلة لأحدهم.

أعجب الشيخ الصادق وهو جالس وسط الشباب المتعلم وثورة الأفكار تتقاطر من أعينهم الفتية، مبتسم كلما سمعهم يتناحرون حول رأي ما ويجلس جواره أخيه شعبان الأميرالاي السابق في الجيش المصري، حتى انفعل العيسوي

السيد التلميذ بالسنة النهائية بمدرسة الطب وقال:

- يجب أن نبدأ من هنا، كل فلاح يبدأ من داره من حقله ومصدر قوته، يعمل أهالينا ويكافحون في الشموس الحارقة ولسعات البرد القارصة ليستفيد الجندي الإنجليزي ويتسلح بأحدث الأسلحة والمواطن الأوروبي في بلده، العمدة نائل الفاضي مجرد أداه، عبدًا للمأمور والمأمور عبدًا للحكمدار، والحكمدار عبد لمدير المديرية، ومدير المديرية عبدًا للمشرف الانجليزي على المديرية، وهو فرد من جيش الاحتلال يتبع سياسة الملك وهو جالس على عرشه في قصر باكينجهام، يجب أن يتولى المسئولية من أقدر عليها، من يعي دوره، لو كان هناك عمد ومسئولين على قدر الإحساس بالامتهان لما حدثت مهزلة دنشواي، أنسيتم جميعا؟ أنا أرشح الأميرالاي شعبان نصر الدين ليكون عمدة قريتنا، عائلة نصر الدين هي ما جلبت الكرسي لأول مرة لقريتنا وهي أيضًا من تقضي بين الناس منذ وعينا الحياة فلما لا تكون في وضع المسئولية.

هلل الجميع للرأي وصدم الأميرالاي من الطلب فلم يكن يتوقعه، كان من المدافعين بصرامة عن ارتقاء أخيه لكرسي العمدة عندما كان منفيا بشكل غير معلن إلى السودان بعد ثورة عرابي، لم يستطع أن يشارك ويضغط على أخيه وإنما أبرق له يطلب منه أن يكون عمدة القرية، ابتسم الشيخ ونظر إلي أخيه الذي يكبره ب14 سنة قائلًا:

- أتريد أن تختم حياتك هكذا؟

- هال وجهه ابتسامة مفادها قبول الموقع

لم يكن في حياة الرجل بعد أن عاد من السودان وأحيل للمعاش من قوات الجيش سوى ابنته وها هي قد كبرت وعادت إلى قريتها تأنس بهم وتقوى بهم فلم يعد يشغل باله شيئًا، فإن مات فهي في وسط أهلها وحامي شرفها، كان فارس في الجيش، ومن الملائم له أن لا يبقى دون دور في قريته، أعجبته الفكرة.

لم تمر دقائق حتى دق باب المندرة المنصورة شيخ الخفر بنفسه يستأذن في أن العمدة يرغب في القدوم لزيارة الشيخ الصادق.

دخل العمدة فوجد الجلسة الكبيرة كمجلس شورى القوانين في مصر، ألقى السلام مبتسمًا وسلم على الجميع ثم طلب الاختلاء بالشيخ الصادق.

- من غير مقدمات يا شيخ صادق، أنا عايز أخطب نظيرة بنتكم لابني حفظي

- يا حاج نايل، دا شرف لينا، بس البنت معندهاش رغبة للجواز دلوقتي

- يا شيخ صادق إيه الكلام ده؟ وهو أنت لو قلت حاجة حد يقدر يكسر كلامك؟

- دا جواز يا عمدة والشرع قال كده ولا عايزنا نخالف الشرع، كمان أنت نسيت إن البنت متعلمة وكانت عايشه في مصر.

- طيب ما ابننا هيبقى محامي أشطر من الهلباوي كمان.

- يا عمدة ربنا يبارك فيه ونشوفه ناظر للحقانية دا ابننا برضه.

- طيب قولت إيه؟

- أقول إيه يا نائل، أني قولتلك المفيد

- يعني عايز تفهمني انك متقدرش تحكم عليها

- لو مكنتش في داري كنت حاسبتك يا نايل على الكلام ده

خرج العمدة مكفهر الوجه وألقى السلام على العموم في مروره على باب المندرة المنصورة، أخبر أخيه شعبان بما دار فرد شعبان قائلًا:

- نظيرة مش هتطلع بره العيلة يا صادق، احنا عادتنا كده هنرمي لحمنا على أخر الزمن ولا إيه! أني هدي نظيرة لشعبان هو أولى بيها

- الله يفتح عليك يا أخويا أني برضه نفسي كده، بس البت قالت اتمهلوا، متعرفش ليه؟

- أنت عارف بقي هي كانت في مصر مبهورة بحركة تحرير المرأة والكلام ده، وقالتلي إن عندها حلم تعلم كل عيال البلد

- كل عيال البلد، لا دول كتير! أني هاتكلم معاها

ذهب الشيخ الصادق ومعه أخيه شعبان إلى مركز البوليس في تلا وقدموا أوراق وملئوا طلب لدى المأمور بالمطالبة بكرسي العمدة.

يجلس الشيخ شعبان على جسر الترعة الزرقانية في مصلى صغير مجرد جدار ارتفاعه شبرين من الطين تم بناءه للتدليل على أن هذا المكان هو مصلى لمن يريد الصلاة، كان يستذكر دروسه في هذا المكان وأحيانًا أخرى كان يتمدد ليغفو قليلا تحت شمس العصاري التي تتخلل أشعتها الرقيقة أغصان الجميزة في تلك المصلى، يجلس وبجواره العيسوي السيد صديقه يتحدثان في مسألة فقهية يتناطحان بالأحاديث النبوية كما اعتادا دائمًا، وقف أمامه السيد الفاضي وفي يده سيجارة قائلًا:

- بقي عمك المطرود من الجيش عايز يبقى العمدة يا شعبان؟ !

- عمه بطل من أبطال ثورة عرابي يالاه

- اسكت أنت يا بن السيد ولا أنت فاكر نفسك بقيت حكيم
- حكيم غصب عنك يا فاشل
- اهدى يا عيسوي
- وإن مهديش يا شعبان، هايعمل إيه يعني بن نبوية!

هب العيسوي من جلسته وأمسك بتلابيب ملابسه وصارت اللكمات تتبادل حتى أخرج السيد مطواة وجرح به ذراع العيسوي، كان طبيب وعرف أن الجرح غائر فجلس على الأرض سريعًا ومزق جلبابه وربط ذراعه.

- ها مش عايز تعمل راجل أنت كمان يا شيخ شعبان

لوح بمطواته ووقف متبخترًا.

- قول لعمك يوم ما يفكر يبقى العمدة، أنا هدفنه قبل ما يحلم بيها.

تلك المصلى كانت لا تبتعد كثيرًا عن تابوت نصر الدين والتابوت الملعون تابوت التاجي، واحد الصبية من أبناء النحاتين كان يلهو أمام حقلهم سرعان ما هرول مناديًا على القطب، جاء القطب هائجًا فرأي دماء العيسوي وأخيه ممسكًا به يتجنبون السيد الفاضي، انقض عليه بيديه العاريتين ولكمه عدة لكمات ثم رفعه على ذراعيه وقذف به في الترعة، هلل الأطفال للقطب وصاروا يتغنون بكلمات تراثية لإهانة السيد.

يا أم السيد، شيلي السيد، لساه صغير[8]
يا أم السيد، الواد متحفلط
يا أم السيد، وكمان متغدنر
يا أم السيد، وقع من تيابه
يا أم السيد، وانكفى ادامه
يا أم السيد لا الغول يفترسه
يا أم السيد ويفشفش عظمه
يا أم السيد، شيلي السيد، لساه صغير

حاول السيد الخروج مبتلا ومعجونًا بالطين فنهره القطب مهددًا، وأرسل الصبية لاستدعاء العمدة والخفر، حاول أن يصعد من الجهة الأخرى فلم يستطع فالجسر الأخر ممتلئ بالكامل بالبوص لمسافة كبيرة وربما فيما بين

8- كلمات المؤلف

جذوره الكثير من الثعابين والقنافد والفئران.

جاء الشيخ الصادق مهرولًا ناحيتهم، ونهر ابنه القطب واطمئن على شعبان، حاول إثناء ابنه ليخرج السيد من الترعة فرفض بصرامة متناهية، اجتمع بعض الفلاحين من الحقول المجاورة، وشهدوا على ما حدث، حضر العمدة يركب حصانه ومن خلفه شيخ الخفر واثنين من تابعيه، وقف يسأل ويحقق، ارتفع صوت القطب محتدًا، نهره العمدة بحدة، فصاح فيه الشيخ الصادق، فهدأ صوته قليلًا وطلب أن يخرج السيد من الترعة ليقف جواره.

جلسوا جميعًا وافترشوا الطريق وتجمع حولهم الفلاحين من كل صوب وحدب.

بعد التحقق من ما حدث أمام كل الشهود على ما حدث نسب كل الخطأ للسيد وطلبوا من العيسوي العفو وعدم تصعيد المشكلة بشكل رسمي، وافق العيسوي والشيخ شعبان حتى صاح الطفل ابن النحاتين قائلًا:

- إن السيد سب الشيخ شعبان وهدده وهدد عمه شعبان بعدم الترشح لكرسي العمدة.

ضربه العمدة بكفه فطاح الولد على الأرض وبكي وزمجر وهو يجري مرعوبا، وقف أبيه مطالبا بحق ابنه الذي ضرب في المجلس وأمامه.

نظر إليه العمدة بشكل متقزز وأشار له بالجلوس.

- أنت قولت الكلام دا يا سيد

- هو معقول يقول كده برضه يا شيخ صادق

- أني بسأله هو يا عمدة

- قولت الكلام ده

فصاح الولد المضروب من بعيد مكررًا ما قاله وهو يبكي.

- طيب بص يا عمدة، أني مكنتش موافق إن أخويا الأميرالاي شعبان يتشرح للعمودية مادمت أنت موجود، بس مادام الموضوع بقي كده وابن أخوك ميعرفش الأصول، يبقى أني بعلنك اهه أدام الناس دي كلها إن أخويا شعبان قدم ورقه وهياخدها.

- أنت بتقول إيه يا شيخ صادق، أنت بتهددني، أني العمدة!

- يعني إيه أنت العمدة!

- يعني الضبط والربط، يعني المسئول عن البلد دي وكبيرها.
- كبير على نفسك
- وعلى البلد كلها يا شيخ صادق
- أنت نسيت نفسك يا نايل ولا إيه!
- أنت اللي نسيت يا شيخ صادق، لما تتكلم معايا لازم تعرف إن أني العمدة
- طظ فيك وفي العمودية.

يجلس ماجر وعبد الهادي أمام الدكان يسمعون أخبار ما حدث بين الشيخ الصادق والعمدة، والضحكات تتردد بينهم جميعًا إلا ماجر، يبتسم أحيانًا ثم ينزوي في سرحان كمن سافر إلى أوروبا، بعد ساعتين انصرف كل الشباب وبقى ماجر وعبد الهادي يجمعون البضائع من أمام الدكان لتخزينها بداخله ثم صعدا للسطح يتمددان ناظرين للسماء ونجومها كما هي عادتهم شبه اليومية.

- النجس رجع أهه يا عبد الهادي
- قصدك مين؟ السيد؟
- أيوة يا عبد الهادي، النجس.
- ايه! ! نويت؟
- وتفتكر أني هاعرف أنام طول ما هو ماشي على الأرض.
- بتفكر في إيه يا صاحبي؟
- بينا على عبد الصمد.

انطلقا من سكة القصالي دون أن يراهم أحد وجلسا مع عبد الصمد يدخنون المعسل وقد قدم لهم بعض فصوص الأفيون، طلب ماجر من عبد الصمد رد الجميل، وافق عبد الصمد بكل قبول وطلب أن يدفع ماجر تكاليف التنفيذ.

- أنت عارف طبعا اللي حصل النهارده بينه وبين الشيخ صادق وولاده
- عارف يا صاحبي، سمعت.
- يبقى النجس ده لو مات هنا هتبقى مشكلة.
- متقلقش أنا عندي خطة متخطرش على بال ابليس نفسه، بس هتحتاج مصاريف.
- كام يا عبد الصمد، أقله 50 جنيه وبندقية مظبوطة.
- بكره يكون عندك المطلوب في تلا.

- اتفقنا يا صاحبي

أرسل عبد الصمد أحد صبيانه للتجسس ومعرفة أخبار السيد، وصلت إليه الأخبار أن السيد سيسافر بأمر العمدة في قطار الساعة الثالثة من تلا للحاق بقطار الخامسة من طنطا متوجهًا للقاهرة.

في الحادية عشر صباحًا وجد ماجر قد أرسل إليه أحدهم ومعه جوال فيه مبلغ خمسون جنيها وغدارة روسي خرطوش.

ظل يعمل في نعل حوافر البغال والحمير والخيل حتى وجد السيد يمر عليه داخلا لمحطة القطار، تبقى فقط نصف ساعة على موعد القطار، ترك صبيه يكمل بعض الأعمال وأخبره أنه ذاهب لورشة (نظيم) على أول طريق طنطا لاستلام بعض السلاسل والحدوات وبلاطات نعل حوافر الحمير، ارتدى جلباب نظيف وكبس اللبدة الصوف على رأسه وحمل في يده صرة متوسطة خبأ فيها الغدارة، ركب في نفس العربة التي جلس فيها (السيد) لم يرفع عينه عنها أبدًا حتى وصلا طنطا، ثم انتقلا إلى رصيف القاهرة، وانتظرا على الرصيف حتى موعد تحرك القطار، كان على بعد خطوات منه دائمًا ولم يره (السيد)، حتى صفرت صفارات القطار بالاستعداد للتحرك وجلجل الجرس، صعد السيد وجلس جوار الشباك الثالث في العربة الرابعة، جلس بالقرب منه على بعد مقعدين فقط، وما أن بدأ القطار في التحرك واهتزت عرباته بقوة عند بدء الحركة إلا وانتفض ونزل مسرعًا من الباب فمر عليه الشباك الأول والثاني وعند الثالث ومازالت حركة القطار تتسارع، فوجه الغدارة وهي على بعد شبرين فقط إلى رأسه وأطلق، فتناثرت قطع من رأسه على وجوه الركاب ولم يعي أي إنسان ما حدث، فقط بعد دقيقة ربما نظر الجميع ليجدوه ملقى للخلف ومسند على جدار القطار الحديدي والدماء تسيل بغزارة وتندفع في دفعات متسارعة، دفن الغدارة في الصرة وتوجه للمسير نحو منفذ النزول ليعبر النفق تحت الأرصفة كبقية الركاب القادمين من كفر الزيات متوجهين لتغير وجهتهم أو الانطلاق إلى شوارع طنطا، صعد من المنفذ الثالث إلى رصيف القطار المتوجه لمنوف ويعبر تلا في طريقه وجلس على مقعد خرساني ممسكًا بمصحف صغير وكأنه يقرأ فيه مطوحًا رأسه بهدوء كمن يحفظ القرآن أو يرتله.

توقف القطار في محطة المحلة الكبرى، هرع الجميع إلى الرصيف، صعد

العسكري المكلف بتأمين المحطة، صفر بقوة في صفارته، أبرق رئيس المحطة إلى محطة قطار طنطا بأن قطار 33 مراكز المتوجه للقاهرة والمنطلق من طنطا في الثالثة به قتيل في عشرينيات العمر مصري وتلميذ بمدرسة الحقوق، توقف القطار ساعتين حتى تم إنزال الجثة وتم إنزال كل الركاب في العربة للتحقيق معهم، تم الاستدلال عن عنوانه من خلال أوراق التحاقه بمدرسة الحقوق وبعض الكتب المدون عليها اسمه بالكامل.

في حوالي الساعة السابعة مساءً وصلت إشارة تليفونية رسمية بوجوب حضور العمدة نائل الفاضي إلى مقر مركز البوليس بمدينة تلا.

انتقل سريعًا إلى مركز الشرطة ليجد معاون المباحث يخبره بما حدث، سقط ولم يتحمل الوقوف وجلس على المقعد دون وعي، انتقلوا جميعًا بشكل رسمي إلى مقر وحدة بوليس محطة قطار طنطا الملاصقة لمبنى المحطة، وجد الجثمان قد تيبس ولم تستدل التحقيقات على أي شيء حتى أن بعض الركاب قالوا أنهم عندما نظروا تجاه الصوت وجدوه ينتفض ولم يروا لا بندقية ولا أي إنسان وبعض النسوة قالوا أنه انفجر رأسه من تلقاء نفسه، نقلت الجثة وصرح بالدفن وعاد به إلى القرية محزونًا وأبرق إلى أخيه في القاهرة

" احضر فقد توفي السيد"

دفن السيد في عمق الليل ورغم أخلاقه البذيئة ونظرات أعينه التي كانت تتصيد النساء وهن يملئن قدورهن من الصهاريج أو هن عائدات من الحقول إلا أنه قد خرج خلفه الكثير من الناس بعضهم لأنه قتل بهذا الشكل وربما لأنه شاب، وربما لطيبة القلوب.

بعد ثلاثة أيام وبمجرد ما انتهت مدة العزاء تلقى العمدة إشارة من المركز للحضور أمام مندوب من حكمدار بوليس المنوفية والذي أيد القرار بفصله مؤقتًا لحين البت في اختيار عمدة القرية.

وقع على المحضر المعد ثم توجه إلى مأمور المركز وطلب تقديم توضيح بشكل رسمي كتب فيه أن شعبان نصر الدين، الأميرالاي، هو من رفاق عرابي، وتم عزله من قوات الجيش، ولم يكن يعيش في القرية ولا يعرف عن أهلها وأحوالها أي شيء وبالتالي هو أحق بالكرسي والاستمرار.

دس السم في العسل والتقط السم المندوب القادم من شبين الكوم، لم يكن يرضى المشرف الانجليزي على مديرية المنوفية أبدًا أن يحتل أحد رفاق عرابي أو

من عاونوه منصب رسمي في أي مكان، كما أن القصر السلطاني مازال محتفظًا من اسم عرابي وكل رفاقه، ولكن التحريات التي بين يديه ترجح كفة شعبان نصر الدين لعزته بالأهل والأرض والتاريخ وحسن الوجود بين الناس مع توفر مبدأ القوة الذي يهابه الناس من أسرة عريقة وقوية.

بعد شهر تم التوصل إلى تعليق منصب عمدة القرية إلى أجل غير مسمى، ورفع التليفون وتحويله إلى مقر إقامة شيخ القرية على أن يقوم شيخ القرية بتولي أمور الناس والإشراف فقط على تنفيذ جدول الخفراء المعد مسبقًا من قبل مركز بوليس تلا على أن يتولى تنفيذه شيخ الخفرومن يعانوه من الخفر.

obeikandl.com

الشُرُوقُ

تسللت الشهور لتصبح سنتين، مرت أيام سنتين ومازال كرسي العمدة فارغ ومعلق، أصبحت الناس تجلس في المندرة المنصورة بشكل أهلي ورسمي، أصبح الشيخ الصادق عمدة القرية الفعلي دون اسم ومنصب رسمي، ازداد وزن نائل الفاضي وترهل جسده الطويل حتى أنه قد ظهر له لغد مفرغ أسفل ذقنه، لم يعد يتبختر في مشيته مثلما كان يفعل، كان يرفع عصاه المعوجة الكبيرة وهو سائرًا ليكاد طرفها يلامس النجوم ثم ينزل بها ويدب الأرض بكل قوة، كل يرفل في ملابسه الصوفية والعباءة الكشمير والطاقية المغزولة بكل فخر وامتلاء، كان يملئ المنصب والمنصب يملئه، لم يسقط كما تخيل البعض، ولم ينزوي بعيدًا عنهم، بل ظل متواجدًا يخرج في كل يوم ليتابع العمال والتملية والفلاحين في زراعة أرضه الواسعة، أصبح يتعمد الجلوس مع بعضهم تحت جميزة السيسي، كان الحلم بالعودة مازال مسيطرًا، كان التمنى بأنها فترة سوداء سرعان ما سينقشع لونها وتعود الأمور لنصابها الطبيعي، والنصاب الطبيعي أنه هو أول عمدة للقرية ومازال.

سنتين مرتا لم تحدث خلالهما صراعات ولا جرائم قتل في زمام قرية ميت أبو الكوم، سنتين مرتا لم تسمم بهائم أو تنشب حرائق ومعارك على أولوية ري الأرض، في كل يوم كان الشيخ الصادق يقرب أخيه الأكبر شعبان من الأهالي، غاب فترات كبيرة عن قريته، ابتعد عن عاداتها وأصبح فارس، ظل في القاهرة بعد أن ترك الجيش واختلط بطريقة الحياة هناك واعتادها، لم يكن يرغب الشيخ الصادق في أن يكون هو الآمر وصاحب الرأي وأخيه الأكبر يجلس جواره، ارتدى جلبابه واللبدة الصوف وأصبح يجلس على الكنبة الوسطانية ويملئ مركزه في المندرة المنصورة، من بعد آذان الظهر وحتى السهرة اليومية، موجود للفصل في أمور الناس، كان كريمًا، إذا ما مر عليه أحدهم يشكو ضيق الحال أخرج وأعطاه دون تردد أو سؤال، هو فارس وكلما اجتمع بعض الأطفال في المندرة سألوه عن

كل الذئاب والثعالب المحنطة في أركان المندرة، ليقول في كل مرة أن أخيه الشيخ الصادق هو من اصطادها.

عاد حفظي من القاهرة فقد أتم تدريبه كمحامي بعد أن أنهى دراسته لدى محمود بك رافع المحامي الشهير، أصبح رجلًا مكتملًا، مازال متعلقًا بنظيرة، أصبح الفصل الذي أنشأته معتمد من الإدارة الأميرية بشبين الكوم وأصبحت تكتب في جريدة الظلال التي تصدر بشبين الكوم وتوزع في النطاق الإقليمي لمديرية المنوفية والغربية، كان لها رأي ورؤية وتقريبا تقدم كل زملاءها لخطبتها.

زارها حفظي في مقر الجريدة منذ شهرين وتعمد أن يظهر في محور حياتها هناك كي يقوم لكل الزملاء هذه لي! !

عندما سألوها، قالت: إحنا بلديات مش أكتر.

جاء حفظي فرحا فاليوم أصبح محامي، وينتوي السفر لإكمال دراسته في فرنسا، كلما حاول الخروج ليلًا يضغط عليه أبيه بالا يخرج، فقد قتل السيد وذهب وانتهى في دقائق.

- قبل ما أسافر، لازم أتجوز نظيرة
- يا بني ما أبوك راح يخطبها، القطب رفض
- والقطب ماله، نكلم أبوها
- وتفتكر يعني شعبان هيعمل حاجة من غير ما يشاور القطب
- ياما أنا مش هاتجوز إلا نظيرة
- يعني سيبت بنات مصر كلهم وجاي تاخد نظيرة

أشارت الحاجة زهرة على زوجها نائل الفاضي بإعادة طلب نظيرة لابنه المحامي المحترم، فربما يوافق شعبان، وربما تكسر حالة الجمود فيما بينهم، في تلك المرة ارتدى حفظي بذلته الكاملة والطربوش وذهب برفقة والده بعد صلاة العشاء للقاء الأميرالاي شعبان نصر الدين، كان يجلس وحوله بعض الفلاحين اختلف أحدهم مع الأخر في تجهيز ابنته خطيبة الأخر، جلسوا حتى انتهى المجلس بالوفاق بين الفلاحين، ثم انتقل نائل إلى جوار الأميرالاي شعبان وقدم ابنه حفظي إليه، ابتسم الرجل ورحب به ودعا له بالنجاح والنصر، طلب منه ابنته وهو يبتسم في شبه توسل.

- نظيرة قرينا فتحتها لشعبان ابن اخويا يا حاج نائل.

صمت نائل كمن ألقمه صخرة حارقة في فمه، ثم تنبه بعد أن نظر إلى وجه

ابنه، وأشاد بحسن الاختيار وبأنه من يكون أأمن على العرض إلا صاحبه، شكر له الأميرالاي شعبان حسن رده قائلًا:

- أني شايف أهه أدامي، شاب تتمناه زينة الصبايا

لم يرد حفظي، لم ينطق حاول أن يبتسم، فلم يستطع، دقيقة مرت وكأنها زمان واستأذن نائل وفي يده ابنه وانصرف.

دقائق ونادي الشيخ إبراهيم الإمام ومحفظ القرآن، جاء كوسيط خير بطلب من الحاج نجاح رميح عمدة زرقان في استكشاف رأي عائلة نصر الدين في خطبة ابنتهم نظيرة لابنه عطية، شيخ أزهري يعمل كمدرس في المعهد الأحمدي بطنطا وله منزل ملك في منطقة سيجر بطنطا اشترى أرضه أبيه وبناه له على طراز منازل بندر طنطا يقيم فيه ولا يعود إلا في حال الانقطاع عن الدراسة في المعهد الأحمدي وقت الأجازة الصيفية والأجازات الموسمية، له أختان فقط وسيرث أبيه في 27 فدان وثلاثة دور وقطيع كبير من المواشي التي يشارك عليها بعض الفلاحين بالإضافة لكونه شخص يحفظ القرآن ويعلمه وإن أراد كرسي العمدة فهو مضمون.

أنهى الشيخ إبراهيم نقل رسالته وانتظر الرد فأتاه من فم الشيخ الصادق وهو جالس بجوار أخيه الأميرالاي شعبان، بأنه قد تمت قراءة الفاتحة على تزويج نظيرة لابنه شعبان، بارك الشيخ إبراهيم وفرح وأخبرهم أنه كان قلقا من أن تخرج تلك الدرة من قريتهم وأن تكون لشاب من غير ذوي دمها.

- ولم يعني قريتوا الفاتحة يا شيخ صادق، ما قولتوش ليه، مفرحتوناش ليه معاكم، ولا يعني ما هو عشان العريس ابنكم والعروسة بنت عمه تختصوا نفسكم بالفرح

- يا إبراهيم يا بن خالتي عيب الكلام ده، أنت مش غريب يا أخي، كل الموضوع إن نظيرة قالت نأجل الموضوع وأدينا يا سيدي خلاص، السنة دي إن شاء الله في الصيف ولم يرجع شعبان من مصر نفرح بهم كلنا، أنت بقي بلغ الحاج نجاح إن البنت مخطوبة لابن عمها

- أبلغ الشيخ نجاح ولا كل اللي الشباب اللي بيفتحوني في الموضوع كل يوم

- مين يا إبراهيم؟

- يا سيدي دا مفيش شاب شايف نفسه في البلد مطلهاش، كل شوية ألقي واحدة من دول جايبة اشي زفر واشي خير من خيرات ربنا وجاية تتراجاني أطلب

البنت لابنها. .

- الله، ومقولتش يعني.

- وأنت كنت عايزه يقول إيه يا شعبان؟

نظر الأميرالاي شعبان لأخيه الصادق وفهم الرسالة من شكل وجهه الذي جمد وارتسمت الملامح ثابتة، لا غاضبة وإنما تحمل رسالات كثيرة، فصمت، شرب الشيخ إبراهيم واستمتع بشايه، وخرج مسلمًا وقد وعى تمامًا مقصد ابن خالته الشيخ الصادق، فمن عادة عائلة نصر الدين أنها تزوج بناتها لأبنائها ولا تتركهن يخرجن خارج إطار العائلة إلا لظروف معينة وهي قليلة جدًا حفاظًا على الأصل والأرض والعرض.

لم ينطق حفظي، أغلق عليه غرفته ولم يحادث أحد، مر أسبوعين ولم يسافر إلى القاهرة لمتابعة عمله وحلمه بافتتاح مكتب للمحاماة، كانت تريد الحاجة زهرة أن يفتتح مكتبًا للمحاماة في مركز تلا أو على الأكثر في مدينة طنطا فيكون على مقربة منها وهو كان يحلم بافتتاح مكتب بالشراكة مع صديق له في وسط مدينة القاهرة.

إذا منع الإنسان عن رغبته، تمسك بها أكثر ورأى كل العيوب في الرغبة مميزات وأهداف، وإن رفضته هي أو استطاع أن يحادثها مطولًا لتناساها أو نسيها بالفعل، وإنما كلما كان يحاول الاقتراب كانت ترفض، فقط كان يستمتع بالنظر إلى وجهها وعيونها وبعض الكلمات التي تسقط من فمها وهي ترد عليه الكلمة بمثلها، أحس بالتصغير، أحس بعدم القيمة، تخيل أنها رفضته في أول الأمر لأنه ابنا للعمدة وانتظر حتى يكمل دراسته ليصبح محامي، وما أن أصبح محامي فكانت هي صحافية وصاحبة ومؤسسة فصل دراسي في القرية، لم يشعر منها بالتكبر والتعالي مثل أبيها وعمها، وإنما أحس فيها بالقوة والاعتزاز بالذات، ربما كان عشقه لها نابع من ذلك الإحساس، عرف الكثيرات منهن أثناء إقامته في القاهرة، رافق السيد بن عمه وذهبا سويا لبعض بيوت البغاء، نهل من كل الزهور التي وجدها أمامه بعض الرحيق، عرف صديقات من بنات العائلات في نوادي القاهرة، لم يشغف قلبه إلا لها، واليوم قد تبعثر شعر رأسه الطويل وطالت لحيته ولم يعد لملابسه هندام وهو يتمدد على السرير في غرفته وقد أبدل هوائها إلى دخان من كثرة السجائر التي دخنها، انشغل نائل بمتابعة أرضه وثروته يحاول تضخيمها حتى يعود العمدة مرة أخرى ويستطع أن يتبختر بين الخلق،

ومادام حفظي في الدوار فلا قلق، شاب صغير وشغف بها ربما بعد أيام يستفيق وينتهي، هكذا قال لنفسه، بينما أصبحت حالته في كل يوم تسوء عن ذي قبل، جاءت الحاجة زهرة ب نواره خادمتها، فتاة لعوب وسلوكها مشين، كانت تخدم في بيت من بيوت المركز وأصلها من القرية، توفي أبويها منذ سنوات وتركت تصارع الفقر والاحتياج حتى أرسلها العمدة لتعمل في بين صروف أفندي مدير السجلات في مركز تلا، نقل الرجل وجاء بديلا له أحدهم ومعه زوجته وأبناءه فلا حاجة لها عنده فعادت واستبدلتها الحاجة زهرة مردات بها، كانت ترتدي جلابيب إفرنجية وطرحة قصيرة تظهر خصلات من شعر رأسها الفاحم تتلوى فيه حين تمشي كغزال طامح الوصول لقمة الجبال، كبر زوجها ولن ينظر إليها وإن فعلها فماذا تفعل؟ وهي شبه مقعدة بآلام ظهرها ومؤخرتها الضخمة التي وإن وضعتها على مقعد يصعب عليها رفعها إلا بعد صراع، لم يفعلها العمدة ولم ترى في نظراته ما يوحى برغبته وكأن الدنيا كلها أصبحت باردة ومملة ما أن فقد كرسي العمدة، قربتها منها وأخبرتها أنها ستجزل لها وإن أخلصت ستزوجها من شاب محترم من أبناء القرية، أصبحت تغسل لها قدميها وتحممها وتدلك مفاصلها المتيبسة، كانت جميلة، يزداد وجهها إشراق إذا ما ابتسمت أو ضحكت، طلبت منها أن تحاول إخراج ابنها مما هو فيه، وستكافئها.

حاولت وأصبح لا يدخل عليه غرفته إلا هي تحمل على طبق نحاسي رقيق فطوره أو عشاءه وربما فنجان صغير من القهوة، حاولت وأظهرت مفاتنها أمامه، لم ينفعل إلا بعينيه، ولكنه أكل على غير العادة منذ أيام، أجزلت لها وأعطتها جنيهان دفعة واحدة وضعتهم في صدرها وهي تقبل يدها، خرج لأول مرة منذ أيام وجلس على مقعد من الجريد على شرفة المندرة الكبرى، لم يحادث أحد ولم يلفت انتباهه أي شيء سوى والدته التي جلست جواره تربت على ظهره، رأت في عينيه دموع ولم يشأ أو يستطيع إسقاطها، بعد دقائق قام ليدخل غرفته ثم عاد وفي يده أوراق بيضاء وقلمه والمحبرة، ثم جلس على كرسيه وجذب أمامه منضدة صغيرة شكلها سداسي ووضع الأوراق أمامه وحبر القلم ثم وقف به على رأس الورقة، لم يكتب شيئًا وإنما سرح فتقاطرت نقاط الحبر على الأوراق وشكلت بؤرة كبيرة وأخرى أصغر وبعدها نقطة صغيرة، نظر إلي الورقة، وسرح في الشكل الذي ارتسم بفعل نقاط الحبر وكتب:

ترى أأكون أنا كتلك النقطة الصغيرة

ترى أتكونين أنتي كبيرة ومتسعة
ترى أأحببتك أم عشقتك أم أن لي شيطان هو دافعي
ترى ألا أنني قد ارتشفت القليل فعزفتي عني
ترى أستطعتي أن تتشممين روحي
ما أنت إلا وعاء وحولي الكثير من الأوعية
أوعاء من فضة أو ذهب كنت وحولي أنا نحاس وقصدير
لم أرك وعاء بل ناظرة للأقمار تلوحين بيديك لهم
أه يا نظيرتي، ماذا فعلت لكيلا ترغبينني؟

أيام وشهور مضت، وجاء الصيف، وتموجت الرايات الخضر أمام نسمات عصر يوم صافي وهي معلقة فيما بين سطح بين الصادق نصر دين والأشجار على حافة الترعة والأطفال يلهون ويمرحون وأصواتهم تختلط بأصوات أناس يستذكرون الله ويقرؤون آيات وأوراد حافظة، خرجت روائح مختلطة من الأفران والكوانين والمستوقدات في البيت الكبير تذيع للكل أن ها هنا لدينا عرس وزفاف وفرح، الدار تتلألأ وكل جدرانها دهنت بألوان بلون الزرع.

صلي العصر وخرجت الجموع كبار وشباب وأطفال يتتابعون في المسير نحو دار الصادق لمشاركته العرس، وقف عازف المزمار ينفخ فتتراقص الخيل، والفتية يرتدون جلابيب جديدة ويزينون رؤوسهم بلبدات مستوية وفي أيديهم العصي يتبارزون بها، وفي الداخل تتوسط البنات والنسوة في الفناء الكبير نادية المرددة تتغني بصوتها الحياني بأغاني تراث الريف وترقص البنات الصغار وتتغامزن وفي أيديهن طبال صغيرة ينقرون بها في نغمات توافق الكلمات.

في المساء وقف الشاعر ينشد ويتغنى بأبيات صوفية، ويحكي من الأثر وداخل المندرة المنصورة يجلس الشيخ شعبان عريس اليوم ويجلس بالقرب منه أبيه وعمه ومن حولهم كل زملاءه والأصدقاء ويقف القطب وصديقه على الباب الرئيسي مرحبا بمن يقبل لحضور عرسهم.

صوت المنشد يتعالى ويتواتر في الأفق فوق كل دور القرية ويصل إلى مسامع حفظي في داره، يصم أذنيه فيراها أمامه كما رسخت دائمًا، حاول أن يخرج فلم يستطع وإنما عندما هب نافرًا ليخرج من غرفته هائجًا صدمت ركبته اليمنى في حافة السرير الحديدي فجرحت وسقط يتألم على الأرض، لم يرى شيئًا فقد كان يجلس في ظلام مستمر.

أرسلت الحاجة زهرة إلى زوجها، فقدم من عرس الشيخ صادق بعد أن استأذن بخجل، وجد ابنه وكأنها قد زنق ما بين سحب ثور ضخم وحجر طاحونة ثقيل، احتضنه وهو يخاطب قلبه الذي كان في يوم منطلق، يحب الناس ومن أجل ذلك اختار مدرسة الحقوق كي يكون في خدمة البشر.

بعد شهر رحل الشيخ شعبان إلى داره في طنطا ومعه زوجته، ولم يرحل الهم عن حفظي بل زاد ودار حتى لفه كله، كره كل شيء، حتى أنه في تلك الليلة دخلت نواره تسري عنه فاعتصرها بين ذراعيه وعاشرها كمن يضرب ويتشفى لا لقاء حميم يشفي القلب والجسد، تغنجت عليه بعد أن انتهي، فقذف بها إلى خارج الغرفة فارتطمت بالسور الصغير فجرح كتفها وانسلخ عنها بعض الجلد ومازال ماءه سائل على جسدها، صرخت وبكت فخرج إليها نائل وهو عاري الرأس يرتدي قفطان مقلم من السموكن الحريري، هدأ نفسها وربت على ظهرها وساعدها حتى قامت وأخذها لتجلس تحت رجلي سيدتها، هدأتها واختارت أن تداعب قلبها بعدة جنيهات أطارت الدموع من عيونها وتبخرت ما أن رأت الجنيهات، خطفتها لتدثر بها صدرها.

لم يكن حفظي غير واعي أو سارح بل كان طبيعيًا إلا من شيء راسخ في داخله يدفعه لكره كل شيء، فعندما طلب منه أبيه أن يزور طبيبًا في طنطا رفض بهدوء لا انفعال قائلًا لأبيه:

- أنت هاتعمل زي الحاجة يا عمدة، أنا كويس مش محتاج لا حكيم ولا دوا.

جلست الحاجة زهرة تندب حظها بين بعض النسوة وهن يزرنها، أشارت إحداهن أنه يجب أن تجلب أبو التوالت كي يكشف البخت ليرى ما يعطل حياة ابنها.

أرسلت في طلب من يستقدمه من قرية زرقان المجاورة فجاء إليها وطلب فنجان من القهوة.

رجل مهندم الملابس شيخ من شيوخ الأزهر لم يكمل طريقه وإنما انزوى يخرج الجان من أجساد البشر ويصلح الزوجة ويكشف الغيب عن ما منعت عن أن تلد، زادت شهرته حتى أصبح له عملاء في طنطا وكفر الزيات وجاء إليه أناس من مديرية البحيرة يحملون كل الخير والأموال طالبين رد ابنتهم التي اختفت ولا يعرف لها أثر، صرفهم وبعد أسبوعين أرسل لهم في أن ابنتهم متزوجة من شخص يدق بالطبلة في طنطا وتسكن في بيت صغير في درب الأثر، ذهبوا فوجدوها تحمل

صبيًا على ذراعها، عرفوا أنه ابنها وأنها تزوجت الطبال على سنة الله ورسوله ووليها كان أحد محفظي القرآن العاملين بكتاب السيد البدوي، تركوا لها المال واستقدموا زوجها طالبين أن يغير مهنته وأن يحفظ لهم ابنتهم ودورهم مفتوحة لهم وقتما حضروا، لم يعودوا إلى بلدتهم بل ذهبوا إلى زرقان واجزلوا العطاء للعارف أبو التوالت.

اسمه ناصر الشاكر ولقبه الناس بابوالتوالت لمعرفته بفك السحر والربط وتقفي الأثر، حكت له الحاجة زهرة عن ما صل إليه ابنها، لم تستطع أن تخبره أن السبب كان عدم زواجه من نظيرة وإنما قالت أنه أصيب بما هو فيه وازداد يومًا بعد يوم، طلب لقاءه، فرفض، وخرج من غرفته وطرده بكل انفعال فرآه أبو التوالت كثور يكفي قرونه الضخمة للأمام استعدادًا للانقضاض على غريمه.

بعد يومين جلس في المندرة الكبرى أمام نائل الفاضي وطلب نصف فدان وجاموسة تدر لبنا، لم يرفض الرجل وإنما وعده بما هو أكثر إذا ما استفاق ابنه مما هو فيه وعاد إليهم.

- لا مش عايز أكثر يا عمدة، أني طلبت نص فدان وجاموسة فيها لبن

- ليك اللي طلبته يا شيخ

- اتفقنا وإن خلفت؟

- أني مخلفش كلمتي أبدًا يا أبو التوالت لو كان في أيدك علاج ابني اللي هتؤمر بيه هيكون.

- اتفقنا

غاب أبو التوالت يومين، ثم عاد وفي يده مطحون في عبوة زجاجية صغيرة وملفوفة بخرقة بالية رائحتها كبول الكلاب وأفظع، أعطاها لنائل وأخبره أنه بعد أسبوع من الآن يجب أن تنقع في ماء صافي ويشربها ابنه بعد آذان الفجر ولمدة سبعة أيام متواصلة، وأن لا يلبي له طلب مهما كان حتى يؤذن للظهر.

فعلوا ما طلب وارتدت لحفظي صحته في كل يوم شيئًا فشيئًا كطفل يكبر وتظهر ملامح وجهه وتحفر العظام وتنحت.

عاد منطلقًا كما كان وارتدى بذلته كاملة وحمل في يده حقيبته الكبيرة وأوصله نائل بنفسه حتى محطة قطار طنطا وهو متوجهًا للقاهرة لافتتاح مكتب للمحاماة وبدء طريق له قد توقف عنه ما يقرب من سنة.

البكورُ

لم تنجب نظيرة ولم يظهر عليها بوادر الحمل، ولم يلقى بالا زوجها شعبان لطلبات أمه (منارة) أو أبيه الشيخ الصادق، وإنما قد طلبا لإدارة المعهد الأحمدي والتحقت هي الأخرى بفصول الفقه والحديث مثل ثلاثة بنات أخريات التحقا بالمعهد للدراسة من بنات أعيان طنطا وشيوخها.

رافقته في كل لحظة، أسعدت أيامه ونورت لياليه فأصبح في كل يوم يرتقى بزهو بين زملاءه يكمل دراسة الدكتوراه وهو موظفًا وهي تستذكر معه وتناقشه في كل ليلة، ضمهم الحلم بالانتقال للقاهرة ليعمل كمدرس في إحدى الكليات العليا بالأزهر وهي تكون قد عادت لفضاء أكبر تجد فيه الحيز لإثبات ذاتها.

عادوا في الصيف إلى القرية لحضور عرس القطب من حجازية ابنة خالته، كان عرس كبير حضره كل أهالي القرية والقرى المجاورة وسار المحمل بجهاز العروس من بيته إلى بيتهم يرافقه المزمار والخيل والأعيان كلهم.

مرت شهور ولم يتسلم أبو التوالت جاموسته فقط تسلم حجة نصف فدان اختاره ليكون في الحوض الغربي بجوار أرض الشيخ الصادق وأبناءه، طالب به فاجل نائل طلبه متعللًا بأنه لا يملك إلا جاموسة واحدة قد ولدت.

اغتاظ أبو التوالت، قابله سائرًا على جسر الترعة الزرقانية فكرر طلبه ووجهه صارمًا فأخبره العمدة أنه سيلبي طلبه في الموسم القادم، رفض أبو التوالت وطلب تحقيق طلبه قبل أن يمر اليوم، فهاج عليه نائل وسبه أمام الفلاحين ولما رد له سبته، ضربه على وجهه فطارت اللبدة والشال عن رأسه، ركع ممسكًا بالشال واللبدة واعتدل قائلًا:

- اتفقنا وخلفت اتفاقك، و النهارده مرمطت كرامتي في الأرض، اخسر دراعي يا نايل لتدفع مالك كله قصاد اهانتك ليا.

دفعه نائل في صدره بعصاه وأكمل سيره متوجها للقرية ومن خلفه يسير أحد التملية ممسكًا بحبل حصانه الأسمر.

شهد الكثيرين من الفلاحين على ما حدث، فقد تجمعوا حول تابوت التاجي

بعد أن رفعوه من بئره لصيانته وتطهير البئر بعد أن امتلئ بالطمي وأصبحت المياه التي تخرج لا تناسب حجمه، في وسطهم كان يقف عبد الصمد التاجي صاحب التابوت أعرج قد شمر جلابيته بأن أدخل ذيلها وأخرجه من الفتحة الجانبية حتى لا تتسخ وبعد أن شمرها ظهرت رجله الخشبية، كانت قطعة من الخشب اسطوانية الشكل تتصل بمقعد قعره غاطس على شكل رجله بعد أن قطعت وهو يستخدمها بشكل ميسر فعندما ضرب جاءت الضربة على الجانب فأصابت العظمة تحت الركبة مباشرة فهشمتها وتخسرت الدماء فاضطر الأطباء لبترها حتى لا تسمم كامل الجسم وحافظوا على ركبته ومن تحتها مسافة قليلة، عاني بعد أن قطعت رجله لعدة أيام حتى استطاع التوازن بشكل كامل وأصبح يستخدمها كرجله التي خلق بها.

ضرب عبد الصمد كفيه في بعضهما وفركها من الطين والتراب وذهب لأبو التوالت، دعاه للجلوس معه ومباركة التابوت بعد أن أنزلوه وقدم له كوب من الشاي وهو يسب نائل الفاضي ومن يشابهونه وذكره بان النصف فدان الذي اشتراه منه كانت تملكه أم صابر الفقيرة التي مات زوجها بالحمى منذ سنوات وتركها وفي يدها بنت وعلى صدرها وصبي يرضع، لم تستطع أن تزرعه وبجواره أرض نائل كان يتعمد أن يصنع فتحات في الحد فيما بينهم فتغرف زراعتها وتموت ومن قبل ذلك هو من وضع السم لزوجها عندما رفض بيع النصف فدان له.

لم يتحدث أبو التوالت وإنما فقط اكتفى بهز رأسه ببطء لأسفل وهو مرتكز وناظر للأرض أمامه وممسكًا بكوب الشاي يرتشف منه كل دقيقة رشفة، وبعد أن انتهى منه نظر بهدوء لوجه عبد الصمد قائلًا:

- أرى شيطانك يا عبد الصمد
- يا شيخ أبو التوالت، دا أني غلبان وأعرج كمان
- ليا مصلحة معاك!!
- مادامت مصلحة، أهلا بك يا شيخنا.
- لست شيخكم يا عبد الصمد، بل رفيق درب.
- رفيق درب؟
- أصحاب في مصلحة نعملها سوا، هابقى أمر عليك بالليل.

في عمق الليل وكل البشر في القرية وكأنهم أموات في بيوتهم، لا حياة في القرية

إلا لحيوانات وطيور خلقت لترعى بعد أن تطمئن أن البشر قد ماتوا، رغا الجمل الكبير بشدة وتحشرج رغاءه وكأنه يقبض على شيء بين فكيه، اهتاجت البهائم ونق الدجاج وكأنه قد دخل عليهم حظائرهم حيات تسعى تحت حوافرهم، استيقظ التملية وفزعوا أناروا اللمبات الصفيح وأشاروا بها يحاولون اكتشاف ما يحدث، لا شيء وإنما الجمل الكبير وكأن في خفيه نار.

يصيحون على نائل فوجدوه قد استيقظ وخرج إليهم بقفطانه ممسكًا بعصاه، خرج خلفهم ليرى ما يحدث وما أن أقبل بالقرب من الباب الكبير لمدخل الحظيرة الكبيرة فوجدوا الجمل قطع مزق حبله بأسنانه الكبيرة وفتح شادقيه على وسعهما وخطى خطوتين فقط فأصبح برأسه فوقهم أنزل رأسه وهو يرغي بقوة وضم شادقيه على كتف نائل بعد أن أطاحت أرجله الطويلة المهتاجة ببعض الأنفار، قضم بقوة فجعر نائل، حمله بفكيه وقذف به بقوة فارتطم بجدار المندرة الكبيرة وانطلق يهرول ويتمايل حتى البوابة الرئيسية وانحنى بكتفه يرتطم بها حتى فتحت، انطلق ورغاءه يرعب القلوب وفي دقائق اختفي في الظلام الذي يخيم على الشوارع، حملوا نائل وهو فاقد الوعي إلى المندرة الكبرى، وأرسلوا في إحضار المجبر (حسن متولي)، جاء حاملًا لحقيبته بعد أن ركن دراجته على السور، تفقد الجرح فوجده قد تقابلت أسنان الجمل عبر لحم الكتف، لا تسيل منه الدماء وكأن الأسنان لم تخترق أية شرايين، قلبه ليرى الجرح من الخلف، أخرج مقصًا من حقيبته ومزق القفطان وسكب الكحول على الجرح ممسكًا بقطعة من القطن يمرر بها الكحول ليدخل إلى منافذ أسنان الجمل، استفاق نائل وهو يهذي قائلًا:

- اطلع يا عبد الصبور بالبندقية أنت وفتحي ومحمدين ومترجعوش إلا لما تضربوه.

نظروا لبعضهم، أيهذي أم يأمر لم يتحركوا، صاح بضعف فيهم:

- اعملوا اللي بقولكم عليه، الجمل هبش وأول ما هبش هبش اللي أكله ورعاه، الجمل ده أني مربيه على أيدي، مادام جه بعمايل البني أدم يبقى لازم يموت وأوعوا يالاه أنت وهو تسيبوه هنا ولا هنا لحمه دلوقتي سم، اضربوه في دماغه وادفنوه.

خرجوا بحثًا عن الجمل، جابوا القرية كلها، لم يجدوه، عادوا إليه، نهرهم وهو يسعل، وأخبرهم أنهم سيجدونه في الحوض الغربي، فهذا الجمل عندما كان

يعلق في تابوت نصر الدين لم يكن يريد المغادرة رغم إرهاقه لساعات بجر عجلة التابوت الثقيلة.

ذهبوا إلى تابوت نصر الدين فوجدوه يقف في عرض الطريق ناظرًا لمن يقدم من ناحية ميت أبو الكوم، رآهم فلم يتحرك وإنما لمعت عيناه وهو يميلها قليلًا ناحية الشمال، خافوا، وجهوا بنادقهم ناحيته، لم يتحرك، اقتربوا بحذر على مسافة ليست قليلة وإنما وإن هجم عليهم يستطيعون الهرب، وجهوا بنادق وأطلقوا، أصابته الخراطيش فظل واقفًا لدقائق ثم سقط فجأة وظل يخرج أنفاس حارة من فمه وشادقيه يتحركان عكس بعضهما ورغاءه يخترق الآذان فيرعب صاحبها.

استقدموا في الصباح طبيب من المركز، طهر الجرح وقال:

- إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا فالجرح قاتل وإنما سيعطيها بعض الأدوية باستخدام الإبرة في كل صباح.

ظل أسبوعين ولم تتحسن حالته وإنما ثبت الجرح على حالة، لا شفي ولا تعفن، أرسلت الحاجة زهرة في طلب أبو التوالت، جاء إليها ولم يدخل على نائل فقط انتظر في المندرة الكبرى، طلبت مساعدته، طلب جاموسة وبقرة.

- ادخل يا خويا واسحبهم بنفسك

- أني مش عايز حاجة لنفسي، دول طلبات ليهم، وأني عبد المأمور.

- اللي تؤمر بيه يا خويا

- بعد ليلتين ويوم هيفوق ويطلب يشرب، البنت نواره هي اللي تسقيه بأيديها، ومحدش يدخل عليه.

بعد ليلتين وفي نهاية اليوم الثالث، استفاق عطشًا، طلب الماء، دخلت عليه نوراه، سقته وغابت لساعة ثم خرجت.

بعد سبعة أيام، استفاق نائل وشفي الجرح تاركًا أثرًا غائرًا وبارزًا كلما مرت عليه أصابعه شعر بآلام عضة الجمل وكأنه يعضه في حينها، اعتاد أن يأكل ويشرب من يدي نواره، لاحظت الحاجة زهرة بريق عينيه كلما مالت أمامه تضع طعامًا أو ترفع شرابًا.

- بالراحة على نفسك يا نائل

- بالراحة من إيه يا حاجة

- يعني متحركش ياما، عظمتك كبرت يا راجل.

- كبرت يعني ايه يا زهرة
- يعني شوف حفظي فين الأيام بتجري، مش تجوزه وتفرح بيه.
- وهو أني اتأخرت مش هو اللي قال يسافر أوروبا يدرس.
- ابعتله يا نايل، يرجع يتجوز ويحوط على أرض أبوه اللي التملية بقوا بيسرقوها عيني عينك وأنت قاعد هنا.

أرسل لحفظي خطابا يطلب فيه عودته لمرضه، رد حفظي بأنه لن يعود قبل ثلاث سنوات حاملا للدكتوراه، بعد شهر أرسل خطاب لوالده يخبره فيه أنه قد تزوج من فتاة فرنسية تصغره بعام واحد وتدرس الفلسفة.

تكور أسفل بطن نواره، وطري كل جسدها وملئ وجهها بالدم، أمسكت بها الحاجة زهرة ولفت بين أصابعها كل شعرها، عرفت أنها حامل وتريد أن تعرف صاحب النطفة، أخبرتها نواره أنه لم يقربها أي إنسان إلا ابنها ومن بعده زوجها ولم تخرج من القرية أو الدوار، صمتت وسرحت وهي تترك شعرها شيئًا فشيئًا، أخبرتها أنها كلما كانت تسهر على راحة الحاج نائل، كان يحتضنها ويعاشرها وهي لم تشأ أن ترفض خوفًا منها.

- البت لازم تسقط يا نايل
- عايزة تسقطها ليه يا ولية، ولما تموت؟
- ما تروح في ستين داهية، يعني عايز تتفضح يا راجل.
- أني أتفضح، ليه؟ البت حامل واللي في بطنها ده ابني
- يعني إيه يا نايل؟
- يعني هاتجوزها يا ولية.
- تتجوزها يا شايب، دانت مبتقدرش تصلب طولك
- دلوقتي مبقدرش أصلب طولي ومن خمس سنين وأني صابر على همك ومرضتش أتجوز عشانك.
- يا ريتك اتجوزت ولا قولت كنت جوزتك أني بنت أصول، دي؟ دي يا نايل؟
- مالها، بنت زي اللوز و فايره، وخدامة ولا البشوات، هاعوز إيه تاني أني؟
- ولما تلف على عيل يا راجل وتفضحك؟
- وهي كانت لفت وهي حرة يا ولية
- طيب وابنك وبنتك، يودوا وشهم فين من الناس يا راجل
- اطمني يا ختي، ابنك اتجوز فرنساوية، وبنتك خلاص قعدت في مصروجوزها

معدش له مجي البلد تاني.

تزوجها نائل ووضعت ابنه اسماه حسن، وبعد أن ولدت بأيام ماتت الحاجة زهرة، أصبحت هي ست الدواروالدار، كبرالرجل فجأة واستنزفت صحته لم يكن له من يومه إلا ملاطفة ابنه الرضيع وقراءة بعض الصحف والكتب، أكل أرضه التملية وانتشر الفلاحين المحتاجين يخطفون من أرضه أحمال البرسيم في وضح النهاروجارعلى حدود أرضه الجيران.

في عصر يوم مكفهر والشمس تختبئ خلف السحب المتكاثرة والجو يملؤه التراب زاره أبو التوالت، جلس أمامه، فذعر الرجل واحتضن ابنه بشدة فبكى الرضيع وصرخ، هرولت نواره من داخل الدارنحوصوت رضيعها الباكي، تجمدت عن الباب ما أن وقعت عيناه على أبو التوالت،

- تعالي يا نواره متخافيش، أني مش جاي أخد ابني دلوقتي أني جاي افكرنايل.

- ابنك مين يا نجس، وتفكرني بإيه، قوم فز من أدامي، أحسن والله أدخل أجيب الغدارة واضربك بالنار.

- يا راجل وتفتكر إن صوابعك فيها حيل تشد الزناد؟

- بقولك قوم فزيا نجس

- أني هاقوم بس جيت افكرك بأنك أنت اللي جنيت على نفسك أنت اللي خلفت وعدك، وأني خدت باقي اتفاقنا القديم ويوم ما حلفتلك أني هاخد مالك كله، أهه، خلاص، الواد اللي في حضنك ده، نطفة شيطاني ومش هتلحق تشوفه بيمشي يا نايل

- قوم ياكلب يابن الكلاب من هنا.

خرج من داره وهو ينظر إلى نواره بتهديد وتخويف، ارتعدت وارتمت على نائل وحملت ابنها في حضنها تمس شعره ورأسه حتى هدأ وما أن انتبهت لتجد نائل مائلًا على جنبه ويتنفس بصعوبة.

صرخت واستنجدت بالناس، جاء بعض التملية العاملين بنزح روث المواشي على الحمير من الحظائر، حملوه إلى غرفته وهو تتحشرج أنفاسه، دلكوا له صدره، وفتحوا الشبابيك واستغاثوا صراخًا، تجمعت ناس كثيرة داخل الفناء وأمام المندرة.

الغُدْوَةُ

مات نائل ولحق بزوجته، استدعي أخيه من القاهرة، رجل عجوز وكأنه قد بلغ التسعين، شعره أشعث، والجلد ترهل على وجنتيه ومن تحت أعينه، حضر العزاء لا يقوى على الوقوف كثيرًا بين أخ زوجة أخيه والشيخ الصادق وكبار أهل القرية.

عقدوا جلسة بعد العزاء وخلصوا إلى أنه يجب إرسال خطاب لابنه في أوروبا، بحثوا في أوراقه وأرسلوا خطابا له، لم يصله فقد كان يقضي رحلة مع زوجته الفرنسية بقضاء يوم في كل بلده يتجهون دون ترتيب فقط كيفما أخذتهم أرجلهم.

مرت أيام العزاء وجلست نواره أمام ابنة نائل وزوجها زكي أفندي تاجر القطن الكبير، هددها وطردها من بيتها، دخل عليهم فجأة أبو التوالت.

- أنت بتطرد مين يا أفندي

- أنت مين؟ وإيه اللي جابك هنا؟

- أني، أني خطيب نواره وهاتجوزها بعد شهور العدة.

- إيه؟ بتقول إيه يا مخرف أنت.

- بقول اللي سمعته، والداردي دار نواره وابنها هو الوريث الشرعي لتركة نايل وهي الوصية عليه، يعني أنت ومراتك دي تيجوا بعد كده بعد ما تستأذنوا.

- نستأذن مين يا كلب! !

فز من جلسته وقام رافعًا عصاه الأنيقة على أبو التوالت ردها بقوة بعصاه الغليظة وهدده بان يلتزم حدود الأدب بدلًا من أن يطرده.

عقدت الجلسة في دار الشيخ الصادق بصفته شيخ القرية والقائم بحل كل المشكلات، جلسوا أمامه وهو ينظر إلى أبو التوالت نظرة من أسفل، أصبح الرجل شيخا في القيمة وشيخا في الجسد.

حددت جلسة في المحكمة الشرعية بتلا، وخرجت الفتوى بأن ترعى نواره شئون التركة كوصية على ميراث ابنها على أن لا يورث لعدم وجود الوريث الشرعي الأخر وهو أخيه الأكبر.

تزوجت نواره أبو التوالت، ربما رعبًا وخوفًا، كانت الأساطير التي تنتشر حول اسمه تصيب جسدها بالرعب ما أن سمعتها، عندما كانت تراه يمر من هنا أو هناك كانت ترتعد فرائصها لتهرب بعيدًا عن طريقه، وقد رأته يشفي حفظي ويصيب نائل، قال لنائل في وجهه أنه سيتزوجها، لم تنطق، وإنما في يوم جاء إلى الداروفي يده المأذون المرتعب منه. كتب عليها ودخل بها في نفس الليلة على سرير نائل وفي غرفته كما هي.

عادت ابنة نائل وزوجها إلى دار الشيخ الصادق، تبكي وتنوح وتتألم على كل ما فات، هدأها الشيخ الصادق وانتظر سماع ما تريد.

أرسل في طلب أبو التوالت، وأخبره أنه ولو حتى قد تزوج نواره فلا يجب أبدًا أن يقيم في منزل نائل، فله ابنه الكبير غائب وها هي ابنته وزوجها، فرد عليه بحدة:

- أن هذا بيت زوجته وابنها من نائل وهي حرة فيما تملك.
- كيف تملك والمحكمة لم تأمر بتوزيع التركة لأن حفظي غائب
- إلى أن يعود حفظي فستبقى نواره وابنها في ميراثهم.

قام القطب منفعلًا ووجه كلمات قاسية، أهان فيها أبو التوالت، وقف أبو التوالت ناظر للشيخ الصادق كي يرد ابنه، فأشار لابنه أن يجلس ونظر لابو التوالت يدعوه للجلوس ثانية

- وأنت شايف إيه يا ناصر؟ يعني صاحبة البيت تقعد في الشارع والغريبة هي اللي تعيش فيه؟

- يا شيخ صادق صاحبة البيت دي نصيبها أقل من نصيب نواره وابنها، مش أقل بس، دا نصيبها كله ميحصلش نص نصيب نواره وابنها، يبقى العقل بيقول إذا كانت عايزة داريبقى تروح تفتح دار الحاكورة وتقعد فيها.

- يا ناصر، اعقل، عيب، تروح تقعد في دار متهددة ومهجورة من عشر سنين! !

- يعني عايزني أروح أني أقعد فيها بقى؟

- أنت لا تقعد هنا ولا هنا، أنت تاخد مراتك في ايدك وتقعد في دارك، الأصول كده وحقها محفوظ طول ما أنا عايش وحتى لو مت القطب اهه ومحضر الجلسة اتسجل فيه تركة المرحوم كلها يعني حقها هي وابنها مش هايضيع.

- أني مضمنش.

- أنت بتقول إيه يا فاجر؟

- أني مقدرش أرد عليك، أنت عيل وطول ما الشيخ صادق قاعد مليش مرد ليك.

- إذا كان ابني غلط ورد على غلطك يا ناصر فغلطته ليها مرد وعتاب إنما اللي أنت قولته تتحاسب عليه طول عمرك.

- يعني جايبني تهزقني في بيتك بقي يا شيخ صادق.

- غلطت تاني يا ناصر، وأنت ملكش إلا اللي أحكم بيه وهاعمل بيه محضر رسمي ونبعته للمركز ويتسجل هناك.

- بلاش أحسن يا شيخ صادق

- أنت بتهددني ياللاه، يظهر أني حكمتي معاك فرعنتك ولا أنت نسيت أنت قاعد فين وأدام مين؟

- يعني قاعد في ديوان المحكمة! !

هبّ القطب ففردت عظامه الكبيرة ورمى السجل والقلم، ووضع كفيه الكبار على رقبته ودار به يمينًا وشمالًا ولولا أن خلصه من بين يديه زكي زوج ابنة نائل وأبيه الشيخ الصادق لمات، ازرق وجهه وجحظت عينيه وهربت الدماء إلى كل أطرافه، قذف به على الأرض فتكوم وهو يلتقط أنفاسه، ثم اعتدل فأصبح كمن يسجد في صلاته ثم اعتدل بضعف، ونظر إليه بجحوظ وهم أن يخرج، استوقفه القطب قائلا:

- ادامك ساعة، تروح تاخد مراتك وابنها وترحل عن الدار تقعد في بلدكم ولا في أي خرارة لحد ما الغايب يرجع، واللي يحضر مجلس الورث مراتك، أنت مشوفش وشك العكر ده لا هنا ولا في الغيط حتى.

اشتد عود القطب وطالت عظامه، كان إذا غضب لا يستطيع أحد أن يقف أمامه، فما أن تجحظ عيناه وتحمر وجنيه وتنتفخ أوداجه الغليظة ويخرج من حنجرته صوته الغليظ وأحرفه المضخمة إلا ويكون شيئًا أخر، ربما وحش لا يراه الناس إلا في أحلامهم وكوابيسهم، كان إذا ضرب الجمل في أعلى بطنه بقبضته الكبيرة انتظم لساعات في جر ذراع تدوير عجلة التابوت لري الأرض، وإن وقف خلف الأنفار والتملية وهم يحرثون الأرض إلا وانفجرت فيهم طاقة وحماس ينهي أعمال يومين في نصف نهار، في نفس العام الذي تزوج فيه وقبل أن يرى أول أبناءه، جاء موسم حصاد القمح وأقاموا الجرن في غيط القصالي، قطعة أرض

مساحتها ثماني عشر قيراط مربعة الشكل وتطل على سكتين وتحدها من الجهة الثالثة مروة عامر، فكانت أنسب موقع لجمع قش القمح وتذريته بالنورج، في هذا الموسم كانوا قد زرعوا عشرة أفدنة كاملة من القمح، ويجب أن يتم تذرية عشرون حمل من القش يوميًا، النورج تسحبه جاموستين وبديلتهما بقرتين حبشيتين ضخام العظام، ولكل من الطاقمين من البهائم طاقم من الرجال والنساء والأطفال، وساعات العمل محددة بشدة أشعة الشمس، مجرد أن تتطاير قطرات الندى، يبدؤون العمل، ما أن تقترب ساعة المغرب فيحن القش للنسمات، فيتوقفون عن التذرية، ويبدؤون في نقل الأجولة المعبأة والتي وزنت وخيطت فوهاتها وكتب على كل جوال ميزانه، كان عائدًا من حوض الجزيرة بعد أن تابع الأنفار وهم يحرثون غيط الجزيرة استعدادًا لزراعته بالخضروات، فوجدهم في الجرن لم ينتهوا من كميات كان قد استعد لها، ثارت ثائرته وارتفع صوته الضخم والعريض، وضرب المواشي بقبضته العارية ففزت تشد خلفها النورج وكأنها حزمة من حطب الذرة، وهب كل الأنفار والتملية يعملون وكأنهم آلات، في المساء وبعد العشاء، دخل المندرة رضا تملي المواشي يخبر الشيخ الصادق أن الجاموسة التي ضربها القطب قد مالت على جنبها تتألم وترفض أن تأكل أو تشرب، دخل الشيخ الصادق فوجدها تصارع نفسها في إخراج أنفاسها، مس عليه بيديه فوجد فيها ضلعين قد كسرا، أخرجها في فناء الدار وذبحها آسفا فقد فقدوا إحدى طرفي تحريك النورج، ولن تتواءم الجاموسة الأخرى أبدًا مع أخرى فقد كانت أخت لها ولدت بعدها بسنة واحدة وكانتا بنفس القوة والحجم، جاموستان منوفيتان نطاحتان، أعينهم كبيرة وقاعها أحمر دليل على قوتها وشدة بأسها في سحب محراث الحرث الكبير والنورج وذراع التابوت الكبير.

لم ينهر ابنه ولم يحادثه وإنما أخذ بغله المفضل وعلقه جوار بغل أخر لسحب النورج كبدائل للبقرتين إلى أن ينتهوا من تذرية قمحهم، خرجت أمه منارة تطلق البخور في كل أركان الدار، وجاءوا بمجموعة من المقرئين بالأجر ليقرءوا في الدار ورد من عدة سور من القرآن حماية وحفظ للقطب، انتشرت أخبار الحادثة في القرية كلها وتناقلها التملية ممن شهدوا الحادثة فوصلت الأخبار مغلظة إلى باقي القرى.

ورغم مشاركته أبيه لكل مجالس المصالحات والوفاق، إلا أنه كان قويًا و مندفعا كمحراث ضخم يفجر التربة أمامه ويخلف على الجانبين كتل كبيرة من

طمي الأرض المتكلسة والمتيبسة، لم يرث حكمة أبيه كاملة، وربما كانت فورة شبابه النضر هي ما تدفعه.

خرج أبو التوالت مرتعبًا مذعورًا مأخوذًا وكان شيطانًا قد التهم روحه وملئ جسده، لا يرى الناس في الشارع إنما توجه إلى دار نائل أخذ حاجياته، وأكد على نواره أن لا تترك الدار وإن اشتعلت، وأفهمها أنها وأن خرجت لن تحصل على مليم واحد من تركة نائل فإن وضعت يدها ابنته وزوجها التاجر الاسكندراني فلن يتركوا شيئًا إلا خاويًا.

مشى كمجذوب يدور على جسور الترع وعلى المحدات الكبيرة بين الحقول حتى دخل عليه الليل، ذهب إلى تابوت التاجي وجلس يفكر بعمق وشرود وأصبحت أصابع القطب الغليظة ترسم لنفسها ثعابين غليظة زرقاء على رقبته وانحناءه وجنتيه، ووجهه أحمر تتضاغط فيه الدماء وكأنها لا ترتجع من حيث أتت.

بعد ساعة جاء عبد الصمد التاجي ونزل عن بغله في هدوء ربطه في موضع كل يوم خلف شجرتي التوت، فوجئ به يجلس دون حراك على المصطبة، سلم عليه فلم يجبه، جمع عدة أغصان صغيرة وأشعل نار في المستوقد ووضع كنكة بها مسحوق وريقات الشاي، ثم أخرج قطعتين كبيرتان من الفحم المشتعل ووضعهم على حجر المعسل وسحب بقوة بشكل متقطع حتى خرج الدخان الأزرق الكثيف من أنفه وفمه، مد يده بالجوزة لأبو التوالت، فأمسك بالبوصة وشفط الدخان منها بقوة ونفس مستطيل حتى تأففت قطع الفحم أعلى الحجر وأصدرت صوت تكسر واشتعال.

جلس شاردًا وكلما صاح عليه عبد الصمد، أشار إليه بأن انتظر قليلًا، وبعد مدة قليلة دخل عليهم ماجر وعبد الهادي.

جلسوا حتى آذن للفجر مصوا فصوص من الأفيون ودخنوا المعسل وتعشوا جميعًا بدجاجة رومية، بعد أن شويت على النار، أحضرها عبد الصمد معه بعد أن ذبحها، فقد وجدها تسعى ليلًا في مدخل السكة وهو قادم نحو التابوت.

قبل أن ينصرفوا وقف أبو التوالت أمامه وقال:

- البلد دي لازم يكون لها حاكم، العالم دي كلها لازم تعرف إن الله حق.
- ما كل بلد لها عمدتها وشيخ البلد وشيخ الغفر كمان.
- لا، دول أدام الناس، أدام الحكومة

- وهو فيه غيرهم يا أبو التوالت

- أيوة فيه، انت تسيبك من الوسخ يا عبد الصمد حوافرودق وخبط ونتانة، وماجر وعبد الهادي، وتقعدوا هنا كل ليلة، اللي عايز يعدي، يدفع، واللي ميدفعش ينضرب ويتعلم عليه، عشان الكل يعرف إنه فيه رجالة، احنا اللي لازم نحكم الكلاب دي.

لمعت عيني عبد الصمد وهو يسمع، وأعجبته الفكرة، أقنع ماجر وعبد الهادي بجدوى الفكرة ونجاحها.

opeikandl.com

الضُّحَى

سافر أبو التوالت إلى طنطا وبحث عن مسكن الشيخ شعبان وزوجته، انتظر أمام المعهد الأحمدي حتى خرج منه الشيخ شعبان وفي رفقته بعض الطلاب، انصرفوا عنه وتوجه هو إلى منزله، تبعه حتى عرف المسكن ثم جلس على اقرب مقهى وكان خلف مبنى محطة السكة الحديد ولا تبعد إلا خطوات عن مسكنه، استدرج القهوجي، وعرف ما يمكن من معلومات عنها، قال القهوجي فيها شعرًا فهي تعلم ابنتيه مجانًا، وتستقبلهم وغيرهن في دارها، وأحيانًا تقدم إليهن بعض الحلوى أيضًا. لم يجد طائل من بحثه هنا عاد للقرية وزار زوجته نواره

- أنتي يا بت روحتي باركتي للست نظيرة في الصباحية

- أوومال إيه روحت مع ستي الحاجة الله يرحمها والست نظيرة اداتني منديلين كمان واحد اصفر والتاني اخضر.

- فين يا بت المناديل دي.

- معايا

- هاتيهم

وجد ضالته التي يبحث عنها أكان هنا بين يديه أثرًا يحمل رائحتها وهو يبحث هناك؟

الناس في الشارع منذهلون عن أخرهم وفتحت أفواههم،

- "لا حول ولا قوة إلا بالله"

نطقها الجميع وهم يرون الشيخة نظيرة تسير في الشارع وهي ترتدي قميصها وذراعاها عاريتان وشعرها مكشوف وأيضًا أرجلها، حاولت إحداهن أن تقترب منها، فنظرت إليها بجحوظ شديد وأصدرت صوتًا مرعبًا، تعوذت السيدة وانصرفت عنها مرعوبة.

صعدت إلى قطار منوف وجلست أمام الناس، نكش شعرها وظهرت رجلاها أكثر عندما جلست ونظرت إلى خارج النافذة بسرحان واستمرار، طرق كل منهم كفه في الأخرى وهو يستغفر الله ويدعوه بحفظ عرضه.

نزلت في محطة تلا وركبت جوار بعض الناس في كارو النقل المتجه للقرية، خلعت إحداهن رداءها المشغول بغرز متسعة ووضعته عليها لتغطي رأسها وكتفيها، انطلق العربجي، وتوجه بها بعد أن نزل الجميع عند مدخل القرية إلى بيت الشيخ الصادق، لم يطرق الباب بل نادي وهو يقترب حتى وقف أمام الباب فخرجت إليه حجازية زوجة القطب، رأتها فصرخت بكل قوتها، واحتضنتها وهى تبكي وتحاول تغطيتها بشالها، جاء كل من في الدار وصاحبوها إلى غرفة الشيخ شعبان أبيها، جلست في أحضانه ثم بكت، بعد أن بكت بشدة استفاقت لتجد وجه أبيها الكهل أمامها، ويداه ترتشعان من الضعف، نظرت لنفسها فتذكرت أنها كانت نائمة في بيتها بطنطا وعلى سريرها، لم تفهم، وتخيلت أنها كانت في كابوس ولكن بكاء الرجل بلل وجهها.

بعد ساعتين جاء الشيخ شعبان يلهث ووجهه كله وجوم وقلق وجدها تتمدد على سرير أبيها وهو جالس جوارها يقرأ القرآن على رأسها، ما أن رأته إلا وبكت ونادته، قفز على السرير دون أن ينظر لأحد واحتضنها وهو يستعيذ بالشيطان ويمرر أصابعه على رأسها مقبلا جبينها.

جفت دموعها وهدأت في أحضان زوجها، ثم خلع العمامة ووضعها على رف يتوسط الطاق في الحائط خلفه، ففهم الشيخ الصادق ما يريد أن يقول.

- مش دا الحل يا شيخ شعبان، اهدى وهنعرف.

التفت حولها نساء الدار وأطعموها وشربن القرفة باللبن وهن يتناسين ما حدث بذكر بعض النكات.

اجتمعوا في المندرة المنصورة وأغلق بابها عليهم وهم يتشاورون ولم يحضر معهم إلا نسيب القطب (جمعة) وهو أخ زوجته وابن خالته وصديقه ورفيقه منذ ولدا في أسبوع واحد، قال الشيخ شعبان:

- تلك اللوثة لا تصيب إحداهن فجأة، زوجتي مصلية وتحفظ القرآن وتعرف أمور دينها حسن المعرفة. لا تنقطع عن الصلاة إلا إذا كان لديها عذرها الشرعي، وأنا لا أصدق أبدًا أن جني يستطيع أن يمسها بسوء إلا أن كانت في مثل هذا الحالة.

كانت الشكوك تدور داخل نفس القطب وجمعة ابن خالته منذ سمعا بما حدث فتلك الأشياء القميئة لا يقوم بها إلى سحار يرافق الجن ويفعل بالبشر أسوء ما يكون من أذية.

- وبعدين بقي في النجس دا يا حاج، أني هاخد جمعة معايا وهاضربه بالنار.
- اهدى يا قطب يا بني، الأمور دي متتحلش كده.
- يا عمي طيب وهو بعد اللي عمله ده فاضل إيه، دا دمه الزفر دا حلال.
- يا جمعة يا بني اهدى وراعوا مشاعر الشيخ شعبان يا ولاد.
- يابا وهي نظيرة بالنسبة لنا مرات أخويا بس، لا دي أختي ودمي ومن عصبي، واللي بقوله أني وجمعة ده هو اللي يحافظ على مشاعر شعبان.
- لحد دلوقتي إحنا مش متأكدين إن ناصر النجس ده هو اللي سحرلها ولا متأكدين أصلا إنها كانت مسحورة.
- اللوثة دي متحصلش إلا إذا كان فيه جني مسلط بعمل اسود يابا وخصوصي إذا كان اللي معموله العمل زي نظيرة حافظة ومصلية.

دقائق من الحوار والتفكير و الأميرالاي شعبان يجلس سارحًا مكتئبًا بينما الشيخ الصادق يتوسط الجلسة ويحلل كل كلمة تصدر من أفواههم بموجب الحكمة والتروي، إلى أن دخل عليهم الشيخ إبراهيم، سلم سريعًا ومال على آذن الشيخ الصادق.

- أهلًا وسهلًا، خليه يدخل يا إبراهيم، عيب كده

دخل الشيخ سالمان، عجوز طاعن في السن، ربما يتذكره القطب وهو صغيرًا كان يراه على صورته تلك وكأنه ولد كهلًا ومستمر في الحياة، وكأن الموت نسيه أو تخلف هو عنه، الشيخ سالمان شيخ الكتاب القديم في قرية زرقان، يقولون أن عمره فوق المائة ويقولون انه كان يحفظ القرآن بسبع قراءات، كان يحفظه ويعلمه للنشء، ثم وجد عدة كتب قديمة مدفونة في طاق سحري في الجدار الوسطي في داره عندما هدمها ليعيد بناءها منذ عدة عقود، توقف عن تحفيظ القرآن وأصبح يفك الأسحار بالقرآن ويبارك الدور الجديدة والزيجات، كانت خطوته مبروكة أينما حل، فقد بصره منذ ما يقرب من عشر سنوات ولازم داره يخدمه أبناءه وأحفاده الاثني عشر، رحب به الشيخ الصادق ووضع يده في يده ودله على مكان جلوسه بجواره، اعتدل في جلسته ثم وضع يده على كتف الشيخ الصادق وضغط بأصابعه الرفيعة، مال الشيخ الصادق على أذنه، فطلب منه أن يحكي له ما حدث في هدوء، حكي له كل ما حدث منذ أن جاءت نظيرة إلى ميت أبو الكوم حتى جاءت إليها شبه عارية وغير مدركة لما حولها.

- دي أعمال ناصريا صادق، وعلى فكرة الشيخ مصطفى باعتلك السلام أكتر من مرة

- أبويا الحاج، شوفته يا شيخ سالمان

- كل يوم يا بني، مبيرضاش يتغدى إلا لما أقعد معاه تحت التوتة القديمة في الغربي، فاكرها يا وله

- فاكرها طبعًا يا شيخ سالمان بس نشفت وكسرها الهوا

- وزرعتوا مكانها؟

- زرعنا اتنين من يجي كام سنة دلوقتي.

- خير، خير يا بني والله

- نظيرة بنتي يا شيخ سالمان

- لا متخافش، الواد ناصر كتبلها من الكتاب الصغير.

- وبعدين؟ !

- متخافش ياوله، دي كتابة تفضح متأذيش لأنه خايب ميقدرش لا هو ولا عشر زيه يبصوا بس في الكتاب الكبير

- وأنت متعرفش ببركة النبي كده تفكه.

- هافكه يالاه متقلقش بس ابعت وصي الحاجة منارة على كوباية قرفة محوجة، وخلي البت تستحمى.

- طيب والحل مع الواد النجس ده.

- راضيه يا صادق يا بني وخليه يبعد عنكم

شرب الشيخ سالمان قرفته المحوجة، وجلست أمامه نظيرة تتدثر برداء أبيض كبير يلف كل جسدها من الرأس إلى أصابع قدميها ثم وضع يده العجوز على رأسها وظل يقرأ ساعتين حتى احمر وجهها وكاد ينفجر من كثرة الدم، ثم هدأت وقامت تقبل يديه وسند على كتفها حتى وقف ليجلس على الكنبة الكبيرة جوار الشيخ الصادق، بعد أن طمأنهم أنها عادت كما كانت وليس بها أي مس، وقف القطب ونظر لأبيه يطلب إذنه في الإقدام على قتل أبو التوالت وبجواره وقف جمعة متحفزًا.

- قول للقطب يقعد يا صادق يا بني، كبروفرع وبيفكرني بمصطفى الله يرحمه لما كان يغضب يبقى عود نخل دكرواقف يقاوح في هوا ربنا.

جلس القطب متأففًا وفرحًا في نفس اللحظة، هذا العجوز قد شبهه بجده

الشيخ مصطفى، شيخ القرية وكبيرها، في قوته كانت تحكى الحكايات، وفي فضله وحكمته تترحم عليه الناس.

- ولو كررها يا شيخ سالمان، إيه العمل، أني لو قدرت على العيال النوبة دي، معرفش إيه اللي ممكن يحصل تاني.

- طيب قول الرجال يا صادق، بقوا رجال، متقلقش عليهم، وأكيد الواد ده هيكرر عملته دي لو مرضتوش وشوفته عايز إيه؟

- الواد ده سرق الكتب فعلًا؟

- ايوه يا بني سرقها وخان الأمانة وغدر، كان من أشطر تلمذتي، وكان بيحفظ الآيات بقراءتها في أيام.

- ويعني الكتب دي هي اللي مقوياه كده، ولا حافظ؟

- حافظ إيه يا بني، الكتب دي أني معرفش جت دارنا إزاي ومين اللي دفنها في الحدارويوم ما لقيتها غبت سنين اقرأ منها واتعلم، لحد ما شوفت الرؤيا، حفرت ليه طاقة تانية ودفنتها، كنت عميت وخوفت أعرف حد من العيال عشان يحرقها، الكتب دي ليها سحر وإن فتحتها ما تسلاها أبدًا يا بني.

- والحل؟

- الواد ده خباها وعمل عليها طلسم حتى لو كانت أدامك مش هتشوفها، ومش هتختفي إلا لما يموت هو، شوفه يا بني عايز إيه وخليه يبعد عنكم، أبوك موصيني عليكم وأني في كل فجر كنت بادعي وربك الستار والحامي.

أرسل الشيخ الصادق في طلب أبو التوالت وحضر إليه بعد أن اشترط أن يكون لقاؤه على رأس غيطهم الكبير في الحوض الغربي وعلى مدار تابوت نصر الدين، أعطاه الشيخ الصادق ما طلبه من مال، وعندما طلب أن يعتذر له القطب، رفض بشده وانفجر واقفًا كدب ضخم يريد الانقضاض على رقبته، هكذا رآه، فارتجع عن مطلبه وابتسم بخسه وهو يغادر مجلسهم الذي حضره بعض الكبار ومن بينهم الشيخ سالمان نفسه والذي طلب أن يجلس على يسار موضع جلوس أبو التوالت إن حضر.

obeikandl.com

الهاجِرَةُ

مر أسبوعين وتلقت فوزية ابنة نائل خطاب من أخيها حفظي بأنه عائد خلال شهر بعد أن علم بوفاة أمه وأبيه، سافر زوجها إلى القاهرة ليتابع أعمال تجارته على أن يعود في صحبة حفظي لمتابعة حصر التركة وحل المشكلة، لم يعرف حفظي بأن أبيه قد تزوج من الخادمة التي وطئها هو من قبله ولم يعرف أنها أنجبت له ابن هو شريكه في الميراث والإرث كاملًا، وقفت فوزية على رأس نواره تحاول إخراج عدة كلمات تبرد نارها بأن أخيها الوريث الفعلي قادم خلال أيام وسترى هي أنهر من السواد أشد حلكة من فحم شعرها، ارتعدت وخافت أن تذل وتعود إلى أيام الخدمة وتقديم كل شيء فيها نظير قروش قليلة تتقاضها لتكون درعها من غدر الأزمان، ما أن أتى أبو التوالت ككل يوم بعد العصر إلا وأخبرته بما علمت، وقبل أن يكمل فنجان قهوته المذهب مثلما كان يفعل العمدة، وقفت أمامه فوزية تطرده شر طردة ونادت على كل التملية بأن اقذفوا به خارج القرية كلها، عجيب أمر البشر، بوجود إنسان واحد يكون الملك والغطرسة، وإن فقد يكون ككهل يتوكأ على عصى نخرها السوس وإن مرت نسمة حانية يتكوم على الأرض ضعفًا ولا يستطيع أن ينهض.

جلس أبو التوالت يتشارك الجوزة مع عبد الصمد وماجر وقد أخرج من جيبه قطعة كبيرة من الحشيش قطعها قطع صغيرة وفركها ووضعها بين طيات المعسل ثم انتشوا جميعًا واهتزت رؤوسهم طربًا بالخدر من مفعول الحشيش، وبعد أن أصبحوا في جو من سلطان الزهو والانتشاء لتطير الأمخاخ في فضاء السماء قال أبو التوالت:

- حفظي راجع كمان أيام يا عبد الصمد!
- حفظي مين؟ ابن العمدة؟
- وهو فيه غيره!
- ما يرجع
- لا مينفعش يرجع، تركة نايل كلها أني دبرت عشان تكون بتاعتي.

- طيب ما أنت ليك نصها مش اتجوزت البنت.
- أني مضمنش، الواد محامي، وميعرفش لحد دلوقتي إن ليه أخ من نايل!
- وأنت يعني مش عاجبك نص الأرض والبيت والبهايم يا أبو التوالت، دانت طماع أوي.
- أني اتهانت بأكثر من أرض نايل كلها، وأنت يا عبد الصمد كنت شاهد.
- وأني اللي أبويا مات واتقطعت رجلي، أعمل إيه بقى، أظن أستاهل أرض البلد كلها.
- والله لو مكانك ما يكفيني أرض ولاد القوصي كلها.
- طب ما تكتبله، وأنت قادر وقبل سابق عملتها.
- أني لازم أخلص من جتته نفسها وأريح دماغي.
- الخلاصة، أخلصك منه وأخد الفدانين اللي قصادنا دول.
- موافق، خلصني منه وأحط ايدي على الأرض وليك في ذمتي الفدانين دول بزرعهم كمان، بس خد بالك أني مش عايز رجله تخطي البلد هنا، خلصني منه بره بره قبل ما يوصل.

اضطجع عبد الصمد فاردًا رجله الخشبية أمامه وفشخ شادقيه ضاحكًا بقوة، ومثله فعل ماجر، ولم يستطيعا التوقف إلى أن نهرهم أبو التوالت بحدة، صمتا وسعل كل منهم بشكل متقطع للخلاص من بعض الهواء الذي دخل إلى صدورهم وهم يضحكون دون وعي.

أخبره عبد الصمد أنه قائم بما يريد على أن يتكفل بمصروفات المهمة كاملة، أخذ منه المائة جنيهًا التي كان قد جباها من الشيخ الصادق منذ أيام، واتفق مع أحد الصبية الأشقياء ممن رافقوه في السجن على مراقبة منزل التاجر زكي زوج فوزية ابنة نائل في القاهرة.

بعد أيام تم الإعلان عن إقامة الاحتفال بمولد سيدي حسن الوفائي في قرية ميت أبو الكوم، استعد عبد الصمد ومعه ماجر وعدة أشقياء خريجي سجون من تلا، جلسوا في الوكر خلف التابوت يترصدون قدوم أحدهم من قرية زرقان لحضور ليالي الاحتفال بمولد سيدي حسن الوفائي، وكلما مر أحدهم خرجوا عليه من الظلام كعفاريت متسلطة، يحملون البنادق في أيديهم وسكاكين كبيرة تشبه السيوف يشهرونها في وجه من يمر حتى وإن كانوا مجموعة من شباب

تتدافع الدماء في شرايينهم، جمعوا أموالًا وخواتم وجلابيب وساعات، ومن لم يجدوا معه شيئًا ضربوه حتى يرجع من حيث أتى.

وصلت الأخبار بعد يومين إلى مسامع الشيخ الصادق شيخ القرية والقائم بالإشراف على مصالحها، أخذ معه فريق من الخفر وعدة رجال أشداء يحملون البنادق والعصي، وفتشوا عنهم فلم يجدوا أحد، عادوا إلى القرية مكفهرين الوجوه وظنوا أنه ربما ظهرت عفاريت لبعض المجاذيب وضعاف النفوس.

أخبرهم أبو التوالت بقدوم من يريد القبض عليهم فتفرقوا في الحقول وعادوا إلى قرية طوخ دلكا وخبئوا الأسلحة كلها، أبو التوالت كان المدبر والمخطط والقائد، يحصل على حصة من المسروقات كلها دون أن يشوب ذيل جلبابه شائبة، كان عبد الصمد يخاف منه حتى لا يسلط عليه جنى أو ينغص عليه أيامه ومادام يحصل على مراده بالاستمتاع بتخويف الناس والحصول على أموالهم فلا مانع لديه.

وصل تلغراف لعبد الصمد التاجي وهو جالس يشرف على صبيانه ينعلون حوافر البغال أمام المحطة بان

" نتشرف بحضور العرس في الواحدة"

أعد عدته وانطلق إلى محطة قطار طنطا وانتظر القطار القادم من القاهرة، ينطلق في الواحدة وغالبًا يصل إلى طنطا في الثالثة، ارتدى قفطان وعمة أزهرية وجبة وحمل في يده حقيبة جلدية كشيخ أزهري ذاهبًا لعمله أو قادمًا، انتظر على رصيف قطار منوف حتى رآه قادمًا يرتدي بذلة بنية اللون ويمسك بعصاه من العاج لونها أصفر وفي يده حقيبة سوداء متوسطة الحجم، رغم أنه قد صفف شعره وفرقه من المنتصف إلا أنه عرفه تمام المعرفة، انتظر حتى قدم قطار منوف وحجز على الرصيف لربع ساعة يستقبل ركابه، جلس بالقرب منه ينظر إليه وقد أصبح إفرنجيا كاملًا، ولبرهة من الزمان تحسر في داخل نفسه عليه إلا أن الفدانين ظهرا في مخيلته وهو يقف وسطهم يرويهم والمياه تتكسر على رجليه في سريانها، رأى نفسه سليمًا بكلتا رجليه، هكذا شعر أو تمنى، ركب حفظي في المقعد الرابع من العربة الثانية، عربة عليها علامة بأنها للصفوة فهي من طراز الدرجة الأولى، المقاعد أكثر راحة والركاب قليلون، ركب حفظي ولم يشأ أن يفتح النافذة جواره، هكذا ربما فشلت خطته.

تحرك عبد الصمد، وصعد إلى القطار من الباب الخلفي للعربة، جلس على

بعد عدة مقاعد منه وظل يفكر.

بعد عدة دقائق وصل القطار إلى محطة تلا، قام حفظي وهندم ملابسه وخلع سيجارة من المبسم ووضعه في جيبه العلوي ثم مد يده على الرف العلوي وأنزل حقيبته متوجهًا للنزول من القطار، انتقل عبد الصمد إلى النافذة في الجهة الأخرى ناحية مبنى المحطة، كان الركاب ينزلون ويتتابعون خلف بعضهم لعبور سكة القطارومن أمام مقدمة القطار، بعد دقيقة تحرك القطاروأصبح للجالس بجوار النافذة أن يراهم ويمر عليهم بأعينه وهم يقابلونه متجهين للتجمع عند باب محطة القطارللمرور منها إلى الخارج، قام ووقف أمام الباب وأخرج بندقيته وصوبها نحو حفظي وأطلق دون تأخير فأصابه عن قرب في بطنه، ثم رماها من يده وانطلق للباب الأخر وتعلق عليه ودلدل رجله السليمة لتكون قريبة جدًا من الأرض، ثم قذف بنفسه وقام جريًا ليختبئ في أجمة من البوص البلدي ثم خلع القفطان والجبة والعمة وارتدى جلبابه البلدي واللبدة الصوف وتحرك في خطي هادئة نحو محطة القطار، ينظر الناس من القطارفلم يجدوا شيئًا وصرخ البعض عندما سمعوا دوي الطلقة وسقط حفظي على الأرض والدماء تسيل من بطنه وقد اخترقت في أربعة مواضع من كريات الخرطوش.

عاد فوجد الناس تتجمهر حوله، ورئيس محطة القطاروالعسكري المشرف على أمنها وبعض العاملين يلتفون حوله وهو ينظر إليهم ويئن بصعوبة وقد خرجت الدماء من فمه على الجانبين، بعد برهة غاب عن الوعي، وقف عبد الصمد أمام بائع العرقسوس يطلب منه كوبا وهو يمسح عرقه ويسأل ماذا هناك؟ قال البائع:

- بيقولوا فيه واحد انضرب عيار من القطروراقد هناك أهه.

- ومات؟

- محدش عارف، رئيس المحطة والعسكري بيمشوا الناس وطلبوا المستشفى الأميري وبلغوا المركز.

حضرت سيارة المستشفى الأميري وسيارة المأمور وقوة من المركزلم يحملوه، فقد فارق الحياة بعد دقائق تألم فيها ونزف.

عاينت النيابة موقع الحادث وسألت، واتصلوا بالشيخ الصادق لاستلام جثة ابن قريته.

دفن بعد المغرب وخرج المشهد من جامع سيدي حسن وتحول الاحتفال إلى كآبة، عاد بعض المحتفلين إلى قريتهم ينقلون الخبر، وبعد العشاء حضر المأمور إلى دار الشيخ الصادق وأخبره أنه لابد من اختيار عمدة للقرية ليكون المسئول عن وأد العداوات قبل أن تستفحل، لم يرفض الرجل وإنما أخبره أن أخيه الأميرالاي شعبان قد هلكت صحته ولا يقوى على تولي الأمور، عينه المأمور وكيلا للعمدة وشيخ القرية ونقلت صلاحيات العمدة إليه واتخذت داره دوار للقيام بالأعمال وخصصت غرفة للسلاح وغرفة للحجز.

opeikandl.com

obeikandl.com

الظَهِيرَةُ

انتقل القطب إلى جوار دار أبيه يبني دارا جديدة لتكون المبيت والسكن، خصص الجزء الأمامي منها لإنشاء مندرة كبيرة والباب الرئيس يجاورها ومن خلفها فناء متسع ثم بني أربعة غرف ضخمة يسكنون بها ومقعدين في الطابق العلوي.

طلب الشيخ الصادق أن يزيد قوة الخفر فأصبحت اثني عشر خفيرًا يحملون البنادق، وخفير التليفون، وموظفا للسجل.

كانت أول جلسة هي بحث مشكلة تركة نائل الفاضي بعد أن قتل ابنه حفظي، اتفقوا في المجلس أن تحصل فوزية على ثلث الدار ونصيبها الشرعي في الأرض تتسلمه وتؤجره أو تزرعه على ألا يكون تحت يدي نواره أو أبو التوالت، بني جدار في ثلث الدار وشق باب من الجهة الجنوبية لدار فوزية بجوار حظائر المواشي، ووصيت نواره على ابنها حتى يبلغ وعين لها كاتبا بمعرفة المحكمة الشرعية وقد اختارت أن يكون الشيخ إبراهيم هو الكاتب.

طلب زكي أن تبيع زوجته نصيبها وتغادر تلك القرية فلم يعد لها أمن ولا سكن فيها، رفضت وتركت في عهدته أبناءها الصغار ترعاهم خادمة في القاهرة، طالبت أن تكون هي الوصية فأم أخيها قد تزوجت، لم تقبل المحكمة طلبها وأيدت الوصاية على حسن من قبل أمه.

عندما طالب عبد الصمد بأجره، أخبره أبو التوالت بأن الأرض ليست تحت تصرفه وإنما سيطلب من نواره أن تؤجره الفدانين وهو من سيدفع الإيجار سنويًا حتى يبت في الأمور أو تتبدل.

جاء بتملي ممن يعرفهم ووضعه في وسط التملية قائلا لزوجته:

- التملية والأنفار هيسرقوا الأرض، لازم يبقى لينا عين وسطهم.

صدقت ما قال وأصبح هذا التملي هو رئيسهم، لا يعمل بيديه وإنما يشرف عليهم، يأمر وينهي، وينقل الأخبار في أخر كل يوم لابو التوالت.

طلبت فوزية أن تترك أرضها وميراثها تحت تصرف الشيخ الصادق، والذي

رفض، فارضه متسعة ولا يستطيع ضم أرض أخرى لأرضه، وإنما أشار عليها بأن يكون المشرف على زراعتها نظير أجر سنوي هو عبد الله، أفضل من عملوا لديه وأكثرهم أمانة، وافقت وأصبحت تسافر كل عدة شهور تطمئن على زوجها وأبناءها، وجدت زوجها قد ألف قلبه بحب إحدى الغواني يسهر معظم الأيام ويقضي أوقاته في أحضانها، واجهته، فنهرها وصرخ في وجهها، تعاركا وحدث الخصام بينهما فسافرت إلى القرية غاضبة وآثمة عليه.

تفتق ذهن أبو التوالت تحت ضغط وطلب عبد الصمد بضم الأرض لحيازته في أن يكتب لفوزية عملا أسودًا ليخرب بيتها، وصلته الأخبار من نواره والتي بدورها عرفت خلاف فوزية مع زوجها من أم عبده الخادمة.

كتب لها أن تشغف عشقًا بمن يدخل عليها ليلًا ويغتصبها، رمي سحره على عبد الله حامي أرضها، الرجل الكبير والذي قد اتشح شعر رأسه بالبياض ويظهر على وجهه وصوته الهدوء والصلاح، دفعه شيطان في ليلة أن يترك فراشه ويذهب للاطمئنان على المواشي التي يرعاه في الحظيرة المشتركة بدار نائل الفاضي، اطمئن عليهم وكان يختبئ بينهم شيطان فانقض على عقله يوسوس له، دخل دارها وهي وحيدة ما بين النوم واليقظة، اغتصبها وهي لم تصرخ وإنما رضخت ولم تؤتي بردة فعل على ما فعله، استفاق بعد أن رأي نفسه تتهدج أنفاسه وهو يعتليها، مسح عرقه وأكمل تدفعه لذة الشعور المساقة من شرور النفس.

أرسل أبو التوالت خطابا للقاهرة، قال فيه:

" أيها الرجل الغافل، زوجتك تخونك مع عبد الله كل ليلة، إن كنت فطنًا لأتيت وشهدت جرمها وطهرت صفحتك بيديك، فالناس في القرية، يتأففون فقط من ذكر كلمة رجل قبل اسمك"

ذات ليلة حالكة ظلامها والأمطار تتساقط بغزارة، أتى في أخر قطار قادم من القاهرة، تسلل إلى البيت خلسة فوجدها تنخ أمامه وهو يفعل بها مثلما يفعل عاشق إذا ما سرق دقائق من عمر الزمن بعيدًا عن أنظار الخلق، في غانية تمتعه ويدفع لها.

قبض على رقبتها ولم يتركها إلا ووجهها قد تحول إلى زرقة سوداء وانتفخ، ثم انطلق يجري بحثًا عن عبد الله فلحق به يجري ناحية الحقول وعلى السكة الرابطة بين القرية وقرية طوخ دلكا، أمسك به وحاول عبد الله الدفاع عن نفسه

فألقمه بقبضته الملتهبة عدة ضربات حتى سقط على أرض وظل يدفعه ويضربه بقدمه في بطنه وقد تعرت رجليه وبطنه أمامه، يصرخ عبد الله:

- جااي، الحقوني يا خلق.

الشتاء قارص برودته والأمطار تهطل والأنوار تلوح باهتة من نافذات الدور عن بعد، برك عليه ووضع يديه على رقبته شد أعصابه المهتاجة والمجروحة كرامتها، دفعه عبد الله وفك يديه عن رقبته، فلاح قوي علمت كل أيام الشقاء على جلده علامات مفادها أنها قد تجلدت وأصبح الشقاء رفيق لها، أحس زكي بقواه قد تخور وقد جحظت أعين عبد الله وربما سيقتله، فالإنسان وإن واجه الموت يتحول لوحش يكسر كل عائق في برية لا أطراف لها، مد زكي يده وامسك بحجر كان قد ارتكن على حافة الطريق وضربه به مرات متتالية دون هوادة، تهشمت الجمجمة وسالت الدماء وخبئ الصوت في ثواني.

وضعت نواره كامل يديها على تركة نائل الفاضي، ابنها حسن الرضيع يخطو أولى خطواته وهو مالك لدار كانت دوار للعمدة يهابها الأهالي ويخافون حتى المرور جوارها وأرض وبهائم ثروة لعين من أعيان القرية، طلب أبو التوالت أن تنقل نواره الوصاية إليه، خافت ورفضت، هددها وضربها وتورم ذراعيها، لم تستجب له، ذهبت إلى دوار الشيخ الصادق تشكو إليه، أرسل لأبو التوالت يخبره أن زوجته تريد الطلاق بعد أن ظهر طمعه في مال ابنها.

لم يستجب للكلمات، هدده القطب فحذره بإذلال وإن استطرد فسيعيد له زوجة أخيه هذه المرة عارية تمامًا.

ارتجع عن ثورته بعد أن حذره أبيه، خرج أبو التوالت يتبختر في مشيته كعادته، يضرب طرف جلبابه الكبير بقدميه وحذاءه الأسود الملفوف على رجله إلى قرب ركبتيه كأحذية الأفنديات ورجال الجيش والبوليس.

خرج القطب ليلا ومعه تسعة من الرجال وبعض الخفراء يحملون البنادق في هجمة على وكر عبد الصمد لصيد أبو التوالت وقتله، ما أن اقتربوا من جميزة النحاتين حتى وجدوا صفين من العساكر النظامية في ملابسهم الرسمية يقفون بنظم طابور الأداء في يدي كل منهم بندقيته الطويلة، فقط ينظرون في آن واحد ناحيتهم وإن تحرك أحدهم وجه العساكر بنادقهم ناحيتهم وأخذوا وضع الاستعداد لإطلاق الخرطوش عليهم.

ذعر الرجال وتراجعوا، أخذتهم لوثة أعادتهم إلى القرية، لم يتحدث أحدهم

فيما رأى، عاد القطب إلى داره فوجد العويل والنواح قادمًا من الداخل، مات عمه الأميرالاي شعبان في هدوء تام، باتوا جوار الجثة يقرؤون القرآن حتى لاح الفجر وتفتح النهار، لم تمطر السماء وتوسعت الشمس ترسل أشعتها كاشفة ومجففة الشوارع الطينية، دفن الأميرالاي شعبان وكتبوا على قبره في شاهد مستطيل اسمه الرباعي وتاريخ وفاته الهجري والميلادي.

فطم حسن، وأصبح يجري ويلهو في كل الدار ويحمله أبو التوالت على كتفيه ملاعبًا ومداعبًا لقلب نواره، كرر طلبه مرات فرفضت وقالت: "خذ ما تريد فأنت رجلي ولكن هذه تركة ابني التي قدمت إليه من رب رحيم" ضحك واستهزأ بكلماتها، ثم رحل عنها ولم يعد إلا بعد ثلاثة أيام.

خلع جلبابه والصديري وعلقهم جوار السرير الحديدي المزخرف والذي ورثته نواره هو الآخر، كان سرير العمدة، بعد أن راح في نوبة نوم عميقة قامت وتسللت لتخرج ما في جيب الصديري، كانت تعرف أنه كلما ذهب إلى مكان أو فعل شيئًا يسجله في مفكرة ورقية بغلاف جلدي لا تفارق جيبه أبدًا لا هي ولا مسدسه.

تقرأ بضعف، كانت قد تعلمت القراءة في الكتاب ولم تكمل لخروجها للعمل في دور الناس لفقر أبيها وأمها، وإنما تعلمت القليل قي بيت صروف أفندي في تلا، قرأت فوجدته كان قبل ساعات يعربد في بيت ونس الغانية، تقدم الخمر والنساء والملذات لكل من يدفع، كان نجسًا

- ألا أكفيك أيها الفاجر الكافر، وقتما تطلبني تجدني وغضضت بصري عن هفواتك في نساء الدار، تحملت نظرات كل الأهالي وأنت تأتي ليلا لتضع في شيئًا نجسًا لوث الصفحات الشريفة، وقتل الرجال وهم يمشون على الأرض.

كرهته ولم تعد تطيق الرائحة القذرة التي تنبع من إبطيه، كان عفنًا ككلب مات وترك على جسر ترعة يتجمع حوله ذباب أزرق لا يعرف من أين أتى؟ أو إلى أين يذهب؟ كانت تطلب إليه التعطر فيرفض، تتحمل رائحته في كل ليلة يعتليها من خوفها من غدر الناس والزمان، رغم قذارته رأته درع وسند وظهر.

رفضته يوم آتاها بعد منتصف الليل يطلبها، فقد ظلت تبكي ما أن وصلها خبر اغتصابه لزاهية، انتشر الخبر بين النسوة فقط لم تستطع إحداهن أن تحكي لزوجها أو أخيها، عائدة من حقلهم من حوض الحلواني بعد يوم شاق في تقطيع عيدان الذرة مع زوجها، عائدة تحمل على رأسها سبت كبير به ما تبقى من الخبز

والجبن وأكواب الشاي اقتاتوا عليها طوال يومهم الشاق، الشمس تقترب من المغيب، وكل الفلاحين منتشرين في الحقول يقطعون عيدان الذرة ويجمعونها في حزمات مربوطة ثم يكومونها واقفة حول بعضها في شكل هرمي بعد فصل الكيزان وتجميعها فيما بينها لتجف تمامًا.

جلس مختبئ بعد مسافة قليلة في عيدان الذرة في غيط الجمالين، انتظر قدومها، زاهية اسمها وأيضًا جسدها الندي، فتاة صغيرة متزوجة منذ سنة واحدة وأنجبت بنتا صغيرة تشبهها، فائرة بالمفاتن وجميل وجهها ووضاء، تقدم لخطبتها الكثيرين وطمع فيها رجال يكبرونها سنًا تقدموا لخطبتها، اختارت زوجها الشاب بعد أن رأته في حلقة التحطيب في مولد سيدي حسن، لم يكن من القرية وإنما من القرية المجاورة. عائدًا أبو التوالت من الشهداء فيقصر المسافة بالسير على سكة المناول القديم والتي تتقاطع على سكة الشهداء وتصل إلى مشارف ميت أبو الكوم الجنوبية، رآها وهي تعمل في الحقل تعمل جوار زوجها وإخوته وأبيه، خطفت عينيه رجليها الجميلتين وهي تنحني لتحمل حزمة من حطب الذرة لترفعها، مد نظره عدة مرات وهويلقى السلام عليهم من بعيد، اختبئ في الذرة حتى أتت من بعيد وكلما اقتربت اقترب هو الأخر من السكة، حتى قفز أمامها كشيطان نبت من الأرض وعيناه متسعتان قعريهما أحمر دامي، لم تنطق وتعثرت لتقع على ظهرها، اعتدلت على ركبتيها ويديها تحاول الوقوف لتجري عائدة إلى زوجها، حملها بذراعيه بقوة ودخل بها إلى غياهب عيدان الذرة، لطمها على وجهها بقوة فلف رأسها وجع غاشم، اغتصبها، وأفرغ ما في شهوته، ثم تركها ورحل.

بعد وهلة لملمت نفسها واستقوت وخرجت تستند على بعض عيدان الذرة فتتكسر وهي تتحامل عليها، خرجت للسكة وجمعت ما سقط من السبت ورفعته على رأسها وبكاءها تلونت دموعه بالصفرة، رأتها أم محمد وهي تعبر معدية المصرف التي لم تكن تبعد إلا بضع خطوات، فهمت ما حدث وصلت إليها وسندت كتفيها.

- مين الفاجريا بت؟

لم تستطع أن تجيب، أجابت ببكائها وجسدها الذي ينتفض ويتلوى، لم تتركها أم محمد إلا بعد أن أخبرتها بأنه أبو التوالت النجس.

فعلة كهذه، وجرم كالاغتصاب تنقل اختاره النسوة في دقائق وكأنهن على اتصال روحي ببعضهن، والطابع القروي يجعلهن يتكتمن السر في صدورهن،

وتخاف إحداهن أن تخبر أحد فتكون فضيحة لا يمحوها إلا دماء تسيل وأطفال تتيتم ومن المؤكد أن أبناءها سيصبحون أيتام.

استفاق من نومته وهو ينقلب على جنبه فلم يجدها، وجدها تمسك بمفكرته وتقف تحت سيل من نور باهت أصفر للمبة كبيرة معلقة خلف الباب.

- لساك بتروح للفاجرة دي يا ناصر

- أروح وأنتي مالك؟

- أنت جوزي، الناس كلت وشي.

- كلوا وشك! ! ومكلوش وشك لما كنتي مفضوحة قبل العمدة ما يتجوزك ويلمك.

- أني توبت لربنا عشان يكرمني في ابني.

- توبتي بعد ما كتبت وخليته يتجوزك ويحط في حجرك العزدا كله.

- يا ناصر حرام عليك.

- حرمت عليكي عشتك، أنتي هاتحسبيني ولا هاتحسبيني، أومال لو بقيت الوصي على الواد ده هتعملي معايا ايه.

- قول كده بقى، أني مش هافرط في ورث ابني واسيبهولك أبدًا.

- كده، طيب

انقطع عنها أسبوع، وهي لم تسأل ولم ترسل في طلبه، كرر عبد الصمد طلبه للمرة العاشرة وهم يمصون الأفيون من تحت ألسنتهم وفي أيديهم أكواب الشاي المغلي.

- هانت يا عبد الصمد كلها أيام

- لقيت طريقة يعني! !

- لقيت

ما كان يحلو للشيخ سالمان أن يجلس أكثر من جلسته تحت التوتتين على رأس الغيط الثاني للشيخ الصادق والذي ورثه عن أبيه، ورثه الشيخ مصطفى نصر الدين عن أمه والتي كانت من قرية زرقان وابنة عم الشيخ سالمان، كانت تكبره بعشر سنوات وهو كان ابن عمها الوحيد، كانت تصطحبه معها كلما ذهبت خلف أبيها وإخوتها، كان يعشقها كأم، كأخت، كصديقة وحانية، عندما أنجبت

مصطفى نصر الدين أصبح هو الأخر يصطحبه في كل مكان يذهب إليه كلما حفظ أية من القرآن علمها له وهو مازال صغير، كبر مصطفى وورث أرض أبيه بعد أن توفى، لم يجد له راحة إلا في الجلوس والاتكاء والنوم على ظهره ناظرًا للسماء تشكل نظرته وريقات التوتة التي تداري أجزاء من صفحة السماء، تلك التوتة التي زرعتها ابنه عمه بيديها ورواها هو يومها من مياه الترعة، أصبح الآن كهلًا عجوزًا لا يرى، يصطحبه كل عدة أيام أحد أحفاده ليتمدد في نفس المكان ويرى في مخيلته كل الذكريات الجميلة التي شكلت طفولته، لم يكونوا الناس كثيرون هكذا، كانوا معدودين والدور أيضًا معدودة، وهو في عمق استشفاف الذكريات بعد انقطاع دام لسنوات، صمتت أنفاسه، بقي برهة من الزمان وبالقرب منه حفيده يلهو وينتظر قدوم الشيخ الصادق لمجالسة جده.

لم يقم جده من رقدته، ولم يأتي الشيخ الصادق، ماتا في وقت واحد، ودفنا في نفس الوقت بعد صلاة المغرب، دفن الشيخ الصادق جوار والدته وأبيه في مقبرتهم الكبيرة، ودفن الشيخ سالمان في قريته.

أقيم العزاء كبيرًا وضخمًا وتجمعت النسوة في داره يشعلون الكوانين والأفران ويضعون برامات الأرز والفريك ويذبحون الطيور لإطعام كل من حضر من سفر أو بلدة بعيدة.

بقي العزاء مكتظًا بالمعزين ثلاثة أيام، ورتلت أرباع القرآن متتالية من العصر وحتى بعد العشاء بساعة، حضر الكثيرين من رفاق الشيخ شعبان وزملاءه وتنافسوا في تلاوة القرآن بالسنة مختلفة وألقوا دروسًا عن العظة من الموت تتخلل ترتيل القرآن.

حضر مأمور مركز البوليس بتلا وتصحبه رفقة من الضباط والعساكر وبعض أعيان وتجار من المركز والقرى المحيطة، شدوا على كف القطب وأخيه وترحموا على الرجل الحكيم, دعوا له أن يكون في حكمة أبيه وأن يستطيع تحمل كل مسئولياته.

جاء أبو التوالت لتقديم واجب العزاء فلم يقم له القطب ولم يمد يده لتلاقي كفه، احتقن وجهه، ووقف جامدًا وقف المأمور وقبل منه العزاء شاكرًا له وطلب منه الجلوس في وسط المعزين.

لم يكن القطب منكسرًا أو متهدل الأكتاف، بل كان شامخًا، يرتدي جلباب أسود ضخم من الصوف وأعلى رأسه تكالت كبير هو الأخر من الصوف وتحته

تبدو ملامحه الكبيرة قوية وبارزة وتتزين بشارب ضخم شعيراته غليظة وإن سلم على أحدهم أحس أن ذراعه ستخلع في يد القطب، فقد كان يضغط بأصابعه الكبيرة على يد من يعزيه ثم يرفع ذراعه الأخر ليمسك بكتفه ويهزه بقوة دليل على شكره لتقديم واجب العزاء والحزن على من اختاره الله ليجاوره.

عاد العيسوي السيد الطبيب من القاهرة لحضور العزاء فيمن كان يعتبره كأب له وأب أعز أصدقاءه الشيخ شعبان، حضر العزاء كاملًا وبقى معهم حتى انقشعت موجة الحزن، وأخبرهم أنه ينوي افتتاح داره لتطبيب أهل القرية كلما أتى في أجازة شهرية لمدة ثلاثة أيام، رحبوا بالفكرة وشكروا له.

obeikandl.com

الرَّوَاحُ

يجمع أبو التوالت ثمار شجيرة الخروع التي تنمو بغزارة على جسر الترعة الزرقانية، ملئ منها صرة كبيرة ثم جلس في داره يفتح أغلفة الثمرات ويخرج البذور المرقطة وكأنها حيات في طور النمو، أحضر كوب كبير من الصاج ووضعها فيه وظل يضربها برفق بيد من الخشب، حتى تفتت وأصبحت عجين معظمه أبيض هو لون باطن البذور، ثم جمعها برفق في خرقة رقيقة، وظل يلوي الخرقة ويثنيها حتى تقاطرت قطرات سميكة لونها أبيض تشوبها صفرة خفيفة، جمعها في زجاجة صغيرة وأغلق فوهتها بقطعة من الجلد ثم ضغط عليها وأنزل في الفوهة قطعة اسطوانية الشكل من لب كوز ذرة.

عاد إلى نواره يخطب ودها ويسترضيها، تحمم وتعطر ولم يعد يحادثها حول الوصاية على ابنها، بل أحضر له جلابيب جديدة من المركز وبعض الحلوى.

أطمئنت له وهدأت، في كل يوم وبعد العصر والشمس حانية ترسل أشعه ما بين الصفرة والتلون بالحمرة، يجلس معها على الأريكة المنحوت ظهرها بالأرابيسك، يجلس هو يمينًا مثلما كان يفعل نائل وتجلس هي يسارًا في نفس موضع الحاجة زهرة، يرتشفان كوب كبير من الليمون الطازج، في غفلة منها كان يميل الزجاجة ميلا خفيفا فتسقط ربما ثمن قطرة صغيرة من السم في كوبها، بعد أسبوعين، وهنت وأصبحت تتلوى، أصابها مغص دائمًا وكلما أكلت طردت معدتها ما دخلها، شحب وجهها وضاقت أنفاسها، أحضر لها بعض الشيوخ يقرءون عليها القرآن، قال أمامهم: سأذهب بها إلى طبيب، رفضوا وهم يقولون: إنها لوثة وستمر، لم تعي هي أنه يقتلها، ضعفت تمامًا في الأسبوع الثالث، وأصبحت تتكلم ببطء، حضر الطبيب العيسوي السيد إلى القرية وأعلن أنه سيعالج كل مريض في قريته دون أجر، ذهبت إليه وحدها وأبو التوالت في المركز ربما للعربدة كما اعتاد.

أخبرها الطبيب أن الموت وشيك، فأعراض ما بها تدلل على أنها ابتلعت سم ولابد أن تنتقل للمستشفي الأميري بالمركز.

رفض أبو التوالت ذلك وأطعمها في نفس الليلة طعامًا مسمومًا، جاء الصباح ليوم جديد وهي كل جلدها قد أحيل للسواد، ماتت قبيل الفجر بصمت تام وفي أحضانها يبيت ابنها حسن ابن الأربعة أعوام.

وضع يده على التركة كوصي على حسن بعد أن أخرج أوراق من جيبه وطبع بصمتها وهي لم تكد تفارق الحياة.

تزوج عطيات، السيدة التي اغتال براءتها صغيرة في قريته وجعل أبيها يهرب من نظرات الناس سارحًا في الدنيا وتاركًا خلفه ولد صغير وزوجته، تزوجها كما وعدها فهي كانت مرساله ووسيطته لكل النساء الراغبات بكتابة أعمال لأخريات، بعد أن رحل أبيها، ذاقت مرارة استعطاء الناس فلم يعطوها وتجنبوا عنها وأمها وأخيها الصغير، كان قد سرق كتب الشيخ سالمان وقرأها وانتوى تسخير بعض الجان لجباية المال من الناس.

في مساء يوم من الأيام وجدت نفسها عارية تمامًا أمامه وهو يجلس مستمتعا بسيجارة ساندًا ظهره على الأريكة في وسط داره، فزعت، هبت، وجمت، أخبرها أنه قد جرب ما قرأه عليها وقد كان، أيقنت تمامًا في قواه وأصبحت خادمة لرغباته، وفي كل يوم كانت تكرر طلبها إليه بالزواج، وفي كل مرة كان يفيض عليها بالمال وبعض الطعام والملابس التي استقدمها من المركز ومن طنطا.

اليوم وفي بوعده إليها وأجلسها مكان زوجة العمدة، لم يتكلم حسن الصغير وامتنع أيام عن الأكل حتى وهنت عظامه، وما أن اقترب من الموت، فاضطر للأكل، وإنما لم يضطره شيئًا لإخراج الكلمات، تسلم الأرض كلها والدوار، وفي أول أيامه باع فدانين بجوار أرض القطب لعبد الصمد التاجي، وقد انتدبوا قائم بالقياس من المركز، لم يكن العمدة نائل الفاضي قد اشترك في حفر وإنشاء تابوت نصر الدين الذي يروي منه الفدانين، وعندما تسلم عبد الصمد التاجي وقف في وسط الأرض، وذهب ليرتب في أي وقت يكون موعد ريه للأرض، أخبره القطب أن ليس له في التابوت وعليه أن يحفر السكة ليرويها بالطنبور.

ذهب لأبو التوالت ليرافقه لمحادثة القطب، وهو يجلس بالقرب من مدار التابوت وحوله بعض الرجال يطالبونه بأن يتولى مسئولية القرية وأن يكون عمدة قريتهم بشكل كامل، وقف أبو التوالت وخاطبه بتعالي وحدة، لم يجبه القطب ونظر إليه ثم عاد ليكمل حواره مع من يجلسون.

- أنا بكلمك يا قطب
- اسمي الشيخ قطب يا نجس، وأني ميقعدش في مجلسي فاجروزاني زيك.
- شيخ على نفسك، وعبد الصمد يروي الأرض زي ما كانت.
- امشي يا نجس من هنا.
- بقولك اسمع الكلام أحسن لك.
- أنت بتهددني! ! بقولك امشي من هنا، لو قمت هاخلع رأسك من بين اكتافك.
- واخسر دراعي يا قطب، لا تبوس رجلي.

فز القطب ووقف كدب ضخم ينتصب للسقوط على فريسته، وأمسك برقبته بين يديه وظل يهزه حتى كادت الدماء تخرج من كل شبر من جسده.

- أني لا يهمني أنت ولا أهلك ولا بلدك، ولا عفاريتك يا نجس، خلاص اللي كان حايشني عنك، مات.

أنقذه الرجال من بين براثن القطب، وأخذوه بعيدًا ليرحل مرتعبًا ومن خلفه عبد الصمد يتمايل على رجله الخشبية.

- أني مقدرش أضرب القطب يا ناصر أنت انهبلت! ! دا عيلته وولاده كانوا ياكلونا أكل، وبعدين أنت فاكر القطب ممكن عيار يوقعه، لو جه فيه عيار ومماتش هيكسر عظامنا على الصاحي.
- جبان
- يعني أموت وايتم عيالي عشان خاطرك.
- معلهش، ليه تصريف، ليه تصريف برضه.

لم يمرا يومين إلا وخرجت نظيرة من بيتها في طنطا ترتدي كل ملابسها، لا ترى ولا تنتبه فقط تنظر أمامها جلست في القطار وسط الناس وما أن تحرك القطار إلا وبدأت تخلع عن جسدها ملابسها قطعة بقطعة، تشد خصائل شعرها بيدها فتخرج عدة شعرات بين أصابعها، كلما خلعت قطعة وضعوها عليها بعض النسوة الراكبات في القطار.

اقترب منها شيخ أزهري وظل يقرأ القرآن بصوت عالي ومخيف، تيبست أيديها وأرجلها وظلت جامدة في مكانها، وصل القطار إلى تلا، نزلت غير مدركة وجلست في كارو الركاب كانت تجلس مستقيمة متوجة للقرية بعد يوم شاق في السوق، وأيضًا مردات، اتسعت حدقتي مردات هي تنظر إليها فقد رأت هالة من السواد تحوطها وهي تصغر بداخلها، ظلت تتعوذ وصدرها يعلو وينخفض، حاولت أن

تنزل منعتها مستقيمة وطلبت من العربجي الانطلاق، كلما خطي البغل متوجهًا للقرية، نظرت إليهن وحاولت خلع ملابسها، يمسكن بيديها، فتصمت، يتركنها فتمزق الملابس عن صدرها حتى تكشف، احتضنتها مستقيمة وهي تبكي، تقرأ المعوذتين بصوت متقطع ومتلاحق، خلعت مردات ردائها الكبيرولفوها به، وصلوا إلى باب دار القطب ونزلن بها، صرخت هي وانطلقت إلى غرفتها القديمة، وظلت تمزق ملابسها بيديها وإن طالت أظافرها جسدها نحتت فيه مجاري دامية.

بعد ساعتين جاء الشيخ شعبان بعد أن أخبروه الجيران بما حدث لها مثلما كان من سنتين، دخل عليها وزوجة أخيه حجازية تغطيها وتدثر من حولها كل ما تجده من قماش، طلب منها الخروج، ثم قرأ عدة آيات وتحدث معها، لم تحادثه وإنما حادثه صوت أخر أجش، طلب منه الخروج منها فرفض قائلًا:

- أنا مأمور، وإن خرجت سيكون من عينيها.

قرأ آيات من القرآن فاهتز جسدها وتحشرج الصوت، قائلًا:

- إن أجبرتني سأخرج من دبرها

جاء القطب مسرعًا من الحقل، وجلس مع أخيه يتحادثون وقد تركوها وظل شيخ يقرأ القرآن على باب الغرفة فتصمت إلا من أنين صغير.

جاءوا أحباءهم وجلسوا يتشاورون، واتفقوا على استدعاء أبو التوالت وإعطاءه ما يريد.

جاء متبخترًا كعادته، وجلس أمامهم كمن يعلو على مقعد سلطاني وهم أمامه كطالبي العفو، طلب أموال وأطيان وأن يعتذر له القطب يوم صلاة الجمعة أمام كل الناس.

زمجر القطب رافضًا، وتوسلوا إليه حتى رضي، وقالوا له:

- ليلة الخميس تيجي تستلم حجة الأرض والجملين والبهيمتين اللي أنت عايزهم.

بعد صلاة العشاء من يوم الخميس حضر، وأخبروه بعد أن رأى بعينه العقد ببيع فدان، أن يصعد فقط مع الشيخ شعبان ليفك عمله عن نظيرة، صعدا على السلم الخشبي إلى مقعدها العلوي، ووقف أمامها، وهمس بعدة كلمات، فصرخت، وتقوست قليلًا، ثم ثبتت في مكانها وكأنها قد فارقت الحياة، ارتمي الشيخ شعبان يحتضنها، ويكرر البسملة على رأسها حتى أحس بهواء خفيف دافئ يخرج من أنفها.

- انزل وتسلم ما تريد من القطب
- أنت قبلي يا شيخ
- لا بل انزل أنت وأنا خلفك، وارحمنا وارحمها

كانت انكسارة كلمة الشيخ شعبان كافية بأن يتحرك نحو الفتحة أمام الغرفة لينزل على درجات السلم الخشبي لتسلم الأطيان والمواشي والأموال التي طلبها.

وضع قدمه على أول درجة ثم نزل بحذر حتى أصبح في منتصف المسافة، كان كلما وضع قدم على درجة نظر للخلف، لم يعي ويفطن.

وهو في منتصف المسافة خرج عليه مسرعًا جمعة حاملًا عصى ضخمة وهو يصرخ:

- موت يا فاجر

التفت برأسه نحو الصرخة فنزلت العصا على كتفه ولم تصيب رأسه، فارتمى من المفاجأة بظهره على الجدار المجاور للسلم وحاول إخراج مسدسه، وما أن أخرجه في لمحة وحاول تصويبه عليهم إلا وهوي على يده القطب بالبلطة فبتر كفه وهو ممسكًا بالمسدس، صرخ ونعر بصوت تنخله عدة طبقات وسقط على الأرض مسجيًا على جانبه يحاول أن يقف، هوي عليه القطب بالضربة الثانية على رأسه فشجت وثبتت البلطة في رأسه، وضع رجله الضخمة على رأسه وشد بقوة فخلع سلاح البلطة الحديدي منها وهو يتألم ويخور ويتلوى بشكل شبه دائري، حتى ثبت على وضع أن كتفه الأيسر مدفوعًا في الأرض خلف رأسه ويقف من الخلف على ركبتيه، دفعه جمعة برجله فارتمي على الأرض والدماء تسيل بغزارة من رأسه.

جاءوا بقفة من خوص كبيرة تستخدم لجمع الغلال قبل تعبئتها، وضعوه فيها مطويًا على مؤخرته، وغطوها بجوال من الخيش المهترئ يوضع أسفل برادع الحمير والبغال وحول رقابهم أثناء شد المحراث الكبير.

لم يستطع إلا القطب وجمعة أن يحملوا جثته النجسة، فكروا في دفنه كما هو بالقفة، واختاروا قطعة أرض بور على مدخل القرية تحدها نخلات صغيرات معوقات لا تنتج ثمرا بقدر جريد قزم سرعان ما يجف ويتساقط، طميها كان دائمًا شبه مبتل لونه يميل للحمرة إذا ما بقيت بأقدامك العارية فيه لوهلة احترق الجلد ولسع وكأنه ملح حارق.

ما أن اقتربوا من تلك البقعة والتي كانت تحت مقابر القرية قبل أن تنقل غربها، حتى رآهم عدة صبية يلهون، صرخوا عندما ظهرت يد تتدلى خارج القفة:
- قتيل، قتيل

لم يتبينوا هوية من يحملوها، فقد كانوا يلفون كامل رأسيهما بتلافيع كبيرة، قذفوا بها في الترعة بالقرب من القنطرة التي يمر أعلاها الطريق الرابط بين مركز تلا ومركز الشهداء ويمر على جانب القرية الغربي.

عادا مسرعين عبر الحقول، وجلسوا في مندرتهم يسهرون كعادتهم في كل ليلة، حتى دخل عليهم شيخ الخفر يخبرهم أن هناك قتيل في الترعة.

استدعى القطب بإشارة تليفونية من مركز البوليس، ما أن انتصف الليل حتى حضرت قوة البوليس وضربت كردون حول موقع الحادث، وتم رفع الجثمان وبعد تفتيش ملابس القتيل وجدوا المفكرة مكتوب فيها كآخر ما كتب أنه ذاهب إلى دار القطب.

استمرت التحقيقات إلى قبيل الفجر، وأؤمر بالدفن، واتهم القطب، وجد وكيل النيابة أخيرًا مشتبهًا به قد يكون قاتل يقبض عليه ويوقف مهزلة أن الفاعل مجهول في تلك القرية وما يجاورها من قرى.

استقدم محامي متخصص وشهير من القاهرة، طلبه الشيخ شعبان، طلب أربعمائة جنيه، تقاضاها، واستطاع أن يبرئ القطب من تهمة القتل بعد أن اثبت لهيئة المحكمة أن القتيل كل من يعرفونه ربما كانوا مشتبه بهم من كثرة أفعاله الشريرة، ذهب في تلك الليلة يرجو القطب كي يسمح لعبد الصمد التاجي بري الأرض من تابوتهم، وما القطب بحاجة لقتله فهو أمامه لا يعد شيئًا، ولا يستطيع أن يعطل مصالحه.

انتقل الشيخ شعبان للعمل بأحد معاهد الأزهر الكبرى بالقاهرة، كره القرية بما فيها، ترك ميراثه تحت تصرف أخيه القطب على أن يحصل على ربحه منه أخر كل عام في زيارته السنوية، سحبت صلاحيات العمدة من القطب وأصبح شيخ القرية فقط، وأصبحت الخفر تطبق الخطة الأمنية بالمرور على الدرك الموزعة عليهم على أن يمتثلوا لرأي شيخ القرية في حال وقوع أية جريمة أو ما يهدد أمن القرية لحين حضور قوة من المركز.

العَصْرُ

توالت المواسم بصيفها وشتاءها تتبدل الشموس بقيظ حرها ولفحات البرد تقرص العظام قبل اللحم، أنجب القطب سبعة أبناء كلهم من الذكور مات رابعهم بعد أن ولد بشهرين ومات السادس ما أن ولد.

حوط القطب على كل أرض أبيه وزادها وأصبح يملك قطيع كبير من الغنم والبقر والجمال.

لم يتلقى في هذا العام خطاب من أخيه شعبان كما هي العادة منذ سنتين بعد أن سافر ليعلم القرآن في بلاد الصين وتصطحبه زوجته، أرسل إليه، فرد بعد أسابيع بأنه قد شغل بعد أن ولي لتأسيس مدرسة عليا لتعليم القرآن والفقه في تلك البلاد المتشبعة بأخلاق الإسلام ويتنسمون فقط من ينير طريقهم ويكون سببًا في هداية الجميع.

تغول عبد الصمد التاجي في نشر سطوته ليلا على العابرين وأصبح يكرى ورفاقه على القتل والسلب والتخويف والسرقة، زاد رجاله وأصبح وكره ملجأ للهاربين من السجون ومعتاديه ورواده.

استغاثت الناس كثيرًا بالقطب، فلم يستطع أن يفعل شيئًا، لم يستطع عبد الصمد التاجي في يوم أن يقف أمامه أو يعطل مصالحه، واكتفى القطب بحماية أملاكه وأهله وما له.

فجرت عطيات ورافقت خليل القائم بإدارة الأملاك التي هي وصية عليها، أملاك ابن نواره حسن ابن زوجة زوجها المقتول، لم يشأ أي من أهل نائل المطالبة بالوصاية أو الإرث، خوفًا على نفسه من القتل، فأصبح دواره مشئومًا، مخيفًا، رادعًا.

خليل هو الابن البكري لعبد الله وقد ورث وظيفة أبيه، كانت تكبره بسنوات وليست بجمال يحرك في أي شاب شهوته وإنما أغرته بأن أصبح خولي على كل التملية والأنفار، يقودهم بالنهار ويقودها ليلًا، يمتع نفسه لا هي، وهي ترتشف أي

رائحة لرجل بعد أن أصبحت كخرقة نتنة بالية يتقاذفها الصغار بطرف غصن صغير حتى تقع في مياه المصرف فتسير حتى ترتكن على كومة من الأعشاب وبقايا الأشجار والجثث المرتكنة أسفل قنطرة، انزوت عنها كل النسوة لم تعد تستطيع أن تنظر في أعين إحداهن، تجلس في سوق الماشية في مركز تلا تبيع جاموستين قد ولدتا لتشتري أربعة عشار فتزيد ثروتها التي كونتها من سرقة أموال الصغير ابن زوجة زوجها.

ارتفعت الأصوات وتكاثرت الكلمات، وضرب خليل على قفاه ورقبته ورفعت أعلى رأسه عصى غليظة كانت لتاجر من البحيرة ضخم الجثة يلف تلفيعته الكبيرة على لبدته فتكون رأسه بضخامة ثور فحل ومن تحتها وجنتاه المكتظتان باللحم والشارب الممتد والبارز من حواف الوجه، استغاث خليل بعبد الصمد التاجي، فوقف يفصل بينهم، رجع التاجر وصبيانه البغال من حوله، فقد سيطر عبد الصمد على سوق المواشي منذ سنتين وأصبح يجلس تحت الخيمة الكبرى عند المدخل فقط يرتشف دخان المعسل من الجوزة الكبيرة، وكلما دخل تاجر أو خرج وضع ضريبة إجبارية و إلا لن يخرج بما اشترى.

وقفت تشكر له وتهلل، واستكانت في كلماتها، فلاح في مخيلته حلم أبو التوالت بكل أموال نائل فهي أموال وأطيان سانحة لمن يغتصبها.

عرض عليها الزواج، فرحبت وتهللت أساريرها، بعد أيام زارها، فوجدها قد رجعت عن اتفاقها، وبكت بضعف لتستعطف قلبه قائلة:

- أعطيك ما تريد ولكن احمني وهذا الصغير من نهب أموالنا.

وافق وأعلن لكل الأنفار والعاملين أن من يسرق عود من البرسيم سيقطع يده. وبعد شهور أتضح حجم السرقة التي كانت تتعرض لها.

بقيت على علاقتها بخليل فهو فتي ولا يطلب كثيرًا، فقط عدة جنيهات ويشرف على أعمالها.

عائدان من قرية زرقان يزوران خالهم، ويركبان حمارًا أبيض اللون وقوي، يسرجانه ببردعة محشوة بقش الأرز، استوقفهما أحد رجال عبد الصمد على سكة مروة النخل وهي الموازية للترعة الزرقانية فأصبح الناس يمرون منها رغم ضيقها الشديد وكثرة المقاطع التي تمرر المياه من المروة إلى رؤوس الحقول.

- طلع اللي معاك يالاه أنت وهو.

- لا في الايد ولا في الجيب!

انزلهما من فوق الحمار والسلاح موجها ناحيتهما، لم يجد معهما شيئًا، طلب منهما أن يتركا الحمار، فرفضا، هددهما، فضربا الحمار بقوة فجرى نحو استكمال طريقه للقرية وجريا هما في أواسط الحقول، تتعجن أرجلهما بالطين وتنغرس، ينكفئان على وجهيهما، فيقوما ويكملا طريقهما في هلع.

دارا حول القرية من الناحية الجنوبية حتى دخلاها من طريق حوض الحلواني، وظلا يبحثان عن الحمار، وعندما لم يجداه ذهبا وطرقا الباب على الشيخ القطب، ففتح لهم، كان مازال يسهروحوله البعض، عندما رآهم ضحك من منظرهم المتلطخ بالطين والوحل وقال:

- حماركم هنا في زريبتنا، قوم ياله هاته.

قام أحد الأنفار الساهرين وأحضره لهم، حكوا له ما كان، فحذرهم من الانتقال ليلا ما بين القريتين فهو لن يستطيع محاربة قطاع الطريق وحده فالخفر تحت إشراف بوليس المركز.

بعد شهر جاء موسم جمع القطن، وتلونت الحقول بالبياض، موسم الذهب، ينتظره كل فلاح من كل عام ليقضي دينا أو يزوج ابنة أو يرسل أموالًا لمن يتعلم، شكل الشيخ القطب ككل عام لجنة لاستلام الأقطان من الفلاحين وجمعه في الجرن الكبير، قطعة الأرض البور المشئومة التي تجاور قنطرة عبور الترعة الزرقانية، وعين ثلاثة خفراء، وأربعة من رجاله ليحرسون أجولة القطن حتى انتهاء جمع كل محصول القرية لوزنه وتسليمه للمندوب، فيتسلم كل فلاح ثمن ما جناه.

بعد أن امتلئ الجرن بالأجولة الضخمة، لم يبقى إلا أيام لحضور المندوب والوزان لاستلام الأقطان ودفع الأثمان، هجم رجال عبد الصمد متلفعين تمامًا لا يرى منهم إلا أعينهم وفوهات بنادقهم وحوافر الخيل، وقف خمسة منهم ببنادقهم أعلى رؤوس كل الخفر، واستمر الباقين يخرجون بعض القطن من كل جوال، ويملئون أجولة كانت بأيديهم فارغة ثم كتبوا عليها اسم عبد الصمد التاجي، وانصرفوا بعد أن هددوهم بقتل أبناءهم إذا ما تحدث أحدهم عن ما كان.

وصل الشيخ شعبان إلى القرية ومعه زوجته الفاضلة نظيرة، جلس جوار أخيه القطب وقد ازداد وزنه وخشن شعره واتشح ببعض البياض، عاد من سفره الطويل كبيرًا في الشكل وكبيرًا في العلم، ارتفع مقامه وعلمه، امتدت سهرتهم إلى

ما بعد منتصف الليل، حضر السهرة الطبيب العيسوي السيد صديق الشيخ شعبان المقرب وجمعة ابن خالتهم وصديق القطب، تكاثرت الأحاديث وتداخلت ونقل إلى عقل القطب الصراع الدائر في القاهرة حول معاهدة بريطانيا مع مصر، سميت معاهدة الجلاء لعام 1936، عقدها النحاس باشا رئيس حزب الوفد واشترط حضور كافة الأحزاب، بينما الحزب الوطني رفض الحضور والمشاركة إلا بشرط جلاء كامل القوات البريطانية، كان من بين أعضاؤه الطبيب العيسوي السيد، الفلاح الثائر الباحث عن حرية كل الشعب المصري، عقب وتناقش مطولًا مع الشيخ شعبان.

طلب شعبان أن يرى كل أولاد القطب، حضروا جميعًا إلا صادق فقد كان موجود يجلس على فخذي أبيه حتى راح في النوم فنقل إلى داخل غرفته، جاءوا بالأولاد يقفون أمام الشيخ شعبان، أقبل كل منهم عليه يسلم عليه ويقبل يده، لا يعرفونه فمنذ ولدوا لم يروه، طالت غيبته وسفره، أجلسهم جواره وعلى فخذيه، عندما رآهم حوله يأنس بهم، ذرفت عيناه الدموع وهو مبتسم، كلما وضع يده على كتف أحدهم بسمل باسم الله الحفيظ، جمعهم في يديه وذهب بهم إلى داخل الدار وأجلسهم جميعًا حول نظيرة وهي تتحدث بنهم مع حجازية زوجة القطب قائلًا:

- ها هم أولادنا، أولادك يا نظيرة، طلبتي واحد، ربنا عطاكي خمسة، يسدون أكبر عين لأكبر عدو.

أجلستهم حولها وظلت تقرأ لهم القرآن وتراجع ما يحفظونه منه، وعاد هو لإكمال نقاشه وحواره، كان مدعوا لحضور الليلة الكبرى من احتفال سيدي العراقي بقرية زرقان، أحد زملاءه ورفيق السفر من زرقان دعاه لحضور الليلة.

جهز القطب مجموعة من الرجال والخفراء الذين يعملون لديه ساهرين على أمواله وأرضه وداره وحظائره، ذهبوا في كومة تسير خلف الشيخ شعبان وهو يتحادث مع جمعة ابن خالته، يركبون البغال، وفي الخلف كان القطب بنفسه يسير وعيناه يقظتان، قطعوا نصف المسافة ولم يسمعوا أي عواء للذئاب، التفت الشيخ شعبان متحدثًا لأخيه

- إلا ما فيه ولا ديب عوا يا قطب، إيه الحكاية؟

- لا حكاية ولا رواية، الديابة اللي خلقها ربنا هربت للوسع، وبقى فيه ديابة غيرهم من البني أدمين، عظتهم فيها موت مش جروح يا شيخ شعبان.

قافلة كبيرة تسير، اقتربوا من تابوت التاجي، خرج حولهم أربعة من كلاب التاجي يحملون البنادق ويتلفعون بالتلافيع الكبيرة، صاح القطب بصوته الضخم محذرًا إياهم فلم يرتدوا عن ما ينونه من السلب، رفع القطب غدارته وضرب في الهواء وهو يتجه ناحية أخيه، وهكذا فعل رجاله وخفرائه، تبعثروا قطاع الطريق واتخذوا مواقع بعيدة.

- أني القطب نصر الدين يا كلب أنت وهو

- وإيه يعني القطب، سيب البغال والحمير وارحلوا بدل ما ناخد أجلك أنت وهو.

تمركز القطب ومن معه في المنتصف ومن حولهم البغال والحمير لتكون ساتر من الضرب، قتلوا اثنين من قطاع الطريق وأصيب الثالث، ثم اختفوا تمامًا، ذهب القطب وهو يضرب بغدارته ناحية تابوت التاجي، لم يجد أحدًا بحثوا هنا وهناك.

أرسل أخيه وصديقه الطبيب لحضور الليلة الكبيرة ومعهم اثنين من الخفراء بالبنادق، وبقى هو وجمعة وباقي الخفر، وأرسل في استدعاء الخفر النظامين وإبلاغ مركز البوليس، حضرت القوة بإشارة تليفونية من دوار عمدة زرقان، انتقلت نصف القوة التي كانت تؤمن الاحتفال بالليلة الكبيرة، بعد ساعتين نقلت الجثث إلى مركز البوليس وأغلق المحضر.

امتلأت دار القطب في ثاني يوم بجماهير غفيرة من الناس، كل من سلب، كل من ضرب، كل من أجبر على خلع جلبابه، هللوا له ونادوا بمزيد من النصر.

اختفى قطاع الطريق وأصبح الطريق آمنا، اعتاده الناس بعد أسابيع وأصبحوا يتحاكون بمن كان يسكن هذا الظلام من قبل، تناسوا وأكملوا حياتهم.

obeikandl.com

القَصْرُ

مرت الشهور وأصبحت سنوات، واعتاد الشيخ شعبان زيارة القرية كل أسبوعين مرة، يخطب في الناس في يوم الجمعة ويصلي بهم ويجلس في المندرة المنصورة يفتي لهم في أمور دينهم، أصبح الآن وكيلا في ديوان وزارة الأوقاف وأسس عدة معاهد أزهرية في مناطق محرومة من تلقي أصول الدين والعلم، داعيًا للخير دائمًا كلما جاءه أحدهم يريد إخضاع أحكام الشرع لصالحه، اغتاظ وارتفع صوته، كلما تحرك الغصب بداخله يضع يده على الجرح القديم بفعل أنياب الذئاب فيؤلمه، فيتذكر

- هل كان في قضمة العسقلة ليدي شر؟ هل كانت تدافع عن جرائها تلك العسقلة مدفوعة بحكم الغريزة وهي أمام الله تفعل الخير؟ هل أنا وأخي من سمحنا لها بالإقدام على إخراج الشر من أنيابها القاسية؟ هل أخرج أبي الشر منها عندما قتل جرائها وحملهم ليحنط جثثها؟ هل كنت أنا الشر أم هي؟ هل فتحنا نافذة في أرواحنا لاستدعاء الشر أم فتحت رغمًا عنا؟ هل قتلنا لابو التوالت كان الخير أم الشر؟ هل قتلنا لقاطعي الطريق هو الخير أم الشر؟ أأترك نفسي طريد غضبة النفس من استخفاف الناس بأمور الدين وتطويعهم له من أجل مال ومتعة ونساء؟ أم أوءدها وأعمل بأضعف الإيمان؟ ها أنت يا شيخ شعبان تعلمت الدين وتعلمه، تفيض بأحسن الكلمات على الناس لاتقاء شرور أنفسهم وما أنت عارف، هل فرحت بنبت زرعه أخيك في رحم زوجته؟ أم تلونت نفسك الآدمية بخص أحدهم ليكون ابن لك قبل أن ترحل؟ وإن فعلت فهل كان يتركه لك أبيه وأخيك وسندك؟ إني لتلك الدنيا مغادر فارحل إنسانًا بالخير سعى أم تكبل روحي بما خفي عن أعين الناس وشهدته أعين من لا ينام ولا يغفل؟

من أنجب تلاميذه وأكثرهم تقبلًا للتعلم حسن نائل الفاضي، كبر الفتي وتلقى تعليمه في المعهد الأحمدي، بلغ وأصبح شابًا طويلًا كأبيه المغدور، عاشقًا للعلم، لم يسيء لزوجة زوج أمه عطيات، كانت كئيبة الوجه، حادة الكلمات وثقيلة الحوار، استمع إلى معلمه وشيخه الشيخ شعبان، هي ربته واحتضنته، لم يجد

في يوم لنفسه صدرحنون منها وإنما حفظ العشرة والأيام، نصحه الشيخ شعبان بالاكتفاء بشهادة العالمية والتزوج ومراعاة أرضه وماله وليكون فياض على المحتاج ويد ترفع الظلم عن المقهورين، أخبرها أنه يريد أن يتزوج، بلغ الثامنة عشرة من العمر، أصبح رجل يرفل في ثيابه الأنيقة، صوته هادئ وطباعه أيضًا، بأخلاقه السامية نسي الناس كل ما كان حول اسمه وبعضهم قال:

- لما تبقي على تلك المرأة في بيتك، اطلب رفع الوصاية فقد كبرت واطردها فهي لم تكن في يوم أمينة على مالك وحياتك ومستقبلك، لم يخبروه في يوم أنها زانية، أنها تشتري صخب الشباب بأمواله.

ذهب إلى المحكمة الشرعية وسأل، قالوا:

- وإن بلغت الثامنة عشرة يحق لك أن ترفع الوصاية بشكل جزئي لتحاسب الوصي بنفسك وعند بلوغ الواحدة والعشرون تتسلم كامل الميراث.

ذهب إلى الشيخ القطب يطلب منه أن يخطب له ابنة جمعة صديقه وابن خالته، رحب الرجل به ووعده بأن يطلبها له، بعد يومين أرسل له أن جمعة قد وافق وأن حدد يومًا لعقد القرآن والزفاف.

رفضت عطيات وسبته و صبت في أذنه أنها من ربته ولها في رقبته جميلًا لا يجب أن ينسى، لم ينكر الفضل وقبل رأسها استعطافا فلم تستجب، حاول مرارًا معها فسبته بأمه وعندما وجدته قد اتخذ قراره، هدمت في نفسه الفرحة بسب أمه الزانية وأبيه الكهل الذي ربما لم يكون هو من أنجبه، رفع صوته في وجهها وأخبرها أنه ماضٍ في الزواج وطلب رفع الوصاية لشكه في سرقتها لميراثه بالتعاون مع عبد الصمد الأعرج.

ذهبت إلى عبد الصمد في بيته الذي يسكنه في مركز تلا ويتخذه وكرًا لبيع السلاح وتنظيم خطط السلب والنهب من الفلاحين الضعفاء على حواف الترعة والمصارف والطرق المظلمة.

شار عليها أنه لابد أن يختفي وبذلك تئول التركة كاملة لها، تتصرف كيفما تشأ في تصريف أمورها، وإن اغتيل أو قتل فلن تطال شيئًا بل يجب أن يختفي فقط.

عادت من المركز قبيل المغرب، وأعدت عشاءً لذيذًا ووليمة كبيرة وأرسلت من يبحث عنه، وجدوه يجلس مع عبد الفتاح صديقه على حافة مروة النحاتين

يشكو له ويخرج ما يثقل الكاهل مما سمع.

عاد إلى الدار حزينًا، فضحكت في وجهه و هادنته بكلمات مفادها أنه ابنها الذي لم تلده وفقط تخاف عليه من أطماع البعض في اقتناص ما يملك، صدقها وابتسم وهي جعلته يميل رأسه على صدرها وربتت على ظهره وكتفيه بحنان أم مشتاقة لضم وليدها.

أطعمته بيديها برام أرز ونصف دجاجة كاملة، أحس بثقل في معدته فسقته كوب من الشاي وطلبت إليه أن يرتاح على سريره في غرفته، نام الفتى ولم يصحو من رقدته، سرى السم في أمعاءه وامتصته ليصل إلى دماءه ويسمم كل شبر من جسده النضر، فقط توقفت الأنفاس رويدًا رويدًا و توقف القلب حتى ثبتت الدماء في سريانها، مات وهو لا يشعر أنه أكل سم نظير الأموال والأطيان كلها، ولو خير لتركها كلها وبقى زاهدًا يسعى لتلقى العلم وتلقينه.

دار القمر واكتمل وأصبح قطعة وضاءة في منتصف صفحة السماء يرسل ضياءه الناعمة إلى الأعين فتنعكس عليها لتتحرك ذكرى كل شيء مر على المخيلة في قلب وعقل من يرى، وهي كانت مستيقظة أمسكت بالبلطة وقطعت جسده الطويل إلى ثمان قطع، حملتها على ظهر حمارة سوداء تكاد تلد جحشها وذهبت إلى كومة من الطمي على رأس أقرب حقل عل المسقاة الصغيرة ثم حفرت بفأس صغير أحضرته، ودفنت القطع كلها وأهالت الطمي المبتل أولًا، ثم سحبت الطمي الجاف فأصبحت الكومة كما كانت، ومن ذا الذي يمر فجرًا ومن خلفه بهائمه راكبًا حماره ويتخيل أن تحت تلك الكومة إنسان يرقد مغدورًا من أجل مال أو أرض أو ملذات فانية.

مرت الليلتين ولم يأتي لإخبار القطب وجمعة بموعد الزفاف وعقد القرآن على ابنتهم، أرسلوا في طلبه فجاء الرسول يقول: أن زوجة زوج أمه تخبره أنه ربما ذهب للمركز لقضاء بعض الحاجات ولم يعد.

بحثوا عنه وأرسلوا البعض إلى القرى المجاورة، جاء عبد الفتاح يخبرهم أنه كان كئيبًا من تلك المرأة وفي وجهه اسودت كل الأيام من أفعالها.

مر أسبوع ولم يظهر ما يدل على أثره، ارتحل القطب بنفسه إلى مركز البوليس وأبلغ الضابط المسئول عن ما حدث، صارت الشكوك كلها حول عطيات وبحثت قوات البوليس مثلما فعل القطب ولم يجدوا له أثر، دلت تحرياتهم أن تلك المرأة كانت تزور عبد الصمد التاجي منذ أكثر من أسبوع في بيته.

جاءوا بها، فلم تعترف بشيء بل تباكت أمامهم، وحاولت توجيه أنظارهم بعيدًا عنها، وقف ضابط برتبة ملازم أول منتدب من قسم المباحث الجنائية من مديرية المنوفية، أمر الجاويش الضخم الأسود ومن معه من أفراد المباحث واختلوا بها في غرفة ضيقة، ضيقوا عليها بالكلمات فلم تعترف وإنما لمح الضابط أن تلك المرأة خلفها شيء مريب لابد من كشفه، فلطمها بيده على غرة فارتطمت بالحائط وأدميت أسنانها، صرخت واستنجدت، فأحضر الجاويش كلابة وضغط بها على ظفرها في إصبع الإبهاروحاول سحبه، ما كاد أن يخلعه إلا واعترفت.

انتشرت قوة كبيرة من عساكر البوليس وضابط المباحث ووكيلا للنيابة والشيخ القطب وبعض رجال القرية حول كومة الطمي، وحفروا برفق فوجدوه مقطعًا وقد تعفن جسده وبدأ في التحلل.

جمع ودفن وخرجت الناس في مشهده تترحم عليه، وبكت النساء من قسوة ما حدث لهذا الطيب الذي لم يلقى يومًا واحدًا منذ ولد فيه حياة.

بعد أن استمتع ماجر بإحدى الغوازي في بيت عبد الصمد، خرج من الغرفة وكان نهما لمص فص من فصوص الأفيون، وتلاه بكؤوس البراندي الحارقة، فأحس بآلام في معدته، فأمال رأسه قليلًا حتى حاول استجماع قواه وتوجه إلى القرية ليرتمي على سريره ليغط في نوم أصبح يستمتع به كثيرًا.

وبدلًا من أن يصعد إلى مقعده في الطابق الثاني دخل إلى قاعة أمه على غير هدى، فوجده يعتليها، أخرج مسدسه.

- ظالم ولا مظلوم يا عبد الهادي؟ !

- مظلوم يا ماجر مظلوم يا صاحبي.

- ولساك بتقول صاحبي يا خاين يا غادر

- اعقل يا ماجروافهم؟

- افهم إيه يا فاجر، دا الفُجر فيك مأصل، وأنتي، أني كنت مستعد أبيع نفسي لشيطاني لو طلعلي، كنت بناطح الديابة في الجبل، اتمنيت يتحول واحد فيهم لشيطان أقوله خدني وطير بيا على البلد أغطيها بدراعاتي واحميها، ليه؟ ليه يا "غريبا" ليه؟

وأطلق رصاص مسدسه فاخترقت صدر عبد الهادي وجنبه وأعلى بطن مردات، ماتا وهما على وضع الخيانة، ماتا وهما يتوسلون أن يرحمهم.

مات هو الآخر عندما سمع صوت مواطئته لها، صغر واندثر عندما فتح الباب ليجدها خانعة له.

وقف على رأسهما حتى طرق الباب واجتمع الخفر، اقتيد إلى سجن هو أهون كثيرًا، فسجن الجسد لا يضاهي سجن الروح، فكر وتفكر في التخلي عن حياته، لم تؤتيه شجاعة لإزهاق روحه بل ثبت مشهد خيانتهم في عينيه ورأسه، نطح به الصخر وهو يكسره بيديه لا الدم النازف أراحه ولا ابتلت روحه ببروده من ولد في عينه الحزن بالفقد.

مات عندما أطلق الرصاص على جسديهما، وشابت عيناه الحمرة، والتي لم تنجلي وتتقلص وتعود إلى القلب الذي قذف بها بل بقيت عيناه مشوبة بالحمرة الدامية، كبروكهلت عظامه في دقيقة من عمر الزمن.

مات في ثلاثة أيام يصارع حمى لفت كل كيانه، كانت السخونة تصدر من داخله لا من أطرافه وبطنه فقط، مات الشيخ شعبان وهو يهذي لساعات ثم يستفيق دقائق وهو يقرأ بعض الآيات من القرآن.

- إِنَّ[9] اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

يغيب لساعات، ويتذكر كل كلمة قالها لهداية الناس، يلتف حوله الكثير من تلاميذه، يغيب ويعود مرددًا:

- الَّذِي[10] خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ

في اليوم الثالث مع آذان العصر من مئذنة جامع الأزهر وصل القطب ودخل منزله واجمًا منطلقًا، انحنى واحتضنه يمسح عرق جبينه الغزير بطرف جلبابه، يبكي كطفل وتختلط دموعه بالعرق الناتج من كل جزء في وجه أخيه، يمسح دموعه بكفه ويمسح العرق.

- على فين رايح يا شعبان؟ ، على فين رايح يا صغير، على فين يا بني واخويا، مستعجل ليه لسه بدري؟ كنت بتقولي: كن حكيم دي رحلة، واتاريك من غير زاد قصرت المسير، يا شعبان.

استفاق لبرهة وهو مغروس ما بين صدر القطب ويديه قائلًا وصوته يهتز:

9- سورة النحل 90

10- سورة الملك 2

- الْمَالُ[11] وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا

- أرآهم رجالا يا قطب، فلا تغفل، لا تغتر، لا تغفل، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله خالق الأكوان، وأن محمد رسوله ونبيه وهادينا.

وقف بضخامة جسده أمام كل زملاءه وتلاميذه، رفع عصاه في وجه الجميع، وحمل أخيه إلى القرية ودفن جوار أبيه وأمه، رأوه الناس مكسورًا مطأطأ الرأس الكبير ويضعه فوق كفيه على رأس عصاه الكبير وقد غرست في الأرض تحت ثقل الهم لا الجسد.

وقف وجواره أبناءه الخمسة حتى صغيرهم المسمى على اسم جده صادق ابن الرابعة عشرة، ارتدى جلبابه الأسود ووقف جوار أبيه يده تسبق يده يمدها ويضغط بقوة لتلقى العزاء ممن حضر.

لم تعد تتلون الأيام كل يوم بلونه مثلما كان يرى، في يوم يروي الأرض، والأخر يزرع ويحصد، وفيما بينهم يتوسط المندرة في موضع جلسة أبيه يقضي بين الناس والدار كلها يملؤها صوته، لم يعد يرى في كل الدار وخزائنها وحظائرها والأطيان الكثيرة إلا هو، لم تعد هي الدار التي تربى فيها، أصبح وحيدًا، أحس وكأنه قد كسرت فقرة في ظهره.

تبكي النسوة على المقابر في يوم الأربعين لوفاة الشيخ شعبان وتبتل الأقراص من الخبز بالدموع قبل أن توزع على صبية فقراء، عاد من المقابر وظل يستقبل المؤازرين لمصيبته، يتذكرون محاسن المتوفى ويثنون على علمه وعمره القصير، من وسط الكلمات اختار كلمة ظلت باقية ولم تتلاشى أحرفها مثل كل الكلمات حلوها ومرها، وإنما حركت في نفسه كلمة أحدهم بأن شعبان مات دون ولد، من ذا الذي يتذكره بعد سنوات بعد أن تتطاير نقاط الحزن المر من القلب، الإنسان نساي، تتبدل أحواله في كل يوم، والذكرى تجب الذكرى، والفرح يدفع الحزن إلى قعر العقل دافعًا إياه للاختباء حتى تحركه محاسن قام بها من مِن أجله كان الحزن.

11- سورة الكهف 46،47

الأصِيلُ

لم تكد تمر ستة أشهر على فقده لأخيه الوحيد، وانتشرت هلات النسوة جامعي القطن يملئون بطون جلابيبهم المتلونة بوريدات مختلفة ألوانها، حتى تفيض قطفات القطن وتبرز فوق الصدر تذهبن إلى بؤر افترشت ببساط من الحصير وتفرغن البطون وهن في غمرة السعادة، خير من جمع القطن بأجرة يومية وخير بتعدد الفرحات بتزويج الأبناء والبنات وإقامة الأفراح، في كل يوم هناك في دار من دور القرية فرحة في المساء يذهبن ويزغردن ويتمنين الخير للمقبلين على الزواج وتتراقص أوساطهن وتهتز مؤخراتهن فينطلق الدم دافئا فرحا في كل الجسم ويعمل على إشفاء الجروح ووئد آلام تركبت فوق بعضها طوال موسم كامل من الاستمرار منثنيات في القيظ وتختلط أرجلهن بطمي الأم التي نبت منها الإنسان في منشأه.

اتفق مع زوجته حجازية، الأم الكاملة والجامعة، كانت تشبهه، عظامها مفرودة، وساعديها قويان مثلها، تحلب وتخبز وتخزن أقوات السنة كاملة بيديها لا بيد الخدام، وكانت لها رائحة، وإن أكلوا خارج الدار لم يعرفوا للزاد طعم ولا استمتاع، اتفق معها على أن يزوج في كل عام ابن من أبنائهم، وهي عليها أن تكون الميزان وعمود تقف عليه كل جدران الدار.

يملك الآن ما يزيد على أربعين فدان كاملة، موزعة على أحواض حول القرية وفيما بين القرى المجاورة وإنما ظل يشتري في كل عام قطعة ويبدلها لتكون كل مجموعة من الأفدنة في حوض تصل إلى عشرة أفدنة، بقيت حصة الصادق الصغير وكلها أربعة أعوام تمر ويزوج ويجب أن يكون هو الأخر حصته في الأرض تساوي إخوته.

جاء جابي مبعوث من المديرية لجمع أموال على كل قيراط مزروع من أجل حفر بعض الترع والمصارف لتحسين الأراضي حول القطر كله، فقد تشكلت وزارة للزراعة وأول ما عملوا عملوا على الحفاظ على رقعة مصر كلها من الأراضي المزروعة، وتطوير الري لإصلاح البؤر التي بارت بمرور الزمان وتكلست تربتها

وقذفت بالملح على سطحها، دفع القطب دون تأخير وكذلك طلب من كل فلاح يملك عدة قراريط يتقوت من خيرها.

جاء أولاد الشال إلى القرية واشتروا دارا وحولها فناء كبير وضربوا سورًا ضخمًا عليها، وجمعوا معداتهم فيها وأصبحوا يسهرون في كل ليلة والأنفار والعمال يدخلون ويخرجون في كل ساعة، من عقود كان أبيهم موسى الشال مقاول يعمل بالاتفاق مع مندوب الوزارة في حفر الترع والمصارف وأيضًا يتاجر بالأقطان وأي خير يقع تحت يديه، مات وترك ميراثًا كبيرًا من الأموال والعمال والمعدات في أيدي ثلاثة من أبناءه، لم يعرف أحدًا لهم أصل ولم يخبر أحدهم ويؤكد أن لهم نسب أو وطن، وإنما قال البعض أنهم قدموا من نواحي الصعيد في يوم منذ زمن، ووضع يده موسى على قطعة أرض بور قرب منوف وظل يعمل نفرًا باليومية وأجير لدى الكل حتى عمل خفيرًا لدى أحد المقاولين لحراسة معداته ليلًا وفي يوم اختفى الرجل دون أثر ووجدوا موسى يدير العمل وأصبح ذو نفوذ ومال وعلاقة بمندوبين الحكومة.

كانت أعمال حفر المصرف الكبير في مقابلة زمام القرية فيما بين مساكنها و ترعة الباجورية، لم ينصبوا خيامًا أو يبنوا أكواخًا لهم بل بنيت للعمال والأنفار وهم اشتروا الدار في عمق القرية وبين بيوت أهلها، يملكون المال وليسوا أسخياء وإنما لكل شيء ثمن، اشتروا كل شيء من الناس وباعوه، واستضعفوا أهلها الفقراء ببساطتهم وطيبة قلوبهم الندية.

جاء مبعوث من الأملاك الأميرية يعرض بيع قطعة أرض تبلغ أحد عشر فدانًا كاملة في أطراف حوض ظهر الشراقي بالقرب من جسر المصرف الجديد، أرض بور بها ارتفاعات وانخفاضات وتنمو على سطحها كل الأعشاب التي يسميها الفلاحين من نبت الشيطان، أرض بعيدة عن جسر ترعة الباجورية وبعيدة عن أقرب مسقاة فلم يكن يرغب فيها أحد وبعد أن يشق المصرف الجديد فستزدهر، فقط تحتاج لرجال ومال لتحمل إيصال المياه إليها كي تغتسل وتطرد ملحها إلى المصرف فتنمو الزراعات وتتكاثر الخيرات من نبتها.

جاء مبعوث الأملاك من المديرية معها خريطة ومقياس وعقد فقط يحتاج لبصمة إبهام وعدة مئات من الجنيهات، جاء المبعوث ومعه اورنيك ملكي بأن الأرض لا يقل سعرها عن مائة وثمانون جنيهًا مصريًا للفدان الواحد تدفع كاملة دون أقساط أو بدل أو تأخير وتسلم فور الدفع لمن يشتري.

جلس المبعوث في دار الشيخ القطب بصفته الرسمية، فأخبره أنه شاريها بنفس المبلغ المحدد، وطلب أسبوعين لبيع بعض مواشيه الكثيرة لإكمال المبلغ.

بعد أسبوع واحد جاء إليه المبعوث، يخبره أنه مادام هناك شاري أخر فتقام مزايدة وأعلى سعر تستفيد به الأملاك، تلك هي اللائحة والقانون ولابد أن ينفذ لأنه صادر من ديوان الملك.

أقيمت المزايدة في المندرة المنصورة وحضر أعيان القرية وبعض الأعيان من قرى مجاورة ومندوب عن البيك (الشقي) صاحب الألف فدان في زمام قرية كمشيش ومندوب عن البيك (السلال) من قرية طوخ دلكا وصاحب الألف ومائتي فدان في زمام قريته والقرية المجاورة.

فتح الباب لمن يزايد على سعر إجمالي قطعة الأرض على أن تكون المزايدة على سعر الفدان الواحد، كلما زاد القطب جنيهًا أو اثنين زاد رشدي الشال عشرة، ثارت ثائرة عبد العاطي ابن القطب الأكبر وبعض أصدقاؤه وهم يرون ما يحدث من تحدي رشدي لهم وارتفعت أصواتهم يهددونه ويطالبون بإلغاء تلك المزايدة، وقف الضابط المنتدب من مركز البوليس ورفع صوته في الجميع، فهدأ الكل إلا عبد العاطي، والذي كان يشابه أباه في مثل سنه إلا أنه لم يرث الصوت الأجش الضخم من أبيه، هدده الضابط بطرده من مجلس المزايدة ولم يهدأ إلا بعد أن نظر إليه أبيه، أن اصمت وانتظر.

استؤنفت المزايدة ووصل سعر الفدان الواحد إلى مائتي وخمس وستون جنيهًا.

فازبها القطب وقام رشدي يهنئه ويعتذر منه قائلًا: أنه لم يقصد أبدًا التنازع.

ربما خاف من غضبة ابنه عبد العاطي ومن حوله، وربما خاف أن يشتريها فكلما زرع يحرقونها له.

تسلموا الأرض ونصبوا تابوت كبير على حافة جسر ترعة الباجورية بعد أن اشتروا أرضه من مالكها، وركبوا طنبورا على حافة المسقاة الصغيرة على رأس الأرض بعد أن تم تقسيمها إلى أحواض صغيرة كل حوض يروى في يوم مساحته فدان.

قرر القطب أن يزرع الأرض بالقطن فهو الأربح والأقدر على تحمل ملوحة أرض بقيت بورًا سنوات طويلة، وأجبر أبناءه على أن يتبادلوا في تدوير الطنبور بأيديهم فتروى الأرض بعرقهم المختلط بالمياه وفيه رائحتهم فتجود بما عندها

احترامًا لمن رواها قاصدًا حياتها.

كان ميراثه الأصيل هو عشق الأرض، احترام الزرع، الانتماء لتربة هي أصل ومنشأ الإنسان، رجل غني وقادر لديه أنفار وتملية يعملون لديه ويستطيع أن يشرف بنفسه وفقط على كامل الأرض والمواشي والمحاصيل وإنما غرس هو الأخر حب الأرض واحترامها في نفوس الأبناء، بعد أن توفي الشيخ شعبان أراد القطب أن يكون من بين أبناءه من يكمل المسيرة، فعز العز والفخر في قريتهم أن يكون من بين أبنائهم شيخًا أزهريًا يتلقى تعليمه كاملًا ويحمل العلم في صدره، أرسل كل أبناءه إلى الكتاب وعرفوا جميعهم القراءة والكتابة، وانتظر هو أن يبزغ من بينهم أحد تملؤه الرغبة في استكمال الطريق.

وكأن الرجل قد كره الأرض كلها ما أن مات أخيه، ورغم استبساله لامتلاك أحد عشر فدانًا جديدًا وإنما لم تكون لتلك الأرض زهوة في قلبه ولم يفرح بها وينشر الأفراح على كل من حوله، لم يذبح جملًا كما اعتاد ولم تبلل الكفوف الصغيرة بدمائه الدافئة لتطبع على جدار المندرة المنصورة.

مازال بعض الناس يتذكرون يوم أن ضرب الجاموسة بقبضته العارية فكسر لها أضلعها الكبيرة، يحكون لأحفادهم تلك الحكاية، فيقف الأطفال الصغار عندما يرونه قادمًا على رجليه سائرًا لصلاة العصر ويبقون ناظرين بإمعان إلى جسده وشاربه حتى يمر عليهم فيسد عين الشمس بجسده الهائل وتستبدل أشعتها الدافئة بظل على وجوههم.

أثمرت الأرض وأنارت صفحتها للناظر ببياض كريات القطن المدلدلة من لوزاتها المتفتحة، جمع القطن وبدلًا من ذهابه اليومي كان يقف خلف الأنفار ويتابع عمليات الجمع ابنه الأكبر عبد العاطي ومن خلفه أخيه عبد الوهاب يخيط الأجولة الكبيرة ويحملها على ظهور الجمال لتخزينها في دارهم، بعد أسبوعين جاء إليه عبد الوهاب يخبره أن إجمالي محصول القطن بعد أن وزنه بنفسه معلقًا ميزان قباني على العتبة العليا لباب المخزن قد بلغ تسعة وثلاثون قنطار كاملًا، فابتسم قائلًا:

- عال عال، رزقك واسع يا عبد الوهاب

تعاقد رشدي الشال مع التاجر الرئيس بمديرية المنوفية، واتفق على جمع أقطان القرية كلها وأيضًا أقطان قريتين جوارها وتسلم قطعة الأرض في مدخل القرية والتي كانت بورًا وبني على رأسها غرفتين كبيرتين وسور وهيكل ثلاثي

لتعليق الميزان الكبير، ابلغوا القطب، فقال:

- أبدًا ما يحصل ورجلي بدب على الأرض.

فتح فناء داره الكبير ومن خلفه كان باقي أرضه، وعين الخفراء وأعلن للناس أن مجمع الأقطان لهذا العام في داره، وعلى كل فلاح أن يسلم أقطانه له.

جمعت كل الأقطان، في داره وأصبح السجل متخمًا بالأسماء وأمامها مقدار ما وزن، وانتقل عبد الوهاب لإحضار تاجر كبير من طنطا اعتادوا على بيع كل الأقطان له في كل عام، وهو كان تاجر كبير يدفع كامل الأموال دفعة واحدة ما أن يتسلم الأقطان وتحمل على سياراته الكبيرة.

اغتاظ رشدي وإخوته، وأبلغوا الرجال المتعاملين معهم وكان من بينهم ماهر بك أميرالاي في البوليس ويملك أربعمائة فدان ورثها عن أبيه ويتاجر بالمحاصيل الزراعية في مديرية القليوبية وعلى علاقة وثيقة برجال القصر وكبار مجتمع القاهرة.

جاءت إليه إشارة تليفونية بالحضور لمركز البوليس، وهناك أخبره المأمور بأنها أوامر عليا تصدر من إدارة بوليس القطر، بأنه يجب إقالته من منصبه كشيخ القرية وتعيين عمدة يكون المسئول الرسمي أمام الجهات الرسمية.

- يا محمود بيه، أنا لست شيخ القرية بموجب اختيارك أو اختيارهم

- يا شيخ قطب..

- أني مقصدش أقلل من جنابك، وإنما أني القطب بن الصادق بن مصطفى بن محمد بن حافظ بن شعبان بن عبد القادر نصر الدين، أصلنا معروف وجدورنا ضاربة لسابع أرض.

مضطجعًا على حافة سور صغير من الطوب اللبن بشكل قوس في وسطه جذع شجرة التوت الكبيرة تفرش ظلها الكبير أعلى تابوت نصر الدين، ومن حوله بعض العصافير تسقط لتلقط بعض الفتات وسرعان ما تضرب بجناحيه الهواء لتصعد وتختفي بين أغصان التوتة، سارحًا وناظرًا نحو امتداد حقله الذي أصبح بمساحة فدانين ونصف قطعة واحدة وعلى حافة الأفق مع امتداد الزراعات يرى فلاح ممسكًا بيد المحراث الكبير وفي الأمام يمسك صبي صغير على الأغلب هو ابنه برسن الجاموسة لقيادتها وتوجيهها وكل بضعة دقائق يقذف الفلاح بطوبة نحو ابنه وان حادت الجاموستين في مسيرتهم، دقائق واصطدمت طوبة كبيرة برأس الصغير وتفتت وتناثرت، بكى الصغير وارتمى على الأرض ممسكًا

برأسه وترك رسن الجاموسة فتوقفت مكانها في ثبوت، ترك الفلاح يد المحراث وانكفئ على ابنه وطبطب على جسده وساعده في الاعتدال ليجلس أمامه وهو متكئ على ركبته ثم أمسك برأسه بين كفيه وقبل جبينه، فقام الصغير ليمسك بالرسن مرة أخرى واستكمل حرث أرضه وهو يصيح ويلوح بذراعه كله.

لم يكن نظره مركزًا على المشهد بقدر ما كان متابعًا للأخ الصغير الذي يجلس على المحراث ساندة ظهره على الزند العمودي والذي قفز قفزتين حتى مال على أخيه عندما سقط على الأرض من ألم اصطدام الطوبة الخشنة برأسه، ما كادت تصل وتصطدم برأسه إلا وقفز الأخ الصغير بجلبابه القصير وكأنه كان يعرف جيدا أنها ستؤلمه، ساعات يجري خلف أبيه والمحراث فيتعثر في الشقوق خلف سلاح المحراث فيسقط ويقف مرة أخرى، وساعات يحاول أن يمسك برسن الجاموسة الأخرى ليوازي أخيه فلا تطال يده الصغيرة والتي كانت شبه معلقة فيعود مرة أخرى ليقف أبيه برهة فيمتطي المحراث ويجلس.

بعد ساعة ربما بقي القطب ناظرًا أليهم توقف الرجل وأمال المحراث الضخم واجلس ابنه الصغير ثم مزق جزء من جلبابه الصغير من طرفه السفلي، وربط قدمه الصغيرة وأخيه الأكبر يتكأ أمامه ويده ممسكة بذراعه الصغير، رفع الصغير على ظهر الجاموسة فركبها وأشار للكبير أن دور ناحية رأس الحقل ورفع سلاح المحراث فأصبح في الهواء والجاموستين تسيران دون عناء.

ربما رأى شعبان وهم صغار ورأى أبيه الشيخ الصادق وهو يعلمهم كيف يمسكون بالمحراث ويضغطون على رأسه ليغوص السلاح في باطن الأرض ويفجرها صائحًا على شعبان الذي دائمًا ما كان يلهو في الخلف:

- اللي ما يفلح بأيده ما يفلح

يا الله، تلك الأعين الحادة وحواجبها الضخمة تسقط قطراتها لتبلل الشارب المهيب وتزوغ صورة الفلاح وابنيه وهم يصغرون كلما ابتعدوا ناحية رأس حقلهم.

استفاق، استفاق على صوت ابنه عبد العزيز عائدًا من سوق مواشي شبين الكوم، يجلس معه ليحكي له كل ما كان، كيف ربح وكم ربح وأية مواشي باعها وأيها اشترى، كان المسئول عن التجارة بالمواشي وتنظيمها في تركتهم، شاب متوسط القامة جسده الفتي ممتلئ ويداه قويتان يلبس الطاقية الصوف الصغيرة ويكبسها على رأسه لتميل قليلًا للخلف فيظهر شعره الأسود أعلى جبينه المستدير فيتجمل وجهه ما بين سواد شعر رأسه الناعم وشعر شاربه الصغير.

يخرج القطب له نسبة مما يتاجر به، وفي كل مرة يرفض ذلك ولكن القطب ينهره بصوته الغليظ:

- حقك وتعبك يا عبد العزيز

وهكذا كان يفعل مع مبروك الابن الرابع، رغم خجله الشديد وزرقة عيناه في كل مرة كانت تحمر وجنتيه عندما يجزل له أبيه من أموال على حسن تربيته لقطيع مواشيهم والأغنام والجمال، زادها رغم صغر سنه، عشق عمله وانسجم فيه، يطلق العنان لصوته العذب كلما خرج بالقطيع يرعى على جسر ترعة الباجورية، يوقفهم للسقية والاحتماء من القيظ ويجلس تحت صفصافة كبيرة وارفة يغني وينشد ويجلس جواره صلاح ابن عمدة قرية كفر زرقان يستمتع بغنائه ويتبادلون أبيات الشعر وأحيانًا بعض آيات القرآن

في تلك السنة انتوى تزويج ابنيه عبد العزيز ومبروك في سنة واحدة، بعد جمع القطن، كان غنيًا ولا يعيقه ما يتكلف من الزواج وإنما هي عادة تدخل السرور على النفس أن يتزوج الابن أو الابنة بعد موسم جمع الأقطان، وربما كان يستشعر القيمة بارتباط كل مداخل الإسعاد بما تفيض الأرض من خيرات وما يسعد رجلًا من أن يزوج أبناءه ويرى أحفاده يسيرون أمامه فيكون الشعور بالاكتمال محدثا النفس:

- فها أنا كنت هنا أسير وأدب بأقدامي على تلك الأرض في يوم ما.

يجري الصغار ويكررون خلف جوهر المنادي وهو يعلن عن إقامة الاحتفال بمولد سيدي حسن الوفائي الأسبوع بعد القادم:

- الرب جواد، جود يا بني أدم مما أعطاك وأحي ذكرى الإمام، جه يدفع عنك شر النفس وبالهداية كان منساق، هو أسبوع من الأيام، ونذكرونمدح خير الأنام.

لم يعرف حتى الطاعنين في السن في القرية أن يخبروا من يسأل من أين أتى سيدي حسن؟ ولما أتى؟ وهل كان له أبناء أو زوجات؟ وإنما كل ما قيل أنه كان في جيش صغير أتى بالقرب من مدينة الشهداء في عهد مروان بن الحكم، جندي يسعى لنشر الإسلام جاء ورفاقه تحت إمرة سيدي أبو شبل الأسود واستشهد هناك أربعون جنديًا فدفنوا أعلى التبة التي شهدت المعركة وبني فوقها ضريح ومسجد سمي مسجد سيدي شبل وإليه يرتحل الناس من كل القرى المحيطة طالبين المدد والخير، أما حسن الوفائي فممن نجوا من المعركة ثم ارتحل سائرًا حتى وجد شجرة توت ضخمة وارفة على جسر مسقاة ليس بها مياه إلا القليل

وتحتها كوم كبير من الطمي الجاف اضطجع تحت ظلها أعلى الكوم ليرتاح فسرت في جسده كله راحة وهدأت الجراح، فقام يسعى في القرية وقد كانت عدة دورة بسيطة تعد على أصابع اليد فساعد أهلها في الحرث والزرع ولم يطلب إلا ما يقتات به في يومه وحدث أن قامت معركة بين اثنين فاستطاع أن يهديهم ويوفق بينهم دون نزاع متبعًا أخلاق الإسلام، فشهدوا له بالصلاح والتقوى، لم يكن يجد راحته إلا تحت تلك الشجرة وبعد عدة أشهر اضطجع كعادته فمات، تجمع بعض الفلاحين بالقرب من موضعه وهللوا مقتنعين أنها رسالة من الله ودفنوه وبنوا على جثمانه ضريح صغير بقبة دائرية يتبركون به وأصبح الناس يطلقون على المكان إذا ما وصفوه " عند البقعة التي مات فيها الشيخ على الكوم" وتناقل الناس الاسم حتى أصبح ميت أبو الكوم وتوسط ضريحه الدور والتفت حوله كل المساكن والحقول، وأصبح الاحتفال في كل عام يوم مولده هو احتفال روحاني يرتبط ارتباط وثيق بقوة إيمان الإنسان، يهبون الأموال لتعمير السبعة أيام بإحضار المنشدين وإطعام الفقراء والمساكين وعابري السبيل والمتصوفين، ويطلبون المدد يوم ميلاده بزيارة القبر وقراءة القرآن ودعوته للتوسط عند رب العباد.

يدفع القطب هبة كبيرة في كل عام وهكذا كان يفعل أبيه من قبله وجده، لم يتوسل في يوم داخل المقام وإنما ترك النسوة تفعلن في بعض الأحيان، عندما كان شابًا كان يصطف وسط الناس ويتطوح يمينًا ويسارًا مردد:

- حي، حي، الله حي

بعد أن مات أبيه كبر وتحمل المسئوليات وجلس وسط الأعيان، بعد أن مات أخيه، لم يتطوح في يوم بعدها واكتفى بالجلوس و سماع الذكر وحسن الكلم والإنشاد، لم يمنع أبناءه عن مشاركة الناس بكل مراسم الاحتفال وإنما حذرهم أن يسقطوا مجذوبين على الأرض من شدة الإعياء.

فرح عندما وهب مبروك ابنه صوت جميل واستخدمه دائمًا في الإنشاد وتقدم صفوف زفة عروس من العائلة ينشد ويشدو والناس والنساء من خلفه يرددون:

- يا رب بارك، يا رب احمي

جلس في يوم جامعًا أبناءه وأغلظ الكلمات بأنه يجب أن ينجب كل منهم خمسة من الأبناء، يكونون ظهر وسند ووقاية من شرور الناس، وذكره عبد

العاطي بكلمات عمه المرحوم شعبان عندما زارهم بعد عودته من السفر والقطب يطالب أخاه أن يتزوج أخرى غير نظيرة لينجب أولادًا يكونون السند له وذاكري آثاره، يومها رد الشيخ شعبان بدرس كامل على أخيه وهو يقول:

- الشر والخير جوا كل إنسان، لا بالولد ولا بالمال تقدر تدفعه وإنما الولد ممكن يكون الفتنة زي الأموال، فابن أدم نساي وطامع وما يملى عينه إلا التراب، وإن ملك المال أراد الولد، وإن ولد أراد الملك والجاه، وإن ملك أخرج شروره وقتل، وإن كنت في يوم سأحتاج من إنسان فأولادك هم عكازي، فدمي فيهم وتسري آثاري داخلهم.

لم يتراجع القطب عن مطلبه بل أنار لهم الطريق قائلًا:

- وإن راح مالك زلوك، واستعطاءك في كل يوم سيف يحز من جسمك شبر، وإن ما كان ليك ولد وعندك مال سرقوك وإن واجهت اتكاتروا عليك ونهبوك.

وفي ليلة الجمعة، أكبر ليالي الاحتفال بمولد الشيخ حسن الوفائي، جاء الخبر بأنه تم تحديد الجرن البراني تحت إشراف رشدي الشال لجمع الأقطان بعد انتهاء الاحتفال، ومن يتخلف عن تسليم أقطانه يواجه الجزاء، خاف الناس جميعهم وانهوا تسليم الأقطان، وقف القطب أمامهم فتح داره وأصبح يدفع من ماله ثمن الأقطان ويقف ابنه عبد الوهاب يزن للناس الأجولة ويسجل ويسلم الأموال.

جاء رشدي ومعه رجاله وبعض الأنفار وبعض الخفراء، أوقفوا بعض الفلاحين يوجهونهم بالقوة لتسليم الأقطان في الجرن الكبير، حظه العثر أوقعه صابر الغلبان، اسمه الغلبان وهو غلبان، فلاح ضعيف وفقير لا يملك إلا ثمانية عشر قيراطًا يزرع منهم عشرة قراريط قطن ويحمل جوال كبير على حماره قاصدًا دار القطب الذي دوما احتمى فيه وروى أرضه من تابوته وهكذا كان يفعل أبيه قبل أن يموت، رفض، ضربوه وأخذوا الحمار بما عليه وجره أحد الخفراء لتسلم أمواله بعد الميزان.

خرج القطب وأولاده ومن خلفهم بعض الأنفار، وقفوا ممسكين بالعصي والبنادق، وحموا من يريد تسليم أقطانه لهم، تناوش معهم بعض خفراء رشدي الشال، فأطلقوا عليهم الرصاص، اجتمع كل خفر وأنفار رشدي وحاولوا رد الضربة لهم، فسقط منهم ثلاثة قتلى وبعضهم أصيب، جمع القطب كل الأقطان وتراص خفرائه يحمون الدار والفناء ويسهرون ليالهم في يقظة حتى جاءت أربعة

سيارات للنقل الثقيل مدون على أبوابها " نقل عمومي في كل القطر" كانت لتاجر كبير في طنطا يصدر أقطانه لأكبر تجار الإسكندرية وسيارته لا تسير دون حراسة وسلاح.

رفع رشدي شكواه أمام مأمور بوليس المركز وتحركت الشكوى بدفع من التجار الكبار، عقدت جلسة على رأسها مأمور المركز ومندوب من المديرية وكبار القرية وأعيانها، طالب رشدي بدية نظير قتلاه ومن أصيب، رفض القطب مطلبه بلا رجعة وهدد أنه سيحمي مصالحه مهما تكلف من مشكلات، ارتفع صوت رشدي مستكينًا ومدعيًا أن القطب يتجبر لأن لديه أبناء وفي أيديهم السلاح، وأنه تعدي عليه لعلمه أنه قد تقدم بطلب ليكون شيخ القرية بعد أن سحبت من بين يديه.

انتهت الجلسة بعرض أملاك العمدة المرحوم نائل الفاضي للبيع على أن من يختار ليخلفه في المنصب أن يشتري أملاكه كلها بما فيها الدوار ويكون العمدة لتهدأ وتنظم الأحوال.

عرض القطب شراء الأملاك وطعن في طلب رشدي فلا هو من أبناء القرية ولا ولد فيها وعاش، زيفت الأوراق واشتري رشدي الأملاك كلها وجلس على كرسي العمدة، وبعدها أرسل في طلب القطب بصفة رسمية إلى دواره، فرفض بصرامة وقال:

- ها هي داري بنيت وكانت مجلس منذ بزغت عن الأرض مجلس للقضاء بين الناس وشرف لمن يجلس بين جدرانها.

ذهب رشدي إلى دار القطب يرتدى جلباب باهظ الثمن بشرائط فضية على الحواف وطربوش على رأسه وممسكًا بعصا بلون العاج ومن خلفه يسير عدة خفراء يعلقون بنادقهم على الظهر والأكتاف.

- أني دلوقتي العمدة، الأمر والناهي

- وأني القطب نصر الدين، أمرك ونهيك يمشي على من تخدمهم لا علي ولا على أولادي.

- من اليوم، القطن يتجمع في مجمع الجرن البراني وأنت بالنسبة لي فلاح زيك زي أي فلاح.

- أني فلاح ابن فلاح، أصلي ضارب لسابع أرض، لو فحت ما توصل للجدر، إنما النبت الشيطاني، يطلع بلا عازه ويموت لوحدة ضعيف، إن ما خلعته ايد فلاح

ابن فلاح.

- بتهيني في بيتك يا قطب

- اسمي الشيخ قطب، وقبل ما تدوس أرضي تستأذن، يا يتفتحلك باب، يا تتضرب زي كلب أجرب، مش رحمة عليه، إنما خوف ليصيب الناس بنتانته.

- غلطت تاني، وعليك هتدور دوايري، وإن كنت شايفني كلب أجرب بكرة تعرف إني حية لو بس عدت على رجلك، هتموت من رعبك منها.

- اسمع يا رشدي، أني، أني القطب نصر الدين، غني مال ورجال، لو الفقر راكب حصان اسود وبيرمح ورايا عمره ما يحصلني.

دعا القطب كل الأعيان من القرى المحيطة وأقيم العرس الكبير أمام الدار الكبيرة والذي استطال سورها لمسافة تحوط على كل المساحة، سهر الأهالي والمدعوين وحضر رشدي الشال وخفرائه، استمر الاحتفال حتى لاحت أنوار الصباح وذبح جملين وعجل جاموس وسبح الخلق في مرق وخبز مشبع بها تعلوه قطع كبيرة من اللحم الشهي، حكى الناس عن ليلة عرس ابني القطب، واختارهو ابنة شيخ قرية زرقان زوجة لابنه مبروك وابنة عمدة قرية كفر ميت أبو الكوم لابنه عبد العزيز، أعزاء وكباروأقوياء بالمال أرسلوا في ثاني يوم موكب محمل بكل الخيرات يتقدمه رجال يسحبون خلفهم حملين كهدية لعروسهم.

عند العصر ترك الغوازي والصبيتة يمتعون الناس في فناء الدار الرحيب وتتكاتف نساء العائلة والمحبات بتقديم الصواني وأرغفة اللحم لمن يطلب، أحب أن يرتكن على مدارتابوت نصر الدين، وراح في غفوة وهو مغمض العينين، جاءه شعبان وحضر ليلة العرس ووقف جواره بجبته وعمامته يرحب بالقدوم ويدعوا للجميع بالبركة، ثم التفت إليه ومال على أذنه وهو يكشف ويشير إلى جرحه في يده الذي اندمل ظاهريًا وبقى داخل الجسد صاحيًا، طبطب القطب على ظهره وابتسم، همس شعبان في أذنه:

- هل تتذكر يوم أن وقفت كأسد أمام الذئاب لا تهابهم، دافعت عني يوم أن قضمت يدي العسقلة، وبكيت لأول مرة يوم أن لفتني الحمى، كنت أراك هرمًا عاليًا يوم وقفت تستقبل المهنئين يوم عرسي على نظيرة، وكنت جبلًا قاسيًا يوم ضربت أبو التوالت فشججت رأسه في لحظة من أجل شرفي وكرامتي، اليوم أنا فرح لامتلاء قلبك بفرحة الأب التي شهدتها في كل يوم عندما كنت أسير على الأرض كالبشر، انهض يا أخي، انهض واستفق، فالدرس قاسيًا وأنت على قدر

قسوته كما أتخيل.

استفاق على صراخ من خلفه، انتفض ووقف ينظر خلفه، وجد مستقيمة ابنه عبد البارئ تصرخ وتولول، سار إليها يسبقه بعض الرجال وفلاحين فيهم الشباب بكرًا، وصل إلى تابوت التاجي فوجد فتح الله قد سقط للمرة الثانية في نفس موضع سقوطه الأول منذ سنوات، لم يكن طفلًا وإنما شابًا وجسمه لم يرتقى، سقط وغاصت رأسه في الطين ولم يرد على صياح أخته مثلما فعل في المرة السابقة، حلوا الجمل من التابوت وتدافع الشباب إلى بئر التابوت ورفعوه ميتًا، جلس عبد البارئ أبيه يبكي بلا صوت وابنه ممدًا أمامه، لم ينجب إلا هو وأخته مستقيمة وقد كانت تساعده في زراعة الأرض وزوجها، جلس جواره القطب يربت على كتفه ويهدأ نفسه الثكلى فقد كان زميل أبيه في الكتاب وله نفس عمره، لم يكن القطب في يوم رقيق الكلمات وإنما حتى الكلمات الرقيقة تخرج من فمه قوية وعظيمة ومغلظة، نظر إليه عبد البارئ وهو يحاول أن يسيطر على أنفاسه قائلًا:

- ولد وواحد، وراح، يا مين يدفنك يا عبد الباري

- اهدى يابا عبد الباري، دا حكم ربنا.

- مفيش غيره يا قطب، وعجز قلنا أمر ربنا، مات، ومعدش لا ايد ولا رجل.

- البركة في مستقيمة تملى الدار عيال.

- ومنين أجيب الفرح بعد ما ظهري انقسم؟

مر الحادث وانقضى ومر يوم القطب وانقضى ومثله أيام تشابهت لم يعد هناك الكثير يثير حفيظته حتى طرق بابه ونادى يا قطب، فناده من الداخل:

- تعالى يابا عبد الباري، اتفضل

دخل وجلس مكومًا وكأنه عظام وثنيت على بعضها، وحكى له أن عبد الصمد التاجي يطلب منه أن يبيعه أرضه، ولما رفض هدده.

- مروحتش للعمدة ليه؟

- العمدة هو اللي مقوي ظهره، هو قالي كده، ولما روحت للعمدة، لا فادني ولا حماني، وقالي بين البايع والشاري يفتح الله باب.

عاد عبد الصمد التاجي وأصبح للتابوت أضواء باهتة تظهر حوله في ظلام الليالي، وتستمر حتى مطلع كل فجر، حرقت زراعة عبد البارئ في وضح النهار ولم يستطع الفلاحين إطفاءها وإنما وجدوا قطط تخرج وتجري لتسقط في الترعة

وقد التهب ذيلها من النار بعد أن ربطت بها شرائط مشتعلة.

انتشرت الحرائق ودمرت الأقماح حول حوض التاجي والوحيد الذي نجت زراعاته كان عبد الصمد.

باع عبد البارئ أرضه وانتقل لأطراف القرية الجنوبية واشترى تسعة قراريط هي الوحيدة التي وجدها كانت لأرملة قد تزوجت وانتقلت للعيش في بيت زوجها الجديد بطنطا.

أصبح اليوم عبد الصمد التاجي الأعرج له صوت يقف في وسط السكة المجاورة للترعة الزرقانية في وضح النهار، يسأل من يمر. . ابن من أنت؟ ويرهب من تمر حاملة على رأسها سبت مملوء بخيار أو بطيخ فيأخذ ما يريد لتنطلق هي والرعب يبدد الدماء فيصفر وجهها، كلما جلس القطب على مدار تابوتهم القريب من تابوت التاجي لا يظهر عبد الصمد التاجي لا هو ولا أي من صبيانه وأشقياءه ويبقون جالسين في وكره، كلما ارتفع صوت الرجل وهو يقضي بين اثنين جلوس معه وقت العصر، صمت هو ورجاله في ترقب، حتى سمع مستقيمة تستغيث به فذهب إليها وجدها تقف وأمامها عبد الصمد وخلفه أحدًا لم يعرفه، ضخم الجثة عريض الرقبة واللحم يناطح ثوبه، سأل عن سبب صراخها واستغاثتها به، قائلة:

- أن عبد الصمد تعرض لها

نظر إليه فقال:

- أنها دعت عليه بالمرض والهلاك بصوت جهير وهي تمر في مقابلة التابوت

فوقف هو يرد عليها كلماتها، فزادت الدعاء عليه في وجهه وأمام رجاله كلهم.

فقز هذا البغل من رجاله ورفع يده عليها ووضع كفه الغليظ على صدرها وهو يدفعها فسقطت على الأرض وقامت تدعو عليه فحذرها وقال لها:

- أن اذهبي لطريقك ولا تعودي إلى هنا وإن عدت فسيفجر بها.

أخذ القطب مستقيمة تحت ذراعه وطبطب عليها، وقال:

- من اليوم يا عبد الصمد، مليكش قعدة هنا لا أنت ولا الغرب دول عن البلد.

قبل أن ينطق عبد الصمد، رد الرجل الضخم من خلفه قائلًا:

- ليه كنت ربنا وإحنا مش عارفين، إحنا هنقعد هنا بكيفنا واللي مش عاجبه يرحل، والدراع موجود، والسلاح بيتكلم.

لم يكمل كلامه إلا وضربه القطب بقبضته بعد أن كورها في صدره المكتظ باللحم، فسقط مقذوفًا به على ظهره وارتفعت رجلاه في الهواء ثم مالت جواره وهو يتألم ولا يستطيع إخراج صيحة الموجوع.

لملم عبد الصمد رجاله وأشقياءه بعيدًا عن طريق القطب وصب سخطه الكامل في غياهب الليالي المظلمة والممطرة يخرج رجاله كعفاريت في الليل على الطرق المحيطة بالقرية ويجردون الناس من أموالهم ومواشيهم، كثرت الشكاوى في دوار العمدة، لم يفعل شيئًا وإنما كان دائمًا مستعد بالأموال لمن يرغب في بيع أرضه أو مواشيه، يذهب الضعفاء إلى دار القطب ويعرضون أراضيهم للبيع فينهرهم ويقوي عزيمتهم وإن أصروا اشترى الأرض منهم ووافق على ضم بعض مواشيهم وشاركهم عليها وبهذا هي آمنة بالنسبة إليهم أن تكون ضمن قطيع مواشيه.

وجد نصار خولي أنفاره يوقظه في الصباح، خرج إليه بوجه هادئ، أخبره أنهم وجدوا تابوت نصر الدين قد ملئت بئره بالطمي، ارتدى جلبابه وأخذ في يده عصاه الكبيرة وذهب مسرعًا.

وجد الأنفار يحاولون إخراج الطمي بأيديهم والبعض ممسكًا بفؤوس صغيرة.

- لالا يا ولاد، استنوا، يا نصار خد الرجالة معاك واطلع على ظهر الشراقي وهات الطنبور الجديد.

ذهب نصار ومعه ثلاثة من الرجال وحملوا الطنبور على جمل وأحضروه وقبل أن يؤذن للظهر كانت المياه تنساب لتروى الأرض، وقال لهم:

- سيبوا التابوت زي ما هو عجز وشاخ، أني اتفقت على علبة حديد، كنا هنركبها في ظهر الشراقي، هنركبها هنا.

مر العمدة وخلفه الخفراء، ساخرًا.

- بقي بعد التابوت طنبور يا أبو عبد العاطي!!

- أني عندي غيار للطنبور يا رشدي، يتعب اتنين يبدلهم اتنين، ولادي مش أنفار، بأيدهم يزرعوا ويقلعوا ويكونوا أسياد الناس.

امتقع وجه رشدي بصفرة الغل وانصرف دون رد، وبعد أيام جاء مباركًا هو الآخر وجلس يشرب الشاي والرجال وأبناء القطب ينزلون ساقية من الحديد لها تروس حديدية وتدار ببغل أو بقرة أو حتى حمار قوي يستطيع إدارتها.

العَشِيُّ

الأخير في أبناءه، اسماه الصادق على اسم أبيه، وانتوى إقامة عرس كبير له هو الآخر، فقاعات إخوته الآن يصدر عنها أصوات أحفاده ليلًا ونهارًا، وزوجته حجازية تجلس في الدار كراعية وحاكمة تجمع الأحفاد كلهم حولها، ففي هذا الموسم كانوا يزرعون غيط حوض الحلواني بالقطن و غيط أخر في حوض أبو خمسة، اتفق أبناءه ليلًا أن يجمعوا هم غيط الحلواني وحدهم وباقي الأنفار المستأجرين يجمعون أقطان الغيط الكبير في حوض أبو خمسة، وما أن تكشف النهار وجدهم يخرجون من قاعاتهم، يجلس في المنتصف كالعادة ووضعت طبلية كبيرة عليها فطورهم الشهي، فطائر باللبن، وفخارة بها بيض سلق وهشم في زبدة صافية، وطواجن من اللبن المتخثر تعلوه طبقة غليظة من القشدة الجاموسي.

وجدهم يخبروه بما اتفقوا عليه، ابتسم وهو ينظر لهم، يذهب هو خلف الأنفار بحوض أبو خمسة ويذهبون هم وزوجاتهم إلى حوض الحلواني، تابع العمل وشد بالكلمات على نصار وذهب هو للدار ليحمل لهم غدائهم،

يسير راكبا بغله على السكة الرفيعة بجوار مسقاة أبو خمسة الضحلة ومن خلفه يركب أحد الأنفار وأمامه سبت ضخم به طعامهم والشمس تشدو بلهيبها القاسي والقيظ يرى بالأعين أعلى شجيرات القطن، ما أن اقترب من حقله الكبير إلا ووجد خمسة قمصان بيضاء تعكس أشعة الشمس وتتخللها خمسة جلابيب سوداء تظهر جليا لمن ينظر أن هؤلاء خمسة رجال ونساءهم يجمعون القطن.

قبل أن تغفل عين الشمس وتصبح السماء مضيئة ولا يرى قرص الشمس وجدهم قد نقلوا قطن حقل حوض الحلواني إلى الدار والأنفار لم ينتهوا بعد رغم أنه متواجدًا خلفهم وفوق رؤوسهم.

لاحت في مخيلته كلمات أبيه، وهو يقول:

- اللي ما يفلح بأيده، ما يفلح

فحدثته نفسه:

- كان عندك حق يا شيخ صادق، اللي ما يفلح بأيده ما يفلح وأني زرعتي فلحت

ونجحت.

جلس في المندرة المنصورة وبجواره جمعة ابن خالته، يتبادلون الجوزة الضخمة، يستمتعون بارتشاف دخان المعسل، ويصب لهم نصار أكواب من الشاي ويشاركهم حديثهم وهم جلوس على الأرض ساندين ظهورهم على صدور الأرائك الضخمة، دخلت عليه حجازية زوجته تبشره كعادتها، ولدت زوجة الصادق طفل ذكر وجميل، عيونه زرقاء مثل الصادق جد أبيه ورأسه كبير ومستدير، ما أن غادرت المندرة حتى صرخت زوجة عبد العزيز.

فزع الرجل وتقافز وخلفه جمعة، صعدوا سريعًا إلى المقعد في الطابق الثاني، جمدت ملامح عبد العزيز وكأنه في نوبة نوم، لا تقلصت عضلات وجهه ولا مال لون حوافه إلى السواد، فقط لا أنفاس، لا هواء يدخل أو يخرج، كان يشعر بالآم في الجانب الأيسر من الخلف كل عدة أيام منذ سنة، كانت تدلكه له زوجته وتغلي له شيح فيرتاح وينام، إلا هذه المرة، تألم وامتعض دون أن يصدر أصوات فقط نادى عليها، لتفعل مثل كل مرة، ولكنه لم ينم ككل مرة بل شرب كوب من الشيح وأعطاه لها واعتدل على ظهره وتمدد ثم أغمض عيناه ولم يفتحها.

صرخت وولولت، وصرخ الطفل في فضاء الدار من أسفل.

دفنه بعد صلاة الظهر في ثاني يوم، بعد أن جلس جواره وحده لقرب منتصف الليل، أرسل معه رسالة مطولة لأبيه وأخيه، رفض أن يحضر غسله إخوته بل القائم بالغسل وشيخ الجامع وهو، وكفنه بيديه وعطر جثمانه، وأغلظ الكلمات لإخوته أن يحملوه هم الأربعة في كل طرف أحدهم.

ضربوا سرادقًا كبيرًا أمام الدار، جلس القطب على أول مقعد وبجواره ابن ابنه الصغير لم يبلغ من العمر أربعة سنوات وصمم أن يجلس جواره ليأخذ عزاء أبيه في وسطهم ككل الرجال، جلس مطأطأ الرأس واضعا إياه على كفيه ومن أسفلهم كانت عصاه تنغرس في الأرض من ثقل الهم لا الوزن، لم تنغرس فقط بل غاصت، جاءه عبد البارئ بعد أن جلس وحضر واستمع لثلاثة أرباع من القرآن بعد صلاة العشاء، انتهي عزاء أول يوم والمعزين يقفون خلف بعضهم ليقدموا عزاءهم للرجل وأبناءه، جاءه عبد البارئ، وضع يده في يده ونظر إلى عيني الرجل، لم يكن ينظر الرجل المهيب إليه وإنما إلى لا شيء إلى فراغ ربما، بكى عبد البارئ ومالت رأسه حزنًا

- البقاء لله يا قطب

- مشكور سعيك

- أمر ربنا يا خويا

نظر إليه القطب وحدجه، كانت عيناه باكية دون دموع، وروحه مكسورة ولكن الجسد يقف وإنما رآه عبد البارئ جسدًا خاويًا.

- أني مشكرتكش يا قطب على انك لميت لحمي وحفظت عرضي.

هز القطب رأسه الكبير بهدوء وضغط على يده بقوة.

لم يبدل القطب أبدًا اللبدة الكبيرة التي كانت يرتديها على رأسه، كان لونها بني أحضرها له عبد العزيز ذات مرة من سوق شبين الكوم، كان يرتديها يوم أن مات، كلما اتسخت، جلس في المندرة ينتظر أن تغسلها له زوجته ما أن تجف يرتديها ويخرج متوجهًا لتابوت نصر الدين ليجلس وقت العصر كله حتى تتشح الدنيا حوله بالظلام، فيقوم متوجهًا للدار.

تمر الأيام كئيبة وتلد المواشي والأغنام، وأصبح اليوم يستقدم تاجر ليشتري ما يريد أن يبيعه من مواشيه، لم يظهر أبدًا على جسده الحزن ولم يخبو صوته أو ينكسر وإنما كان حزنه داخله يبقيه هناك بجوار الحزن القديم على فقده لأخيه.

عاد مبروك في يوم يسوق أمامه القطيع والأنفار فيما بينهم اسكنوهم في حظائرهم، ولم يجلس مبروك ليأكل معهم، سأل عنه فقالوا:

- أن لديه آلام في معدته.

لم يهئ بلقمته وأرسل زوجته لتطمئن عليه وتعود بعد دقائق تخبره أنه ربما آكل شيئًا وسرعان ما سيزول آلمه، قضى ليله في المندرة حتى آذن لصلاة الفجر، خرج للصلاة وعاد فسمع عند دخوله أن مبروك يسعل بقوة، صعد إليه ليطمئن قلبه، وجده غارقًا في عرقه وزوجته تضع إناء كبير ممتلئ بالماء تبلل بعض القطع من الأقمشة وتضعها على جبينه وسرعان ما تجف وتسخن كما لو كانت خرقة يمسحون بها القعر الحديدي للفرن.

أرسل عبد العاطي لإحضار طبيب من المركز، فجاء بعد أن انتشرت أشعة الشمس ومعه طبيب في يده، قال له:

- أنه محموم بحمى خطيرة وإن مرت ثلاثة أيام وهو يتعاطى تلك الأدوية فسيمر منها ويبرأ.

أعطوه الدواء وسهروا حوله يتبادلون النوبات، وفي الليل تعلو أنفاسه وتهدئ وفي ساعات يهذى بكلمات واضحة يخاطب فيها عمه شعبان وجده وجد أبيه،

استقدم القطب المقرئون يرتلون القرآن والآيات المنجيات في قاعته وحملت زوجته ابنيها ووضعتهم في أحضان جدتهم، في أخر الليل الثالث، لم يهذي ولو مرة وخرج القطب يجلس في المندرة مكتئبًا، فوصلته صرخة زوجته.

لم يستطع أن يصعد وظل جامدًا لفترة، طبطب على كتفيه جمعة، وظل يحادثه وهو لم يسمع.

ارتدى لبدة سوداء، ولم يفارق مدار تابوت نصر الدين، ترك عبد العاطي بكريه يتابع الزراعة والحصاد واكتفى هو بأقل الأعمال.

كلما جاء إليه فلاح ليقضي له أمرًا أرسله لشيخ القرية المعين، اشتكى له البعض من أفعال عبد الصمد التي انتشرت مجددًا وجاء إليه في يوم صابر يشكو العمدة له بعد أن ضربه على ظهره وجسده بسوط له طرفين ألهبا جلده فتشقق وأدمي، طبطب عليه وخفف عنه وهو يحادث نفسه:

- يا ليتني من ضرب بسياط، وبقى الأبناء، والله يا صابر لو تعلم الألم لفضلت السوط على الفقد.

شهور مضت وجاء موسم جمع الأقطان، لم تعد الأيام التي تسعد الأنفس وتبرر الحياة، جمع الأقطان دون أن تمسك يدي أحد من أبناءه قطفة واحدة، باعها في الجرن العمومي، كلما طلب فلاح أن يفض شراكته على إحدى المواشي فضها دون تعقيب، مضت أيامه وانقضت، والشر يكبر على يدي عبد الصمد التاجي وعنفوان الظلم يتصاعد بضربات سوط العمدة، عرضت الحكومة سبعة أفدنة من الأراضي البور ناحية حوض أبو عشرة ناحية المصرف الجديد، جاءه المبعوث يعرضها عليه، فرفض، أرسل إليه العمدة رسولًا يخبره أنه شاريها وإن زاد مائة سيزيد مائتين، لم يرد عليه ولم يجيبه، بل ظل ناظرًا لمجموعة من طيور أبي قردان والتي تقتات على الديدان وتسيروتتناحروتطيرمرتفعة وتنخفض عند مجرى المياه في أرضه، رأي أم منهم تمسك بدودة كبيرة بين منقاريها وتطأطئ رأسها فيذهب إليها مهرولًا وفاردًا جناحيه طائر صغير يلجلج بقوة، تمد منقارها فيمد هو الآخر منقاره الصغير ليقطع من الدودة نصفها، وهي ممسكة بما تبقى منها يمد منقاره طائر كبير ممسوح ظهره بين البياض بمسحة برتقالية، فتضرب بجناحها بقوة فيبتعد، حتى يمد صغيرها منقاره ويبتلع ما تبقى في برهة ويهز رقبته الرفيعة عدة هزات، ثم يضرب بجناحيه الصغيرين الهواء ويخوض في المياه برجليه باحثًا عن طعام.

جاءه الخبر بأن سيارة قد سقطت في ترعة التوفيقية وهي عائدة من مديرية البحيرة، لم يستطع أن يسيطر على السقوط الذي شمل قلبه ونزل به إلى أسفل أقدامه، أصبح يشعر أن الدماء تضخ بصعوبة، عاد إلى داره وانتظر حتى آذان للمغرب عاد عبد العاطي والصادق من الحقول وأدخلت المواشي إلى حظائرها، وجدوه قلقًا ولم يرد أن يأكل، وإنما جلس في المندرة وأخرج علبة دخانه ولف سيجارة وأشعلها وسرح في دخانها، حضر بعض الشباب من أصدقاء أبناءه يجلسون في مندرتهم يتحادثون عن زراعتهم ومواعيد الري ويضحكون أحيانًا على خيبة أحدهم في زراعته، دخل الليل وامتلك ظلامه صفحة السماء، لم يعد عبد الوهاب من سوق مواشي مركز النجيلة حتى الآن.

قبل أن يقتله القلق جاءه خفير يخبره أن إشارة وصلت لدوار العمدة بوجود غريق من قريتهم وعليه أن يذهب إلى المركز لتسلم الجثة.

لم ينطق.

فقط بعد أن دفنه، وقف لتلقى العزاء وحوله عبد العاطي والصادق وأحفاده، انتهى العزاء ورحل كل إلى داره، سار وحده حتى المقابر وجلس أمام الفتحة التي أدخل منها ابنه الثالث ومن سبقوه من أبناءه محادثًا القبر:

- لسه مشبعتش، حنكك واسع، وبطنك كبيرة، يادوب تدوب الجتة وعايز غيرها، رجول ياما ماشية على الأرض أدامك، ولا استحليت الطعم، طعمهم حلو عليك، ومرعلقم بهري بدني، بقي المفروض أولدهم وأكفنهم؟ ! ! مين يكفن مين؟ مين يشيل مين قولي؟

وقف بالقرب منه عبد العاطي وتركه حتى باح بما في صدره، ثم أقبل في هدوء وحنو، واحتضن أبيه من الخلف باكيًا، نظر إليه وهب محتضنًا إياه يخبئه في صدره، لكزه بيديه بقوة.

- إيه جابك يا بني هنا؟ اياك اياك، أشوفك هنا.

- يابا. .

- أني بقولك امشي أدامي، ولو قالولك الترب بتولع وطلع منها شياطين اياك تفكر تيجي هنا.

أخذه في صدره، يدفعه أمامه حتى وصلا دارهم، أجلسه أمامه وأوصاه بأخيه الأصغر الصادق وكل الأحفاد، ثم صرفهم وجلس في المندرة ساندًا ظهره ورأسه على النورج القديم في المنتصف، ابتسم وهو ينظر في الركن على يساره ليجد أخيه

شعبان وصديقيه يتحدثون همسًا بينما يجلس أباه الشيخ الصادق وبجواره أحدهم يقضي له دينه وهو على الجانب الآخر يجلس ناظرًا بدقة وممسكًا بعصاه لا تفارق يديه وبجواره جمعة وهو يحكي له عن معركة الأمس حين قتلوا الذئاب كلها وحملوها لتحنط.

obeikandl.com

الغُروبُ

تتشابه الأيام وهي تمر عليه وهو عائدًا من المدخل الشرقي للقرية يركب بغله الكبير وأمامه حفيده محمد بن عبد العاطي يسأله:

- يعني إيه يا جدي شر النفس؟

و من بين أشرطة ضياء القمر الفضية التي تتخلل أوراق وأغصان شجرة التوت الوارفة والصامدة بظلالها على ظهر المقام، رآه يتحرك، حدثته نفسه عن ما يرى بأنه خيال، فصدقها ومضى في طريقه يجيب سؤال حفيده.

***

تمت بحمد الله

obeikandl.com

الفهرس

الشفق.....ص3
الغسق.....ص11
العتمة.....ص17
السدفة.....ص25
الفخمة.....ص31
الزلة.....ص37
الزلفة.....ص47
البهرة.....ص55
السحر.....ص63
الفجر.....ص77
الصبح.....ص89
الصباح.....ص99
الشروق.....ص111
البكور.....ص119
الغدوة.....ص125
الضحى.....ص131
الهاجرة.....ص137
الظهيرة.....ص143
الرواح.....ص151
العصر.....ص157
القصر.....ص163
الأصيل.....ص169
العشي.....ص183
الغروب.....ص189

obeikandi.com